

مَعَزُهُ مَعِي

الصَّوْفِيَّة

تَأْلِيفُ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَكِيلِ

رَحِمَهُ اللَّهُ

اعتنى به ، وعلق عليه

رامي إبراهيم السيد البنا

دار الأمان

إسكندرية

عَزَّ وَجَلَّ
الصَّوْفِيَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مجمع الحقوق المحفوظة

لِلنَّاشِرِ

طبع بإذن كتابي من ورثة المؤلف



هذه هي
الصوفية

دار الإحياء ١٧ شارع جليل الجياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع
تليفون: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

عَزَاهِي الصَّوْفِيَّة

تَأْلِيفُ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَكِيلِ
رَحِمَهُ اللَّهُ

اعتنى به ، وعلق عليه
رامي إبراهيم السيد البنا

دار الإفتاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بمكتبة ٥١٥٧٦٩



مَقَدِّمَةٌ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له..
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٠٢).

[آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (١)
[النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٧١) [الأحزاب: ٧٠ - ٧١]

أما بعد ..

فبين يديك - أخي المسلم - كتاب « هذه هي الصوفية » لمؤلفه فضيلة الشيخ عبد الرحمن الوكيل؛ قد غاص فيه بحراً متلاطم الأمواج، وشرّح جسد الصوفية، بعقيدته الراسخة، وملكنه الفلسفية، ولغته الرصينة، وبيانه الرائع، فحقق فيه ودق، وناقش وردّ، وكشف فيه كل قولٍ فاسد، ورمى بسهامه كل عينٍ لحاقد، فأتى علي بنيانهم من القواعد.

وقد عُهد إليّ بمراجعته والتعليق عليه، فشمرت عن ساعد الجدّ، وشرعت مستعيناً بالله وقد قسمت العمل فيه كالآتي:

القسم الأول: مدخل إلى الكتاب، وفيه مبحثان:

الأول: في بيان بعض الأحكام المتعلقة بقضايا الكفر والإيمان، وفيه خمسة مطالب:

- المطلب الأول: خطورة التسرع في التكفير.
- المطلب الثاني: الفرق بين التكفير المطلق، وتكفير المعين.
- المطلب الثالث: شروط تكفير المعين.
- المطلب الرابع: موانع تكفير المعين.
- المطلب الخامس: ملاحظات حول الكتاب.
- المبحث الثاني: دراسة حول الكتاب، وفيه أربعة مطالب:
- المطلب الأول: أهمية الكتاب.
- المطلب الثاني: المحور الذي يدور حوله الكتاب.
- المطلب الثالث: ترجمة المؤلف.
- المطلب الرابع: منهج المؤلف.

القسم الثاني: متن الكتاب مزود بالتعليقات

ولا أنسى أن أشكر لوالدي الحبيب، وشيخي الفاضل؛ فضيلة الشيخ:
 محمد بن إسماعيل المقدم، على ما بذله لي من النصيح والتشجيع، وتفضله
 عليّ بمراجعة المقدمة، فجزاه الله خيراً، وبارك في عمره.
 اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم.

وكتب

الرحي بن البراهيم بن المبر السنا

القسم الأول :

المبحث الأول

المطلب الأول: خطورة التسرع في التكفير

المطلب الثاني: الفرق بين التكفير المطلق وتكفير المعين

المطلب الثالث: شروط تكفير المعين

المطلب الرابع: موانع تكفير المعين

المطلب الخامس: ملاحظات حول الكتاب

المطلب الأول:

خطورة التصرع في التكفير

إن الحكم بالكفر على مسلمٍ حكمٌ خطير، ومسلِكٌ وعر، لا يجوز لأحدٍ أن يقدم عليه إلا أن يكون عالماً به، حاذقاً بأحكامه وشروطه، وإن خطورة التكفير تتبين من آثاره، فلا يكفر المسلم إلا بعد برهان ساطع، ودليل قاطع؛ ولذلك نهى الإسلام عن التعجل في الحكم بالكفر، ولأن يخطئ الإنسان في السلامة خير له من أن يخطئ في العقاب.

ومن النصوص التي وردت في خطورة الحكم بالكفر:

ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما»^[١].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أما رجل قال لأخيه: يا كافر، فقد جاء بها أحدهما»^[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «... ومن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه»^[٣].

فإن في هذه الأحاديث وما شابهها أعظم زاجر، عن التسرع في التكفير وإطلاقه دون رؤية أو نظر، فقد سماه النبي ﷺ تارة كفرًا، وأخرى ساواه بقتل المسلم؛ ذلك لأن التكفير حقٌ خالصٌ لله - تعالى -، ولو أن مسلماً كفر أخاه؛ فمعنى ذلك أنه حكم عليه بحبوط عمله، واستحقاقه دخول النار خالدًا مخلدًا فيها، هذا في الآخرة، أما في الدنيا؛ فإنه يلزم منه أمور:

[١] رواه البخاري (٦١٠٣، ٦١٠٤)، ومسلم (٦٠).

[٢] رواه البخاري (٦١٠٥).

[٣] رواه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٦١) وهذا لفظه.

- ١- زوال عصمة دمه وماله وعرضه، فليس على قاتله قصاص.
 - ٢- انفساخ عقد زواجه، وتحريم بقائها وأولاده تحت سلطانه وولايته.
 - ٣- وجوب محاكمته لتنفيذ حد الردة عليه بعد إقامة الحجة والاستتابة.
 - ٤- إذا مات فلا تجري عليه أحكام المسلمين؛ فلا يغسل ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يورث.
- وهذه الأحكام الخطيرة توجب على من يتصدى للحكم بتكفير خلق الله؛ أن يتريث مرات ومرات، قبل أن يقول ما يقول^[١].

قال ابن حجر الهيتمي:

«ينبغي للمفتي أن يحتاط في التكفير ما أمكنه لعظيم خطره، وغلبة عدم قصده، سيما من العوام، وما زال أئمتنا على ذلك قديماً وحديثاً»^[٢].

وقد كان من أشد العلماء احترازاً وإنصافاً وعدلاً؛ شيخ الإسلام وعلم الأعلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -، الذي طالما حذر من التسرع في التكفير، يقول عن نفسه:

«هذا، مع أنني دائماً - ومن جالسني يعلم ذلك مني - أنني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية، التي من خالفها كان كافراً تارة، وفاسقاً أخرى، وعاصياً أخرى»^[٣].

* أهل العلم يخطئون ولا يكفرون:

قال شيخ الإسلام: «من عيوب أهل البدع: تكفير بعضهم بعضاً، ومن مادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون»^[٤].

[١] انظر: ظاهرة الغلو في التكفير: د. القرضاوي، ص (٢٣ - ٢٤).

[٢] المرجع السابق، ص (٦٨).

[٣] مجموع الفتاوى، (٣ / ٢٢٩).

[٤] منهاج السنة النبوية (٥ / ٩٢).

لذا ينبغي لمن يقدم على هذا الأمر ألا يتعجل، فبمجرد أن يسمع كلمة قالها رجل، يطير بها في الآفاق؛ فلا بد من تعلم الأحكام الشرعية الخاصة به.



المطلب الثاني:

الفرق بين التكفير المطلقة وتكفير المعين

إن من القواعد المقررة عند أهل السنة والجماعة؛ أنهم يفرقون بين إطلاق التكفير وبين تعيين التكفير في حق شخص بعينه.

فإن التكفير المطلق: هو الحكم بالكفر على القول أو الفعل، أو الاعتقاد الذي ينافي أصل الإسلام ويناقضه، وعلى فاعل ذلك على سبيل الإطلاق، بدون تعيين.

أما تكفير المعين: فهو الحكم على الفرد المعين بالكفر؛ لإتيانه بأمر يناقض الإسلام، بعد استيفاء شروط التكفير فيه، وانتفاء موانعه^[١].

ولا فرق في ذلك بين أصول الدين وفروعه؛ يقول شيخ الإسلام - رحمه الله -:

«وكنيت أبين لهم أنما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضاً حق؛ لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين. وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار وهي مسألة «الوعيد» فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]، وكذلك سائر ما ورد: من فعل كذا فله كذا، فإن هذه مطلقة عامة.

وهي بمنزلة قول من قال من السلف: من قال كذا، فهو كذا. ثم الشخص المعين يلتغى حكم الوعيد فيه: بتوبة، أو حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة.

[١] انظر: منهج ابن تيمية في التكفير (١ / ٣٧)، والغلو للويحق، ص (٣١١).

والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيباً لما قاله الرسول ﷺ؛ لكن قد يكون الرجل حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها؛ وإن كان مخطئاً.

وكنت دائماً أذكر الحديث الذي في الصحيحين في الرجل الذي قال: «إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليم، فوالله إن قدر الله على ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين. ففعلوا به ذلك، فقال الله له: ما حملك على ما فعلت. قال خشيتك: فغفر له».

فهذا رجل شك في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذُرى؛ بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين؛ لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمناً يخاف الله أن يعاقبه، فغفر له بذلك.

والمتاوّل من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول ﷺ أولى بالمغفرة من مثل هذا^[١].

وقال أيضاً:

«فإن خصوص الوعيد التي كانت في الكتاب والسنة، ونصوص الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها في حق المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع»^[٢].

وهذا لا يعني أن نمنع من إطلاق اسم الكفر على من أطلقه الشارع عليه، بل يجب ذلك؛ لأنه حكم أطلقه الشارع فيجب أن نطلقه؛ يقول شيخ الإسلام:

[١] مجموع الفتاوى، (٣ / ٢٣٠ - ٢٣١).

[٢] مجموع الفتاوى، (١٠ / ٣٧٢).

« فهذا الكلام يمهّد أصليين عظيمين :

أحدهما : أن العلم والإيمان والهدى فيما جاء به الرسول ، وأن خلاف ذلك كفر على الإطلاق ؛ فنفي الصفات كفر ، والتكذيب بأن الله يرى في الآخرة ، أو أنه على العرش ، أو أن القرآن كلامه ، أو أنه كلم موسى ، أو أنه اتخذ إبراهيم خليلاً كفر ، وكذلك ما كان في معنى ذلك ، وهذا معنى كلام أئمة السُّنة وأهل الحديث .

والأصل الثاني : أن التكفير العام - كالوعيد العام - يجب القول بإطلاقه وعمومه » [١] .



المطلب الثالث:

شروط تكفير المعين

الشرط الأول

أن يقصد المعين بكلامه المعنى المكفر

لما كان التكفير حكماً شرعياً يتحرى في إطلاقه على المعين التيقن من كفره وردته، كان لازماً معرفة قصد المعين، والتزامه بالمعنى الكفري، أو عدم التزامه؛ وذلك لأن بعض الألفاظ تكون متشعبة المعاني، فربما قصد المعين من لفظ معنى غير المعنى الكفري، أو قال قولاً يستلزم أموراً مكفرة لم يقصدها، ولا يلتزمها. فمن كان هذا حاله يكون رميه بالكفر أمراً مشكوكاً، لا يجوز التجرؤ عليه^[١].

● ذكر ذلك شيخ الإسلام ضمن كلامه على الألفاظ التي تستلزم أموراً كفرية، وأنها لا تلزم القائل إذا لم يلتزمها، وكان ذلك من جملة إجابته على سائل نظم سؤاله في أبيات، فقال:

«ويقول المثلث: نفي مباينته للعالم وعلوه على خلقه باطل، بل هذه الأمور مستلزمة لتكذيب الرسول فيما أثبتته لربه، وأخبر به عنه، وهو كفر أيضاً، لكن ليس كل من تكلم بالكفر يكفر، حتى تقوم عليه الحجة المثبتة لكفره، فإذا قامت عليه الحجة كفر حينئذ، بل نفي هذه الأمور مستلزم للتكفير للرسول فيما أثبتته لربه وأخبر به عنه، بل نفي للصانع وتعطيل له في الحقيقة. وإذا كان نفي هذه الأشياء مستلزماً للكفر بهذا الاعتبار، وقد نفاها طوائف كثيرة من أهل الإيمان، فلازم المذهب ليس بمذهب، إلا أن يستلزمه صاحب المذهب؛ فخلق كثير من الناس ينفون ألفاظاً أو يشتونها،

بل ينفون معانٍ أو يثبتونها، ويكون ذلك مستلزماً لأمور هي كفر، وهم لا يعلمون بالملازمة بل يتناقضون، وما أكثر تناقض الناس، لا سيما في هذا الباب، وليس التناقض كفراً.

ويقول الناظم: أنا أخبرت: أن من قال ذلك هو مفتون وفاتن. وهذا حق؛ لأنه فتن غيره بقوله، وفتنه غيره، وليس كل من فتن يكون كافراً. وادعيت أن من قال ذلك كان قوله مستلزماً للتعطيل، فيكون الكفر كامناً في قوله، والكامن في الشيء لا يجب أن يكون ظاهراً فيه، ولو كان الكفر ظاهراً في قوله للزم تكفير القائل، أما إذا كان كامناً وهو خفي لم يكفر به من لم يعلم حقيقة ما تضمنه من الكفر، وإن كان متضمناً للكفر، ومستلزماً له^[١].

ولا يكفر المعين - أيضاً - بما لا يقصده، كان يطلق لفظاً دالاً على معنى هو يدل على معنى آخر مكفر - فهذا لا يكفر إلا إذا قصد المعنى المكفر. وقد ضرب شيخ الإسلام - رحمه الله - مثلاً لذلك، فقال ضمن رده على من زعم أن الرجل يكفر إذا عبر بعبارة يقال إنها سيئة:

«بل هم مجمعون - يعني أئمة المسلمين - على نقيضه وأن المسلم إذا عني معنى صحيحاً في حق الله - تعالى - أو الرسول ﷺ ولم يكن خبيراً بدلالة اللفاظ، فاطلق لفظاً يظنه دالاً على ذلك المعنى، وكان دالاً على غيره أنه لا يكفر، ومن كفر مثل هذا كان أحق بالكفر، فإنه مخالف للكتاب والسنة وإجماع المسلمين، وقد قال تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنًا﴾ [البقرة: ١٠٤]. وهذه العبارة كانت مما يقصد به اليهود إيذاء النبي ﷺ، والمسلمون لم يقصدوا ذلك فنهاهم الله - تعالى - عنها، ولم يكفرهم بها^[٢].

[١] مجموع الفتاوى، (٣٠٦ - ٣٠٧).

[٢] الرد على البكري، ص (٣٤١ - ٣٤٢).

الشرط الثاني قيام الحجة

بعث الله - تَعَالَى - الرسل من لدن آدم حتى خاتمهم محمد ﷺ؛ لكي يعبدوا الخلق لله، ولكي يقيموا عليهم الحجة؛ قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وما كان الله ليعذب عباده، قبل أن تبلغهم الحجة الرسالية؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه: ١٣٤].

فقيام الحجة شرط من شروط التكليف؛ ومن ثم التكفير، ولا بد أن تكون الحجة تامة باثنة واضحة مثل الشمس، قال شيخ الإسلام - بعد أن نقل حديث الرجل الذي أمر أهله بحرقه بعد موته - قال:

«فهذا اعتقد أنه إذا فعل ذلك لا يقدر الله على إعادته وأنه لا يعيده، أو جوز ذلك، وكلاهما كفر، لكن كان جاهلاً لم يتبين له الحق بياناً يكفر بمخالفته، فغفر الله له؛ ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله - تعالى - فوق العرش لما وقعت محنتهم: أنا لو وافقتكم كنت كافراً لأنني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطاباً لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم، وأصل جهلهم شبهات عقلية، حصلت لرؤوسهم، في قصور من معرفة المنقول الصحيح، والمعقول الصريح الموافق له»^[١].

واستدلوا بأدلة كثيرة على قيام الحجة، نذكرها دون تفسيرها؛
لوضوحها:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥] [١].
 وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝١٦﴾ [الاعلى: ٩] [٢] وقول الله - عزَّ
 وجلَّ - : ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۝١٧ وَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١٨﴾ [سورة الاعلى: ١٠ -
 ١١] [٣].

وقوله - جلَّ وعَلا - : ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝١٩
 قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٢٠﴾
 [المملك: ٨ - ٩] [٤].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة والأحاديث.

* ومن الأمثلة التطبيقية لهذا المطلب؛ التكلم بكلمة الكفر؛ قال
 شيخ الإسلام: «لكن ليس كل من تكلم بالكفر يكفر حتى تقوم الحجة
 المثبتة لكفره، فإذا قامت الحجة كفر حينئذ» [٥].



[١] انظر: كلام شيخ الإسلام: مجموع الفتاوى، (١ / ١١٣).

[٢] انظر: السابق، (١٩ / ٢١٥).

[٣] انظر: السابق، (١٦ / ١٦٦ - ١٦٧).

[٤] انظر: السابق، (١٩ / ٢١٥).

[٥] انظر: السابق، (٥ / ٣٠٦).

المطلب الرابع:

موانع إلحاق التكفير بالمعین

كما أن للتكفير شروطاً يجب توفرها في المحكوم عليه إذا أطلق عليه الحكم بالتكفير؛ يوجد موانع لهذا التكفير؛ إن وجدت في الشخص المعين انتفى عنه حكم التكفير، وهاك أهمها:

الأول: الخطأ

قال في «لسان العرب»: والخطأ هو الغلط، وهو ضد الصواب، ويقال: لمن أراد شيئاً ففعل غيره: أخطأ، كما يقال لمن قصد ذلك؛ فيطلق الخطأ على العمد وعلى غير العمد^[١].

والذي يعيننا هنا هو الخطأ غير العمد أو السهو، فإن الله سبحانه وتعالى - عصم هذه الأمة من أن تجتمع على الخطأ كما قال النبي ﷺ: «إن الله لا يجمع أمتي، أو قال: أمة محمد ﷺ، على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار»^[٢].

وأما أحادها فغير معصومين من الخطأ؛ بل كل ابن آدم يقع في الخطأ إما تعمداً، أو غير متعمداً كما قال النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»^[٣].

وقد أمر الله - تعالى - الناس أن يطلبوا الحق بقدر وسعهم وإمكانهم، ولم يكلفهم ما لا يطيقون، وهذا من رحمة الله - تعالى - بهم، ومن رحمته أيضاً أن من بذل في طلب الحق ما في وسعه، فلم يصبه، وأخطأ فلا يلام على ذلك.

[١] انظر: «اللسان» مادة: «خطأ»، (٢/ ١٩٢)، ط. المعارف.

[٢] رواه الترمذي (٢١٦٧) وصححه الألباني، دون «ومن شذ شذ في النار»، وانظر: صحيح الجامع (١٨٤٨).

[٣] رواه الترمذي (٢٤٩٩) وابن ماجه (٤٢٥١)، وحسنه الألباني، صحيح الجامع (٤٥١٥).

وفي هذا يقول شيخ الإسلام: «وأما القدر الذي تنازعوا فيه فلا يقال: إن الله أمر كلاً منهم باطناً وظاهراً بالتمسك بما هو عليه، كما أمر بذلك الأنبياء، وإن كان هذا قول طائفة من أهل الكلام؛ فإنما يقال: إن الله أمر كلاً منهم أن يطلب الحق بقدر وسعه وإمكانه، فإن أصابه، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقال الله: قد فعلت^[١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الاحزاب: ٥]، فمن ذمهم ولا مهم على ما لم يؤاخذهم الله عليه فقد اعتدى، ومن أراد أن يجعل أقوالهم وأفعالهم بمنزلة قول المعصوم وفعله، وينتصر لها بغير هدى من الله فقد اعتدى، واتبع هواه بغير هدى من الله، ومن فعل ما أمر به بحسب حاله؛ من اجتهاد يقدر عليه، أو تقليد إذا لم يقدر على الاجتهاد، وسلك في تقليده مسلك العدل، فهو مقتصد؛ إذ الأمر مشروط بالقدرة، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]^[٢].

وقال شيخ الإسلام بعد أن ذكر قصة الرجل الذي أمر بحرقه: «فمن أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد، من أهل الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعمل الصالح، لم يكن أسوأ حالاً من هذا الرجل، فيغفر الله له خطأه، أو يعذبه إن كان منه تفريط في اتباع الحق على قدر دينه، وأما تكفير شخص علم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم»^[٣].



[١] رواه مسلم، (١٢٦).

[٢] مجموع الفتاوى، (١٩ / ١٢٧ - ١٢٨).

[٣] الاستقامة، (١ / ١٦٥).

ثانياً: الجهل

(ينبغي الحذر من الانجراف في فتنة إكفار المسلمين؛ لأن باب الاكفار وعدم الاكفار، باب عظمت فيه الفتنة، فيجب على الناصح لنفسه ألا يغامر بدينه ويتورط في إكفار من أظهر الإسلام؛ قال ﷺ: «أبما رجل قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما»^[١]، أما إن ظهر منه عمل من أعمال الكفر، متاولاً أو جاهلاً أنكرنا عليه وعلمناه الحق بأدلتنا، وقد نقل القاسمي - رحمه الله - عن القاضي أبي بكر ابن العربي - رحمه الله - قوله: «فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة، ولو عمل من الكفر والشرك؛ ما يكون صاحبه مشركاً أو كافراً، فإنه يعذر بالجهل والخطأ حتى تتبين له الحجة؛ الذي يكفر تاركها بياناً واضحاً ما يلتبس على مثله، وينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام؛ مما أجمعوا عليه إجماعاً عملياً جلياً قطعياً، يعرفه كل من المسلمين من غير نظر وتأمل»^[٢].

ومن الأدلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]. وقوله - عز من قائل - ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - «لكن من الناس من يكون جاهلاً ببعض هذه الأحكام جهلاً يعذر به، فلا يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة، من جهة بلاغ الرسالة، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. ولهذا لو أسلم رجل، ولم يعلم أن الصلاة واجبة

[١] سبق تخريجه.

[٢] منهج الدعوة الإسلامية ص (١٨ - ١٩)، لشيخنا محمد بن إسماعيل - حفظه الله -، وهو من مطبوعات المدرسة السلفية.

عليه، أو لم يعلم أن الخمر يحرم، لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا، وتحريم هذا؛ بل ولا يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية^[١].

ومن الأدلة - أيضاً؛ حديث الرجل الذي أمر بحرق نفسه بعد موته؛ قال شيخ الإسلام:

« وكثير من الناس قد ينشأ في الامكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يسقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث عهد بالإسلام، فأنكر شيئاً من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة؛ فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول؛ ولهذا جاء في الحديث: « يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صوماً ولا حجاً إلا الشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة، يقول: أدركنا أباءنا وهم يقولون: لا إله إلا الله، وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجاً فقال: ولا صوم ينجيهم من النار^[٢] ».

وقد دل على هذا الأصل ما أخرجه في الصحيحين عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: قال رجل لم يعمل حسنة قط - لأهله: إذا مات فحرقوه، ثم اذرو نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله؛ لئن قدر الله عليه ليعذبنّه عذاباً لا يعذبه أحدٌ من العالمين - فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا؟

[١] مجموع الفتاوى، (١١ / ٤٠٦).

[٢] الحديث في «لبن ماجه» (٤٠٤٩) ونصه من حديث حذيفة مرفوعاً: « يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسل ولا صدقة، ويسري على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس؛ الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا أبائنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها، فقال له صلة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسل؛ ولا صدقة؟، فأعرض عنه حذيفة ثم ردها عليه ثلاثاً، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، أقبل عليه في الثالثة؛ فقال: يا صلة تنجيهم من النار؛ ثلاثاً، وقد قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»، (١٣ / ١٨ - ١٩): «سنده قوي».

قال: من خشيتك، يارب!، وانت أعلم، فغفر الله له» [١].

قال شيخ الإسلام: «فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد من إنكار قدرة الله - تعالى -، وإنكار معاد الأبدان إن تفرقت كفر، لكنه كان مع إيمانه بالله، وإيمانه بأمرة، وخشيته منه؛ جاهلاً بذلك، ضالاً في هذا الظن، مخطئاً، فغفر الله له ذلك والحديث صريح في أن الرجل طمع أن لا يعيده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكون شاكاً في المعاد، وذلك كفر؛ - إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره -، هو بين في عدم إيمانه بالله تعالى، ومن تأول قوله: لئن قدر الله على بمعنى قضى، أو بمعنى ضيق، فقد أبعد النجعة، وحرف الكلم عن مواضعه؛ فإنه إنما أمر بتحريقه وتفريقه لئلا يجمع ويعاد، وقال: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر عليّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً...

فذكر هذه الجملة الثانية بحرف الفاء عقيب الأولى يدل على أنه سبب لها، وأنه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك، فلو كان مقراً بقدرة الله عليه إذا فعل ذلك، كقدرته عليه إذا لم يفعل؛ لم يكن في ذلك فائدة له، ولأن التقدير عليه والتضييق موافقان للتعذيب، وهو قد جعل تفريقه مغايراً لأن يقدر الرب.

قال: فوالله! لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين. فلا يكون الشرط هو الجزاء، ولأنه لو كان مراده ذلك لقال: فوالله لئن جازاني ربي، أو لئن عاقبني ربي ليعذبني عذاباً، كما هو الخطاب المعروف في مثل ذلك، ولأن لفظ «قدر» بمعنى ضيق لا أصل له في اللغة» [٢].

ومن الأدلة التي استدل بها شيخ الإسلام على هذه المسألة، ما رواه

[١] مجموع الفتاوى: (١١ / ٤٠٨)

[٢] مجموع الفتاوى: (١١ / ٤٠٩ - ٤١٠)

مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ . قلنا: بلى. قال: قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعهما عند رجلبيه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رؤيئاً، وانتعل رؤيئاً، وفتح الباب، فخرج، ثم أجافه^[١] رؤيئاً، فجعلت درعي في رأسي، واختمرت، وتقنعت إزارتي، ثم انطلقت على إثره، حتى جاء البقيع، فقام، فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف، فأنحرفت، فأسرع، فأسرعت، فهرول، فهرولت، فاحضر فاحضرت، فسبقتة، فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت، فدخل، فقال: ما لك يا عائش حشياً رابية^[٢]، قالت: قلت: لا شيء. قال: لتخبرني، أو ليخبرني اللطيف الخبير. قالت: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي! فأخبرته، قال: فانت السواد الذي رأيت أمامي، قلت: نعم. فلهدي^[٣] في صدري لهداة أوجعتني، ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟. قالت: مهما يكتنم الناس يعلمه الله؟. قال: نعم. قال: فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأخفاه منك، فأجبته، فأخفيتك منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكهرت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع، فتستغفر لهم. قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قلولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون».

قال - رحمه الله - : «فهذه عائشة أم المؤمنين: سألت النبي ﷺ هل يعلم الله كل ما يكتنم الناس؟ فقال لها النبي ﷺ : نعم، وهذا يدل على

[١] أجافه: أغلقه.

[٢] هو التهييج والاضطراب الذي يعرض للمسرع في مشيه.

[٣] أي دفعها.

أنها لم تكن تعلم ذلك، ولم تكن قبل معرفتها بأن الله عالم بكل شيء يكتمه الناس كافرة، وإن كان الإقرار بذلك بعد قيام الحجة من أصول الإيمان، وإنكار علمه بكل شيء كإنكار قدرته على كل شيء، هذا مع أنها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب؛ ولهذا لهزها النبي ﷺ، وقال: اتخافين أن يحيف الله عليكم ورسوله^[١].

ويتفرع عن قضية العذر بالجهل؛ العذر بالتأويل وهو من الموانع - أيضاً - التي تحول بين إلحاق التكفير على المعين، حتى تزال الشبهة التي لدى المعين، وهو عند كثير من أعيان الجماعات وعلمائها.



[١] مجموع الفتاوى: (١١ / ٤١٢)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٣٥ / ١٦٥)، (٦١ / ٦) والاستقامة:

ثالثاً: العجز:

إن شريعة الإسلام هي شريعة اليسر والسماحة ورفع الحرج؛ فالله - عزَّ وجلَّ - لا يكلفنا بما نعجز عنه، فإذا طرأ عذر، وزادت المشقة عن المعتاد؛ فهنا يفتح باب الترخيص ورفع الحرج، فمن عدم الماء وعجز عن تحصيله أبيح له التيمم، ومن لم يستطع أن يصلي قائماً؛ فجالساً، وإلا فعلى جنب.

وقد عدَّ شيخ الإسلام «العجز» من موانع التكفير؛ فقال مبيناً ذلك:

«فمن ترك بعض الإيمان الواجب لعجزه عنه؛ إما لعدم تمكنه من العلم؛ مثل أن لا تبلغه الرسالة، أو لعدم تمكنه من العمل؛ لم يكن مأموراً بما يعجز عنه، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه؛ وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل؛ بمنزلة المريض والخائف والمستحاضة، وسائر أهل الأعذار؛ الذين يعجزون عن إتمام الصلاة، فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه، وبه أمروا إذ ذاك، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أكمل وأفضل، كما قال النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير» [١] [٢].

واستدل شيخ الإسلام على هذا العذر بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ أَسَعَةً فَنَهَا جُرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩]. وقوله - عزَّ وجلَّ - : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)﴾ [النساء: ٧٥].

قال شيخ الإسلام: «فَعذر - سبحانه - المستضعف العاجز عن الهجرة»^[١].

وقال - رحمه الله - : «وكذلك الكفار؛ من بلغه دعوة النبي ﷺ في دار الكفر، وعلم أنه رسول الله فآمن به، وآمن بما أنزل عليه، واتقى الله ما استطاع، كما فعل النجاشي»^[٢] وغيره، ولم تمكنه الهجرة إلى دار الإسلام، ولا التزام جميع شرائع الإسلام؛ لكونه ممنوعاً من الهجرة، وممنوعاً من إظهار دينه، وليس عنده من يعلمه جميع شرائع الإسلام»^[٣].

واستدل - رحمه الله - أيضاً - بقصة مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون، وامرأة فرعون، ويوسف الصديق - عليه السلام - مع أهل مصر؛ فإنهم كانوا كفاراً»^[٤].



[١] السابق (١٩ / ٢٢٠).

[٢] فقد أسلم - عليه السلام - وكان قومه نصارى أو أسلم معه قليل، وعجز عن الهجرة، مع ذلك صلى عليه النبي ﷺ.

[٣] السابق (١٩ / ٢١٧).

[٤] انظر المصدر السابق، نفس الصفحة.

رابعاً: الإكراه

* الإكراه لغة: إلزام الغير بأمرٍ هو كاره له .

ولكي يتحقق الإكراه لابد من شروط أربعة؛ ذكرها الحافظ ابن حجر في الفتح وهي :

الأول : أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به ، والمأمور عاجزاً عن الدفع ؛ ولو بالفرار .

الثاني : أن يغلب على ظن المكره أنه إذا امتنع أوقع به ما هدد به .

الثالث : أن يكون ما هدد به فورياً ، أو بعد زمن قريب جداً ، أو جرت العادة أنه لا يخلف ما هدد به .

الرابع : أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره^[١] .

والدليل على اعتباره مانعاً من موانع التكفير قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٦] .

خامساً: المجنون

لحديث النبي ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ... » .

سادساً: النائم

للحديث السابق - أيضاً - وفيه : « ... وعن النائم حتى يستيقظ »^[٢] .

وبعد .. فهذه نبذة مختصرة عن موانع الحكم بالكفر على المعين ، أردت التنبيه عليها لما جاء في هذا الكتاب من إطلاقات ، قد يساء فهمها إذا عريت عن هذه الضوابط .

[١] الفتح (١٢ / ٣١١) .

[٢] رواه الترمذي (١٤٢٣) وابن ماجه (٢٠٤١) (٢٤٠٢) وصححه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح

الجامع (٣٥١٢) .

المطلب الخامس:

ما يمحو الكفر بعد ثبوته على المصين

التوبة: هي الرجوع من الذنب إلى الله - تعالى -، والعزم على الإقلاع عنه، ورد المظالم إلى أهلها إن وجدت.

فإن كَفَر معين، توفرت فيه الشروط، وانتفت عنه الموانع التي قدمناها - ثم بعد ذلك ثبت أنه تاب ورجع، فهذا مما يمحو الكفر، ويرجع له وصفه بالإسلام.

قال شيخ الإسلام: «والله - تعالى - يقبل توبة العبد من جميع الذنوب: الشرك فما دونه، كما قال - تعالى -: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]، وقال - تعالى -: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال - عز وجل -: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٦] أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. فمن تاب من هذه الاعتقادات الفاسدة، وهو استحلال شيء من المحرمات، أو التدين بشيء منها، قبل الله توبته، وأما من استحل ذلك أو تدين به وإن لم يفعل، فالذي يفعل ذلك وهو معتقد للتحريم خير منه، فإن هذا مؤمن مذهب وأما الاستحلال لها والتدين بها فهو كفر» [١].

والدليل على قبول التوبة، ورجوع كون وصفه بالإسلام مرة أخرى؛ هو أن النبي ﷺ قبل توبة من تاب من المرتدين، ومنهم من خاض في النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام بعد أن ذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. قال: «ثبت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن كل من تاب تاب الله عليه، ومعلوم أن من سب الرسول من الكفار المحاربين، وقال: هو ساحر، أو شاعر، أو مجنون، أو معلّم، أو مفتر، وتاب تاب الله عليه، وقد كان طائفة يسبون النبي ﷺ من أهل الحرب، ثم أسلموا، وحسن إسلامهم، وقبل النبي ﷺ منهم: منهم أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب؛ ابن عم النبي ﷺ وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وكان قد ارتد، وكان يكذب على النبي ﷺ، ويقول: أنا كنت أعلمه القرآن. ثم تاب، وأسلم، وبايعه النبي ﷺ على ذلك» [١].

إلى هنا انتهى المراد من بيانه في أحكام قضايا الكفر والإيمان؛ نخلص من المطالب المتقدمة بالنقاط الآتية:

١- خطورة الإسراع بالتكفير وعدم التروّ فيه، وأن هذا حقّ لله - عَزَّ وَجَلَّ - ومن ثم لا يقدم عليه إلا الراسخون في العلم.

٢- فرق بين إطلاق التكفير، وإلحاق التكفير بمعين؛ فقولنا: أن هذا العمل كفر بما دلّ عليه الكتاب والسنة، فهذا لا شيء فيه، أما قولنا: هذا الرجل كافر بعينه؛ فهذا لا بد فيه من تروّ، وتطبيق الأحكام السابقة عليه.



المطلب السادس:

ملاحظات حول الكتاب

• الملاحظة الأولى:

وبناءً على ما سبق فقد وقع المؤلف - عفا الله عنه - في بعض الإطلاقات التي هي محل نظر:

- فمن ذلك أنه أحياناً يطلق وصف « الكفر » على الصوفية، دون مراعاة الضوابط التي سبق ذكرها، أضف إلى ذلك أنه لا بد من تحديد المراد بالصوفية قبل الحكم عليها؛ فهناك من يعتبرها طائفة متخصصة في الجانب الروحي والوجداني من الإسلام، وأن التصوف هو الطريق إلى تهذيب النفس وصفاء الروح، وعمارة الأوقاف بالعبادة، وإن كان الأسلم التعبير بالمصطلحات الشرعية كتزكية النفس، لأن لفظ الصوفية صار مشتبهاً موهماً.

ومن الناس من يعتمد بدع الصوفية في العبادات والأذكار، ومنهم غلاة القبورين، ومنهم الاتحادية والحلولية.

• الملاحظة الثانية:

ويلاحظ على المؤلف - رحمه الله تعالى - أنه غض الطرف عن خاتمة الشيخ أبي حامد الغزالي - عفا الله عنه - الحسنة بإذن الله، وركز فقط على أخطائه وآرائه الصوفية.

قال الشيخ عبد الرحمن دمشقية - حفظه الله -: « ففي المرحلة الأخيرة اختلفت دعوته؛ ففي حين كان يدعو إلى التصوف والذوق والمواجيد والكشف والفناء وغيره ... صار يدعو في المرحلة الأخيرة من عمره إلى الكف والاتباع وترك الابتداع والعمل بما كان عليه السلف الصالح.

وإن نظرة إلى كتابه المسمى «إلجام العوام عن علم الكلام» - وهو من آخر مصنفاته على الإطلاق -؛ ليثبت لنا حقيقة هذا التغير من وجوه عديدة:

الوجه الأول: أنه انتصر في هذا الكتاب لعقيدة السلف منبهاً على أن الحق هو مذهب السلف، وأن من خالفهم في ذلك فهو مبتدع^[١].

الوجه الثاني: أنه نهى عن التأويل أشد النهي، داعياً إلى إثبات صفات الله، وعدم تأويلها بما يؤدي إلى تعطيلها التعطيل حيث قال بأن:

«علاج وهم التشبيه أسهل من علاج وهم التعطيل؛ إذ يكفي أن يقال مع هذه الظواهر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾» [الشورى: ١١] .»

الوجه الثالث: أنه شدد النكير على المتكلمين، ووصف أصولهم ومقاييسهم بـ «البدعة المذمومة»، وبأنها كانت سبباً تضرر أكثر الخلق منها قائلاً:

«والدليل على تضرر الخلق به: المشاهدة، والعيان والتجربة، وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون، وفشت صناعة الكلام مع نهى العصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك.

ويدل عليه - أيضاً - أن رسول الله ﷺ والصحابة بأجمعهم ما سلكوا في المحاجة مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتدقيقاتهم - لا لعجز منهم عن ذلك - فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه، ولخاضوا في تحرير الأدلة خوفاً يزيد على خوضهم في مسائل الفرائض» اهـ. كلام الغزالي.

وأشار الغزالي - رحمه الله - إلى مسألة مهمة وهي: «أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع مقاييس العقلية وترتيب المقدمات.

كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش، ومن لا يقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيف والبنان فما بعد بيان الله بيان».

وجلُّ موقفه وضعه في العبارة الخاتمة القوية: «فما بعد بيان الله بيان»

الوجه الرابع: أنه توسع في الكلام عن البدعة والتحذير منها في هذا الكتاب، الأمر الذي لا نجده في كتبه الأخرى، ففي الإحياء - مثلاً - يندر وجود أي كلام عن البدعة ومخالفة السلف في العقائد أو العبادات أو انتهاج منهج المتكلمين.

فإذا تكلم عن البدع أراد بذلك تقرير شيء من تعاليم الصوفية؛ فإنه حين كان يثني على كثرة الجوع ويذم الشبع ذكر عن عائشة رضي الله عنها قولاً يستبعد صدوره منها، وهو قول عجيب؛ يقول الغزالي: «وقالت عائشة: أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ: الشبع»^[١].

بينما تجد في «الإلجام» قد حمل على كل مذهب أو علم أو رأي خالف ما كان عليه السلف، واعتبره بدعة مذمومة.

يقول: «وكذلك العوام؛ إذا طلبوا بالسؤال عن هذه المعاني يجب زجرهم ومنعهم، وضربهم بالدرة كما كان يفعل عمر رضي الله عنه بكل من سأل عن الآيات المتشابهات، وكما فعله رسول الله ﷺ في الإنكار على قوم رآهم خاضوا في مسألة القدر وسألوا عنه، فقال عليه السلام: فبهذا امرتم؟ وقال: «إِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ السَّوَالِ»^[٢]، ويضيف قائلاً: «ولذلك أقول: يحرم على الوعاظ على رؤوس المنابر الجواب عن هذه الأسئلة بالخوض في التأويل والتفصيل؛ بل الجواب عليهم، بالاختصار على ما ذكرناه وذكره السلف»^[٣].

[١] الإحياء، (٣/ ٨٦).

[٢] أخرجه أحمد (٢/ ١٩٥)، والبعوي في شرح السنة، (١١/ ٢٦٠)، ومسلم (٢٦٦٦) بلفظ آخر.

[٣] الإلجام العوام، (٧٠).

قال الشيخ عبد الرحمن دمشقية:

«والذي نقلناه عن أبي حامد الغزالي يثبت رجوعه عما كان عليه من القول بالكشف وإدراك خصائص النبوة وقواها، وبالاتماد في التأويل أو الإثبات على الكشف الذي كان يراه غاية العلوم».

وقال: «ولا نقول أن كلامه هنا هو عين كلام السلف ومذهبهم في العقائد، وأنه فهمها تماماً على الوجه المطلوب، ولكن حسينا رجوعه إليها، وحشة وإحالة عليها في حين أنه كان يحيل على الكشف وسلوك الذوق من طريق التصوف».

فصل: في الكلام على خاتمته - رحمه الله :-

تناقل العلماء - سلفاً وخلفاً - أن الغزالي - رحمه الله - في آخر حياته أقبل على تعلم الحديث ومجالسه، فمن ذلك؛

* حكى تلميذه - عبد الغافر الفارسي - آخر مراحل حياته قائلاً:
«وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين - البخاري ومسلم - اللذين هما حجة الإسلام»^[١].

* وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه ونور ضريحه - : «ثم لما لم يحصل مطلوبه من هذه الطرق بقي من أهل الوقف ومال إلى طريقة أهل الحديث، فمات وهو يشتغل بالبخاري ومسلم»^[٢].

* وقال الإمام الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : «ويقال أنه مال في آخر عمره إلى سماع الحديث والتحفيظ للصحيحين»^[٣].

[١] انظر في ذلك: طبقات السبكي (٤ / ١٠٩ - ١١١)، وتبين كذب المفترى لابن عساكر ص (٢٩٦)

والسير للذهبي (١٩ / ٣٢٣ - ٣٢٤)

[٢] الصفدية، ص (٢١٢).

[٣] البداية والنهاية، (١٢ / ١٧٤)

وقال عنه الذهبي - بعد أن ذكر عنه أشياء - : « ولولا أنه - أي أبو حامد من كبار الأذكياء، وخيار المخلصين، لتلف » [١].

قال الشيخ عبد الرحمن دمشقية - حفظه الله - :

« علي أن الغزالي لم يصرح مباشرة برجوعه عما كان عليه، وقد يكون ذلك عائداً إلى أن الغزالي مات حين كان في بداية الطريق الأخير الذي سلكه (أي طلبه للحديث) » [٢].

• الملاحظة الثالثة:

كثرة استشهاده بأقوال المستشرقين، وهذا لا غبار عليه إن احتيج إليه؛ ولكن المسألة أشبعها علماء الإسلام، نقداً وتحليلاً، فكان الأنسب الاقتصار على كلامهم، لا سيما وقد أطلقوا عبارات لا تتفق مع الإسلام، إما جهلاً منهم أو كيداً للإسلام وأهله [٣].

وبعد ...

فهذه بعض الملاحظات التي كانت على الكتاب، والتي لا تنقص من قيمته، فكلُّ يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وكما قال الشاعر:

من ذا الذي ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه



[١] السير (٣١٢ / ١٤).

[٢] انظر: أبو حامد الغزالي والتصوف (٤١٩ - ٤٣٠).

[٣] لبيان خطر الاستشراق على الفكر الإسلامي؛ راجع: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» للاديب العملاق: محمود شاكر وبقيّة كتبه، وكتب المفكر الكبير الأستاذ: أنور الجندي مثل «أصالة الفكر الإسلامي في مواجهة التعريب والتنوير العربي»، وكتب الدكتور: محمد محمد حسين مثل «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» - رحمة الله عليهم أجمعين -.

المبحث الثاني دراسة حول الكتاب

المطلب الأول: أهمية الكتاب

المطلب الثاني: المحور الذي يدور حوله الكتاب

المطلب الثالث: ترجمة المؤلف

المطلب الرابع: منهج المؤلف

المطلب الأول:

أهمية الكتاب

- للكتاب الذي بين أيدينا أهمية كبيرة، فقد ذاع صيته في الآفاق، ودُحِضَ به غلاة الصوفية وملاحدة الحلولية وغيرهم، وأهمية الكتاب تتجلى في النقاط التالية:
- (١) أن المؤلف قد اتسم بالموضوعية في دراسته؛ فهو يتكلم عن الصوفية؛ لذا نفض الغبار عن كتب الصوفية أنفسهم وأخذ منها وناقشها مناقشة الخبير بها، العالم بأسرارها. ولم لا ١٢٩، وقد عاش التجربة بنفسه وتجَرَّع مرارتها.
- (٢) أن المؤلف - رحمه الله - كان خبيراً بالفلسفة اليونانية؛ الأمر الذي أهله لدحض نظرية «وحدة الوجود» واجتثاثها من جذورها.
- (٣) أن أسلوب المؤلف أسلوب أدبي متميز ورصين؛ يقوم على التوسع في استخدام المفردات، وتنويع الأساليب، مما كان له الأثر البالغ في خدمة الفكرة التي انتدب نفسه لبيانها.
- (٤) أن الكتاب قد ظهر في مرحلة؛ قويت فيها شوكة هذه الطائفة، وارتفعت راياتها، وامتد نفوذها، حتى صاروا يتكلمون ولا نكير، وشُبِّهت على كثير من الناس - بسبب هذه الطائفة - حقائق الدين.
- فكان هذا الكتاب؛ صفةً قويةً نُبِّهت المخدوعين بالصوفية، وأيقظتهم من غفلتهم، وردتهم إلى الحق رداً جميلاً.
- (٥) ونظراً لموقع المؤلف داخل جماعة أنصار السنة المحمدية^[١]، فإن الكتاب عكس موقفاً حاسماً وصريحاً للجماعة من بدع ومنكرات الصوفية التي شاعت وزادت، وشغلت الساحة الفكرية.

[١] جماعة أنصار السنة؛ جماعة سنية سلفية قامت في مصر أولاً ثم انتشرت في غيرها للدعوة إلى الإسلام والتوحيد الخالص، وأسست عام (١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م) بمدينة القاهرة على يد العلامة الشيخ محمد حامد الفقي - رحمه الله - الذي توفي فجر الجمعة ٧ من رجب ١٣٧٨ هـ في دار الجماعة، ومن أعلامها أيضاً العلامة الجليل الشيخ عبد الرزاق عفيفي (١٣٢٣ - ١٤١٥ هـ) والعلامة الدكتور محمد خليل هراس - رحمه الله تعالى -، ولارالت بجهودها المباركة تقيم السنة وتقمع البدعة، حرسها الله من كل سوء.

المطلب الثاني:

المحور الذي يدور حوله الكتاب

المحور الذي يدور حوله أغلب الكتاب؛ هو نقد عقيدة «وحدة الوجود»، التي اتخذها غلاة الصوفية شعاراً لهم، والتي كانت سبباً في الإنحرافات الكثيرة التي وقعوا فيها.

أما عن أصل هذه النظرية، فهي من الفلسفة اليونانية الوثنية، يقول أحد فلاسفتهم والذي يدعونه بـ «فيلسوف الوجود المحض»: «إن كل الظواهر التي نراها ونعيشها، وكل هذه الموجودات التي نتعامل معها؛ ليست لها حقائق متميزة بين بعضها، وبالتالي فليس ثمة فرق جوهري بين الإنسان والحيوان وغيرها، فكلها ذات واحدة»^[١].

ويقول د. عبد الرحمن بدوي:

«إن هؤلاء الفلاسفة السابقين على سقراط - أي فلاسفة اليونان - لم يضعوا تفرقة بين الله والطبيعة؛ بل تصوروا أن الطبيعة هي الله، والله هو الطبيعة، وهذا المذهب هو المذهب المعروف باسم «وحدة الوجود»^[٢].

فإذا قارنت هذا الكلام مع شبهه عند منحرفة المتصوفة، فستجد أن هذا الكلام أصل لشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، ثم إن ديننا الحنيف ليس فيه تعقيدات، ولا طلاس ولا ألغاز، لا يحلها إلا الخبير بها، وليس الدين حكراً على طائفة معينة من الناس، فديننا دين الفطرة ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

[١] مدخل إلى الفلسفة خريف الفكر اليوناني ص (٨٨)، د. عبد الرحمن بدوي، ط. الخامسة (١٩٧٦)، دار الفلم.

[٢] خريف الفكر اليوناني مدخل إلى الفلسفة اليونانية ص (٨٨)، د. محمد عفيفي، ط. دار العلم.

إن شقشقة الكلام، وتعقيده، وتلغيز الحقائق، ثم دعوى أن هذا لا يفقهه ولا يحل طلاسمة، إلا خواص الناس؛ سمة تميز أهل البدع والأهواء عن أهل السنة والجماعة الذين ينفذون إلى الحقائق الناصعة بسلاسة وسهولة ويسر، دونما حاجة إلى التفرع والتنطع والتكلف.



المطلب الثالث:

ترجمة المؤلف

• اسمه: عبد الرحمن بن عبد الوهّاب الوكيل

• مولده: ولد - رحمه الله - في قرية زاوية البقلي - مركز الشهداء - المنوفية في عام ١٣٣٢ هـ، ٢٣ / ٦ / ١٩١٣ م.

• تعلمه: حفظ القرآن الكريم في كُتّاب القرية ثم التحق بالمعهد الديني في طنطا، وقد مكث يدرس تسع سنوات، ثم حصل على الثانوية الأزهرية، والتحق بكلية أصول الدين، وحصل على الإجازة العالية بتفوق، ولم يكمل الدراسات العليا إذ غلبه المرض على ذلك.

حصل أيضاً على درجتي العالمية وإجازة التدريس.

• تعليمه ونشره للعلم:

عين مدرساً للدين بالمدارس الثانوية بوزارة المعارف (التربية والتعليم).

تعرف على فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي مؤسس جماعة أنصار السنة سنة (١٩٣٦ م)، وقد حظى لديه بمكانة خاصة.

انتخب للعمل بالمعهد العلمي بالرياض مع فضيلة الشيخ محمد عبد الوهّاب البنا عام ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م وهو من مؤسسي الجماعة.

اختير - رحمه الله - رئيساً لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر القديمة، كما عمل وكيلاً أول للجماعة، وعند اختيار الشيخ عبد الرزاق عفيفي - رحمه الله - رئيساً للجماعة، تم انتخابه «نائباً للرئيس» في ٢٢ / ٢ / ١٣٧٩ هـ، ٢٧ / ٨ / ١٩٥٩ م ثم انتخب رئيساً للجماعة بعد سفر الشيخ عبد الرزاق عفيفي، ليكون ثاني رئيس للجماعة بعد مؤسسها وانتخب نائباً له الشيخ محمد خليل هراس.

انتدب أستاذاً بكلية الشريعة بمكة المكرمة - زادها الله شرفاً - في وظيفة أستاذ العقيدة بقسم الدراسات العليا، وظل بها إلى أن قضى نحبه .

• ثناء العلماء عليه:

قال فيه الشيخ محمد حامد الفقي - رحمه الله - في مقدمته لتحقيق كتاب «نقض المنطق»: «ثم وكلت إلى الأخ الفاضل المحقق الشيخ عبد الرحمن الوكيل؛ وکیل جماعة أنصار السنة المحمدية عمل مقدمة له؛ لأنه متخصص في الفلسفة وله بصير نافذ فيها وهو من خلصاء شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -» .

وقال عنه الشيخ محمد علي عبد الرحيم - رحمه الله - : «لقد كان الشيخ عبد الرحمن الوكيل موفور الحظ من اللغة، وجمال البلاغة، ووضوح المعنى، وسعة الاطلاع وشرف الغاية، كما جمع علماً مصفى من شوائب البدع والخرافات الصوفية، وكان حسن اللغة، قليل اللحن، فصيح العبارة، له اجتهاداته الواعية، وكان في ذلك نمطاً فريداً في جماعته لا يشاركه في ذلك إلا حبر سواه ج وعلامتها أبو الوفاء درويش» .

وقال عنه الشيخ أبو الوفاء درويش : «لو كنت أريد أن أوفيه حقه من التمجيد وأن أشرح آثار قلمه الفياض في نفوس القراء، وأن أنوه بما خصه الله به من شجاعة في الحق نادرة، وصراحة يعز منالها في أيماننا الحاضرة، وأن أومئ إلى ما لازم قلمه الجري من التوفيق في جولاته الموفقة في كل ميادين المعرفة، وما امتاز به أسلوبه الجزل من روعة تسيطر على النفوس، وجلاء علل القلوب؛ لما استطعت أن أوفيه حقه» .

قال عنه الدكتور سيد رزق الظويل - رحمه الله - : «لقد كان في أخلاقه نسيج وحده، سمو في الخلق، متنوع المعرفة، أديباً، شاعراً جزل الشعر قوي العبارة» (مقدمة دعوة الحق . مختصراً)

وقال عنه الشيخ محمد صادق عرنوس: «إن أخانا الاستاذ النابغة عبدالرحمن الوكيل المعروف بين قراء «الهدى النبوي»^[١] بـ «هادم الطواغيت»؛ قد أصبح أخصائياً في تشريح التصوف والإحاطة بوظائف أعضائه».

• **مؤلفاته:** كانت معظم مؤلفاته في نقد أهل البدع والأهواء؛ وبخاصة الصوفية وأهمها:

«صوفيات»

«البهائية»

«الصفات الإلهية»

«زندقة الجيلي»

«هذه هي الصوفية»؛ وهو كتابنا هذا.

• **وفاته:**

توفي - رحمه الله - في ٢٢ من جمادى الأولى ١٣٩٠ هـ (١٩٧١ م)، ودفن بالحجون (بمكة المكرمة).

فرحمه الله رحمة واسعة واسكنه ورفاقه فسيح جناته،
إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.



[١] هي مجلة أسسها الشيخ الفقي؛ لتكون لسان حال الجماعة، ودعوتها القائمة، وتولى بنفسه رئاسة تحريرها، وشارك فيها مجموعة من العلماء الكبار؛ أمثال المحدث الشيخ أحمد شاكر والعلامة محب الدين الخطيب، والمحقق الكبير الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد وشيخ الأزهر الشيخ / محمود شلتوت - رحمهم الله أجمعين -، وفي عام (١٣٨٧ هـ) توقفت المجلة، وكان العدد الأخير منها؛ العدد الثاني من العام الحادي عشر في صفر لسنة (١٣٨٧ هـ).

المطلب الرابع:

منهج المؤلف

(١) اعتمد المؤلف - في كتابه هذا - على نقول واقتباسات من المراجع الصوفية، المشهور منها والمغمور، مع توثيقها بذكر تاريخ ومكان طبعها.

(٢) انتقد المؤلف النصوص المنقولة عن الصوفية، نقداً علمياً موضوعياً، في ضوء نصوص الكتاب الكريم والسنة الشريفة، كما شهر في وجه شبهاتهم نفس سلاح الفلسفة؛ التي بنوا عليها ضلالاتهم.

• أسلوب المؤلف:

أسلوب جزل رصين، سخر فيه إمكاناته اللغوية القوية، وأفاد من تنوع الأساليب، وطوعها لخدمة فكرته.

وربما غالى في الشدة على من يتقده، يحدوه في ذلك غيرته على التوحيد، وحرصه على صفاء العقيدة من أي شائبة.

وقد أتى الكتاب في صورة خطاب أرسله إلى شيخ الصوفية؛ الذي اشتكى الجماعة إلى وكيل النيابة^[١]، ويعد - في نفس الوقت - خطاباً إلى كل تائه ومغرر به من هذه الطائفة.

وقد وفقني الله - عزَّ وجلَّ - إلى خدمة هذا الكتاب، وتقريبه لقارئه

حيث:

١. قمت بتوثيق النصوص المنقولة قدر الطاقة؛ بالرجوع إلى مصادرها الأصلية، وقد لوحظ كثيراً من السقط والاختصار، فما كان منه قليلاً، رددته إلى أصله، ووضعت بين قوسين هكذا []، وإلا أشير إليه في الهامش، أو أنقله مفصلاً.

٢ . تخريج الأحاديث التي وردت في الكتاب، تخريجاً مختصراً يفني بالحاجة .

٣ . التعريف ببعض الأعلام التي لم يترجم لها المؤلف .

٤ . تخريج الأبيات الواردة في الكتاب، وضبطها على مصادرها الأصلية .

■ . تفسير الكلمات الغريبة غير المألوفة للقارئ .

٦ . ميزت التعليقات المضافة بالترقيم بين القوسين على هذا النحو ^[]، عن تعليقات المؤلف التي موضوعة بين قوسين هكذا () .



هَزْهَمِي الصُّوفِيَّةَا

تأليف

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْوَكِيل

(١٣٣٢ - ١٣٩٠ هـ)

اعتنى به ، وعلق عليه

رَامي إِبراهيم السَّيِّد البتَّا

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد خاتم النبيين وسيد ولد آدم أجمعين.

لَمَّا بَعْدُ

فمازلت أذكر، وأنا طالب في معهد طنطا الديني، ذلك الشيخ الشيبية يقسم لنا - وعينه مَحْضَلَّتَانِ بالدموع ونبراتُ صوته أصداء عميقة بعيدة الغَوْرِ من الشَّجْوِ الوَلْهَانِ، والحنينِ الهائم، والحرمانِ الجريح - يقسم لنا أن في ضريح عبد العال المجاور لضريح البدوي شعرة من رأس الرسول!، وأنها معين خير، وفيض بركة ويؤمن، ومطافُ آمالٍ، ومَهْوَى رجاء!! وأذكر أنني حين سمعت حديثه، يؤكد بقسم غليظ، شعرت بقلبي، وكأنما يود أن ينشق عنه الصدر؛ ليهفوَ في صبابته الملهوفة إلى معبد الشعرة يقبلها، ويكنُّها في مهجته، بل شعرت كأنما حملت الملائكة إلى بشرى الخلود!!

ومازلت أذكر أيضاً أنني سألت الشيخ؛ ليطمئن قلبي على هذا الأمل الخلو الساحر الفتنة، عما جعلهم يوقنون بنسبة هذه الشعرة إلى رأس النبي الأعظم؟ فأجاب تولاه الله بما قدَّم -: لقد وضعناها في زجاجة، وأقمنا حولها حلقة ذكر وإنشاد، فإذا بالشعرة تذكر مع الذاكرين على دفيف الدفوف، وحنَّاتِ النايات، والنغم المطرب المرقص من الأناشيد!!.

وأذكر أنني آمنت بهذه الأسطورة كأنما هي من الله برهان ساطع!! وأذكر أن الشيخ تداركنا - حتى يُحَكِّمَ القيد - بحجة أخرى، فزعم أنهم وضعوا الشعرة تحت الشمس، فلم يجدوا لها ظلاً!! وكان هذا الوهم الوثني الجديد حجة عندي تدحض كل ريبه!!.

وأذكر - ويارب غفرانك - أن خرافة الشيخ هذه غمرتني بنشوة سَكْرَى خِلْتُ فيها أنني أرى الجنة، أو أنني صحابي يتلو عليه الرسول وَحْيَ الله!!.

فكنت أهفو إلى هيكل الشعرة^[١] خاشع الطرف، ريان القلب بالولاء،
أصلي لها بنجاوي^[٢] الحب العابد، وألثم^[٣] خشب هيكلها وحجره في
شغف ثائر الاشواق عرييد التلهف، وأنهنه^[٤] بالارواح العطرية - التي إخال
أنها تناسمني منها - دموعي المسكوبة لوعة عشق، وظماً غرام^[٥].

وتعال معي أذكرك بأنني كنت أطوف حول صنم البدوي^[٦]، حتى إذا
مثلت أمام الكوة^[٧] الصغيرة في وثنه النحاسي البراق، أنفذت منها يدي - في
رعشة التقديس - حتى ألمس ستر القبر، ثم أخرجها رويداً رويداً في حرص
وحذر بالغين، وقد ضمنت قبضتيهما على ...؟ على ماذا؟ كنت أوقن
حينذاك أنني أضمهما على بركات سماوية تفيض من روح الله على القبر^(٨)!!
ثم أبسط يدي في جيبى، ثم أمسح بها وجهي، رجاءً أن أكون مُيسر الرزق،
داني قطوف النجاح، مشرق الوجه بنور الله!! وتعال - ولا تسام من ذكرياتي
- فإنها عبرة ضحية، وعظة مأساة - أذكرك بذلك الدويّ ترجف منه الأرض،
وترتعد جذر المعهد حين كانت توزع أسئلة اختبار آخر العام الدراسي. أتدري
ماذا كان يحدث؟.

تهبُّ هذه الآلاف المضطربة من الطلبة رافعة أكفها في ضراعة ناعقة بما لا
يسمع، ولا يبصر، حتى ليبح صوتها، وتتمزق حناجرها إذ تنعق ضارعة:
ياسيد!! وياويل السمع من طول « ياء النداء»!! لقد كانت تطول، وتطول،

[١] أي الشعرة التي يزعمون أنها من الرسول ﷺ.

[٢] النجاوي جمع نجوى وهي من انتجى القوم تناجو أي تساروا.

[٣] ألثم: أقبل.

[٤] (نهنه) عن الشيء (فتنهه)؛ أي كفه وزجره فكف.

[٥] كل هذا - وما يأتي بعده - يصور لك المؤلف - رحمه الله - مدى الخشوع والشوق، والخوف من القبر
الذي أمامه.

[٦] هو أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد البدوي، شيعي باطني، ولد بمدينة «فاس» بالمغرب (٥٩٦ هـ)
وتوفي سنة (٦٧٥ هـ)، «السيد البدوي»، ص ٥، د. عبد الله صابر.

[٧] الكوة بالفتح والضم لغتان وهي ثقب البيت، ويقصد بها المؤلف هنا؛ النافذة التي في ضريح البدوي.

(٨) يزعم الصوفية أن فوق كل ضريح ولي نافذة مفتوحة في السماء، يفيض الله منها بركاته على الطائفتين
حول الضريح!.

حتى يُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّهَا دُخَانٌ مَارِدٌ يَحْتَرِقُ، فَيَلْمَسُ دُخَانَهُ قُبَةَ النِّجْمِ، وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؛ لِتَصِلَ أَصْدَاءُ ضُرَاعَتِهِمْ إِلَى حَيْثُ جُثِمَتْ عَلَى الْأَرْضِ فِي غِيَابَةِ الْقَبْرِ جَيْفَةً مَنْ دَعَوْهُ!!

ولعلك تسألني: وماذا كان يفعل بكم شيوخكم؟ كانوا يرفعون في سكرة الحُبِّ وذل الخشية أيديهم المعروقة، يمسحون بها وجوههم، أو يمسحون لحاهم، ومن بين الشفاه الذوابل تنساب هذه الهمهمة: «رضي الله عنك ياسيد!!» ثم يلتفتون إلينا، وعلى وجوههم ألق^[١] الرضى ناصحين في تأييد وإعجاب: «كفاية ما خلاص سميعكم السيد!!».

وتعال - وناشدتك الله إلا ما أصغيت غير مال ولا كاره - أذكرك بذلك الشيخ الأكبر الذي كان يشرك الدهماء^[٢] في يوم «الكنسة» وكان يمزق عمامة صنم البدوي مزقاً، ثم يهديها إلى مريديه بركة - في زعمه - من رَوْحِ الله التي يفرق صبيها ذبائك^[٣] الوثن!!

لقد كان للشيخ الأكبر شيخٌ هو تاجر خيط في المدينة، وقد أعطاه العهد، وألبسه «خرقة التصوف»، وكان التاجر على أُمِّية وجهالة، بيد أنه كان خبيراً بزندقة الصوفية، مؤمناً بها، يبشها، ويهوي بالهالكين في حماتها!!

ولقد كنا نرى الشيخ الأكبر يخفض من رأسه عبودية للتاجر الصوفي!! ثم يلثم يديه في خشية ورهبة وإجلال!! وكنا نهتف إعجاباً بصنيع الشيخ؟؛ إذ نراه دلائل قوية على إيمان عميق، وتواضع كريم!!

كذلك كنا نحرص كل الحرص على أن ننتشي^[٤] بمشهد الشيخ، وهو

[١] ألق البرق - أليقا: لمع وأضاء.

[٢] الدهماء: عامة الناس، وسوادهم (ج) دهم.

[٣] ذبائك: أصلها (ذبأ) وأضيف إليها لام البعد وكاف الخطاب، فأصبحت إشارة للبعيد وهي قليلة الاستعمال ولها شاهد من قول رؤية بن العجاج:

لتقعدن مقعد القصي مني ذي القاذورة المقلبي

أو تحلفني برئك العلي أنى أبوذائك الصبي

[٤] نشي - نشوة: سكر أول السكر، وبالشيء أحبه، وفلان انتشى: بدأ سكره.

يطوف حول ضريح البدوي، يتلمس نحاسه وستره، حتى إذا بلغ فمه موضعاً منه، راح يشويه بسعير القبل من شفتيه الناريتين!! ونحرص كل الحرص على أن نوفض من منازلنا سراعاً إلى «مولد» البدوي؛ لنشهد سرادق الشيخ الأكبر المضروب على أبدٍ طويل عريض من الأرض احتفاءً بمولد الوثن الأكبر!! ولنطعم طعامه، ونشرب شرابه، ثم نخرج من السرادق الفخم الضخم مهرولين صوب النصيب الكبير، أو ما يسميه الدراويش «العمود أو الصاري»^(١)، نقترف هذا، لعلنا نصيب بركة من القطب الغوث^[٢] الذي قبل لنا: إنه لا يحرص على شيء كما يحرص على شهود الليلة الخاتمة «للمولد» هو والأقطاب الآخرون والأوتاد والأبدال والأنجاب!! ولعلنا نبصر واحداً منهم فيما تجسد فيه من صور^(٣).

ثم تعال معي إلى الجامع الأحمدي الكبير، أو هيكل الطاغوت الأكبر؛ لترى هذه الحشود التي يemor^[٤]، ويموج بها الجامع من نساء ورجال وأطفال، وفدوا إلى الصنم من كل فج عميق، وقد أشعلوا مواقدهم، يطهون الطعام، أو يصنعون «الشاي، والقرفة» وأمام كل منهم «شوال» خبزه، ووعاء «دقته» وقد حبا على الأرض الأطفال يبولون، أو يتبرزون!!.

وهنا، وهناك حانات ذكر يرقص فيها «الدراويش» وتتخلع «الدرويشات».



ويزور بي شيخ من أهلي - وأنا صغير - القاهرة، فيجوب بي الصحراء، ويجتاز الأودية، ويسلك المفاوز، ويتعثر في الجلاميد^[٥] نشداناً

(١) هو عمود طويل من الخشب مفرط في الارتفاع مثبت في قاعدة من الأسمنت.

[٢] سيأتي كلام عن القطب الغوث، انظره ص (١٧٢).

(٣) كان قد حدثني نقيب صوفي من قريتي عن القطب وأنه رآه. قال: «كنا بمولد البدوي مرة دون الصاري فسمعت من بعيد فحيح مزمار، فرأيت شيخاً يهرول إلى باب السرادق، ثم يكسر من قامته، حتى لتكاد تمس رأسه الأرض، ويرفع يديه في رعب شديد يحيي بهما رجلاً أشعث أغبر منهتك السواة، ويده عكاز طويل، يذب به على الأرض، وقد تقدمه رجل مثله ينفخ في «مزمار» ثم تهبط الرجل وهو يستعيد ذكرياته، ثم قال: «وهكذا رأيت القطب، فقد سألت شيخني عن الرجل الأول: أليس هو القطب؟ وصاحب المزمار حاجبه؟ فاجاب: بلى، ولكن اكتم السر!!».

[٤] مار الشيء، مورا: تحرك وتدافع.

[٥] الجلاميد مفرداً: جَلَمود وهو الصخر.

لضريح^[١] ابن الفارض سعيًا على القدم !! وهناك حيال الوثن الفارضي، يغني مرافقي قصيدة ابن الفارض: « نسخت بحبي آية العشق من قبلي » فتذرف عيناه وعيناى الدموع، ويحترق قلبي وقلبه شجنًا على هذا العاشق المحروم، عصف به الغرام، وأضناه الحرمان !! كل هذا كان !! ثم ماذا؟!

ثم هداني الله سواء سبيله، وسلكت بي رعايته مسلك التوحيد والإيمان، فماذا حدث بعد ؟! تطلعت نفسي إلى الماضي الوثني - وهي نهب حسرة حزينة المأساة، وخميل^[٢] أفراح معطرة - تطلّع الناجي من السعير مازالت في أتونه^[٣] المتناجج ضحايا تمسة منكودة^[٤] جنت عليها الصوفية ما جنت على، وتطلعت إلى الريف الحزين، يستعبده شيوخ الطرق، ويغصبون أيتامه ما يؤصوص^[٥] فيهم من رَمَق^[٦] خابي^[٧] الشعاع، وأرامله ما هن في حاجة ملهوفة إليه لِيَسْدُدْنَ خَلَّةً، أو يسترن عورة، ومساكينه حتى الذبالة المحتضرة من حشاشتهم.

تطلعت إلى الريف الوديع تجعل منه الصوفية فساد عقيدة، وضلالة فكر، وذلة ومهانة في الأخلاق، وَرَدَّعَة^[٨] بدع وجهالة وخرافة وأساطير، وعبودية خانعة لهوى الأحبار، وسدانة يعكف فيها السُدَنَّة^[٩] على بغي طواغيتهم، يبشرون بسماحة بره، وأريحية رحمته !!

وتطلعت إلى المدينة يعبث في أرجائها الصوفية، فتحيل أهلها - حتى

[١] نشداننا من نشد الضالة، نشدان: طلبها.

[٢] الخمل: ريش النعام، والخميل من الثياب: ذات الخمل ويقصد بهذا التعبير ذكريات كانت جميلة ومبهجة - في نظره آنذاك -.

[٣] الأتون: الموقد الكبير.

[٤] فكذ، نكدًا: شؤم، والمنكود: السيئ.

[٥] وصوصت الحجارة: إذا لم ير من قناعها إلا عيناها.

[٦] رَمَقه: نظر إليه و الرَمَق: هو بقية الروح.

[٧] هو من (خبي) يقال (خبت) النار تخبو خبوا: سكنت وطفعت. ويقصد به المؤلف؛ أي شعاع باهت نوره ضعيف.

[٨] ودغ المكان - ردغًا: وحل.

(٩) السدنة، مفردا (سادن) وهو خادم الكعبة.

الكثير من المثقفين منهم - عبيد قبور، وَعَبَاد جيف، وأحلاس منكر وزور، وموالي أذلاء لكل طاغية باغية!!.

تطلعت إلى هؤلاء وأولئك، وذكرت ما كابדתه، فصرخت موجعاً من هَوْلِ الفاجعة أحاول إنقاذ الضحايا التعسة، المَغْدَةُ السُّرَى^[١] وراء الذئاب الضواري من الصوفية!!.

وأكتب ما أكتب، ضارعاً إلى الله وحده أن يمد بالمعونة - فمنه وحده يُسْتَمَدُّ - وإن يتبين لتلك الضحايا المسكينة أنها تتجرع الغسلين تحسبه رحيقاً، وتطعم الوزين^[٢] تظنه فاكهة الخلد، وتدين بوثنية - هي شر ما ابتدع الشيطان لأولياؤه من وثنيات، وتخالها توحيداً مُطَيَّباً بِرُوحِ الله!!.



[١] أعد السهر: أسرع فيه، والسُّرَى: سير عامة الليل. وهذا التعبير يقصد به المؤلف أنهم يسرعون وراء هؤلاء القوم (الصوفية) وهم في ظلمة شديدة لا يرون أمامهم سوى هؤلاء.

[٢] الوزين: هو الخنظل المطحون.

هذا الكتاب

لهذا الكتاب الذي تصدره بهذه المقدمة قصة، فمن أعوام خلت، شكا سماحة شيخ الصوفية إخواننا لي من أنصار السنة، بدعوى أنهم ينالون من كرامة الصوفية، فكان أن رجوت وكيل النائب العام أن أقف وحدي موقف المتهم، فلم يجد المحقق ما يأخذنا به، وقد قدمنا له الأدلة الدامغة من كتب الصوفية على ما دمجناهم به، وعلى صفحات «مجلة الهدي النبوي» نشرت - بعد التحقيق معي - خطاباً مفتوحاً إلى سماحة الشيخ، فيه ما فيه من حق يصعق باطلاً، وتوحيد يقضي على وثنية؛ ليعلم الشيخ ومن خلفه، أنهم مهما كادوا لنا، أو مكروا بنا، فإننا لن نسكت عن أساطيرهم، ولاحنقه^(١)، فيضرب بكل سهم في جعبته، فتكون فرصة أمتلئها، لكشف خفايا الصوفية أمام كل جهة يشكو إليها مني، وألح إخواننا أنصار السنة هنا وفي السودان العزيز وغيره في طبع الخطاب، فطبعته منه آلاف النسخ، فكان أن صودر في السودان بأمر الحاكم العام السابق ولما أن نفذت [نسخه] طبعه إخواننا في سوريا الشقيقة^(٢). [و] قد ترجم إلى الإندونيسية.

وألح إخواننا في طبعه مرة أخرى، فعدت إلى الكتاب أكتبه من جديد وأزيدة كثيراً من النصوص، وموضوعات جديدة لم تكن في طبعته الأولى،

[١] أحنقه : أغاظه.

(٢) طبع هناك تحت إشراف الأخ الكريم الأستاذ «محمد نسيب الرفاعي» عن جماعة الصراط المستقيم بحلب عام ١٩٥٢م وقد جاء في مقدمته الرائعة التي قدم له بها الأخ الكريم ما يأتي : «إن بوادر خاتمة أولياء الشيطان قد لاحت، وبشائر انتصار الحق على الباطل قد دقت، وإن هذه البوادر والبشائر لاحت جميعها من هذا الكتاب - صوفيات - هذا الكتاب الذي ساوم المبتطلون الضالون صاحب المطبعة التي طبع فيها على إعطائه أجرة الطبع، وقيمة الورق مقابل تسليم الكتاب لهم ليحرقوه .. هوناً أيها القوم، ما يغيثكم إحراق كتاب الصوفيات؟ اليس ماخوذاً عن كتبكم ورسائلكم؟ إن كل تهمة موجهة إليكم فيه إنما هي منقولة بالحرف الواحد من مجلدات نتحدثكم أن تقولوا إنها ليست لسادتكم وكبرائكم».

حتى أربى الكتاب على ضعفه الأول، فليس افتتاحاً على التاريخ أن أسميه: «هذه هي الصوفية» بدلاً من اسمه الأول «صوفيات»^(١) وسيرى القراء كما عودتهم، أنني لم أرم الصوفية بغير ما به تدين، وأنا لم نعتد بقول أحد في الصوفية، وإنما اعتدنا بنقل نصوص كثيرة من كتب الصوفية بينة الدلالة على معتقدهم، مقارنة بينها وبين بعض آيات القرآن الكريم، وأحاديث خاتم النبيين ﷺ، هذا لكيلا يفترى صوفي أننا نرميهم بغير ما يفترى على الله، كنا نستطيع أن نصنع صنيع بعض نقدة الصوفية قديماً وحديثاً، فنأتي بفتاوي أئمة المسلمين في شأن الصوفية، أو ننقل ما نقلوه عن الصوفية من نصوص، بيد أنني رأيت أن يكون للعدل والحق والتحقيق الرعاية الأولى، فنقلت دين الصوفية من كتبهم التي يؤمنون بها ذاكراً اسم الكتاب، وتاريخ ومكان طبعه، ورقم الصفحة التي عنها نقلت؛ لأرمي الظن والريب باليقين الواضح؛ ولأبعد كل شبهة تنوهم أننا نفتات عليهم، أو نبهتهم؛ وليكون كل قارئ مفتياً لنفسه بالحق، وحكماً بين الحق وباطلهم.

وقد يعيب علينا بعض من سحرتهم طقوس الصوفية، وشاعريتها الكهنوتية العُنف في المحاجة، لكننا لهؤلاء نقول: رويدكم!! فإنا نسمي الأشياء بأسمائها، ونصفها بصفاتها، فلا نقول عن الزُّقوم: إنه تفاح الجنة، ولا عن الغسلين: إنه رحيق الفردوس، ولا عن الشرك: إنه توحيد، بل لا نحب أن ندهن النفاق فنزعم أن شرك الصوفية خطأ، فحسب، كما ينافق بعض الشيوخ الذين مرَدُّوا على النفاق، ومرنوا على المخادعة والمداجاة^[٢]؛ ليحسبوا مع الكافرين^(٣)، ومع المؤمنين!! وعجب مُغْرِبٌ في العجب، أن يغضب، بل نرتجف من الحق إذا دُعينا نحن بغير أسمائنا، ونحقر من ينتسب إلى غير

(١) رد عليه كاتب في السودان بكتيب سماه «الجياد الصافات في الرد على صوفيات» ورد عليه كاتب في سوريا بكتاب سماه «نسف الصوفيات» فكان ردهما أبلغ دليل على أن الصوفية وثنية عفنة، وحجة على أنهم في ضلال ما دمناهم به.

[٢] المداجاة: المداورة.

[٣] في إطلاق لفظ «الكافرين» نظراً لأن الصوفية بجملتها لا تكفر، بل أكثر ما يقال أنها فرقة ضالة، ذلك لأن كثيراً من عوام الصوفية لا يعرف تفاصيل مذهبهم.

أمله، ثم لا نغضب من نعت الباطل بأنه حق!! وعجب ذاهل الدهشة أن نرمي بالعمى والجهالة من يسم الليل: بأنه نهار مشمس، أو من يقول عن المر: إنه حلو، أو من يقول عن الثلاثة: إنها واحد!! أو من ينسب إلى مذهب رأى مذهب آخر، أو من يخطيء في حقيقة تاريخية، أو جغرافية، أو مادة قانونية، ثم لا نرمي بهما - بالعمى والجهالة - من ينعت الصوفية بأنها إسلام صحيح، ومن يقول عن الطائفين حول القبور، اللاتذنين بأحجارهم الصم: إنهم مسلمون^[١]!! ثم يكرر؛ ليحسب مع المسلمين، فيقول عن أولئك: ولكنهم مخطئون!!

عجب أن نكفر من ينسب إلى محمد ﷺ حديثاً موضوعاً، والقائلين بأن الله ثالث ثلاثة، ثم نحكم بالإيمان الحق لمن ينسبون إلى النبي أنه الصوفي الأول، وأنه الموحى بدين الصوفية!! من يقولون: إن الله عين كل شيء وأنه مليون ملايين!! نحكم بإيمان هؤلاء، لا شيء سوى أن لهم أسماء تشاكل أسماء المسلمين!!

إن الحق والدفاع عنه يُحْتَمَانُ علينا أن نسمي كل شيء باسمه، ونصفه بصفاته، وإلا افترينا عليه، وجعلنا للباطل السُّورَةَ والصُّولَةَ، وداجينا في الإيمان. أما هذه النعومة والطراوة والرخاوة المخشّة في الزياد عن الحق، والجهربكلمة الحق، أما ذلك فشر أنواع الجبانة الذليلة، والخداع والرياء والعجز المهين!! قولوا عنا ما شئتم، فإن للحق صولة تحتاج كل صولة أخرى، ولن ينال منها أن ترموا بعض جنده بالعنف في البيان والمهاجة، وعجيب أن نرمي بالعنف، أو ينتقد علينا هذا في الدفاع عن أعظم مقدسات الدين والفضيلة، والله يقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمَصِيرِ﴾ [التوبة: ٧٣].

قولوا ما شئتم، فليس بنافع ما تتقولون به الزياد عن الصوفية أو الإبقاء على

[١] لتطبيق حكم الكفر على أحد معين لأبد من ثبوت شروط وانتفاء موانع، انظر تفصيل ذلك في «مدخل للكتاب».



رمقها الشاحب المحتضراً!! بل ستبقى رغم ما تقولون به تلك الحقائق الصاعقة العاصفة المدمرة تدك هياكل الصوفية، ستبقى شاهد عدل وحق ساطع البرهان على أن الصوفية عدو الإسلام الالذ الخصام، بيد أن هذا العدو يسحرك بغزل التقبيل، ويسحرك بخمرة العناق، حتى إذا أغمضت عينيك النشوة الحاملة، أنفذ إلى صميم قلبك خنجره المسموم.

وما نشترى بما نكتب رضا الناس، وإنما نبتغي به رضا الله، فله ما بذلت من جهد، وأضرع إليه سبحانه أن يدخره لي جهداً في سبيله، وألاً يضيعه بذنب منّا نقترفه، وهو مولانا ونعم النصير.

عبد الرحمن عبد الوهاب الوكيل

الفصل الأول

مقدمة

معذور

شكوت إلى النيابة يا سماحة الشيخ^(١)؛ لِنَتَّصِفَ لك من إنسان يدعوك إلى الحق، وإلى الإيمان به .

ولا تَثْرِبُ^[٢] عليك !! فَهَتَكَ القِنَاعُ السُّحْرِيَّ عن الصوفية حرماناً لِكَهْنَتِهَا من السُّحْتِ يُجْبَى باسم الأوثان . ولم لا؟!

وسيراها الناس ثُمَّتْ أمشاجاً من اليهودية الباغية، والمجوسية الماجنة، والوثنية المستغرقة في الجحود!! سيرون الصوفية الغزلية الفتون حَمَاءَ من الشرك الخائل^[٣] تَمْضُ على شفتيه بسمات الغانية المتبرجة؛ لتفتك، وتقتل!! .

أرايت إلى من شكوته، كيف يَفْتَرِي لك العذر، ويبتسم إشفاقاً عليك من ثورتك العارمة عليه؟! وما تَنَقِّم من هذا المسلم سوى أنه يبصرك بجناية هذه الجماعة التي قال الله فيها ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠] يَبْصُرُك بجنائيتها الظلمة على الدين الحق وقِيَمِهِ الروحية، على الفكر للملهم، والأخلاق التي تَسْتَوْحِي السماء والنور والسمو والهداية، على المثل العليا للجماعة الإسلامية.

أملنا في الشيخ

ولقد كنا نأمل - والشيخ من كبار علماء الأزهر - أن يقود هذه الجماعة الضالَّةَ الخَيْرِيَّ إلى هَدْيِ الله، وأن يحول بينهم، وبين تَدْمِيرِ ما للجماعة الإسلامية من مَقُومَاتٍ، وما لدينها من قِيَمٍ، وما زال الأمل يُغْرِنِي طيفُهُ الشاعِرُ

(١) المقصود سماحة شيخ الطرق الصوفية فالله يوجه الخطاب . [٢] التثريب: الاستقصاء في اللوم .

[٣] «خل»: خدع «والخائل»: الخادع .

انك يا سماحة الشيخ ستفعل ذلك لما لك في ماضيك من سوابق خير، وأوقن أنك لو فعلت لكنت ليثَ بطولة فادية، تهتف بها الاحقاب في إعجاب، وتُرْتَلِّ الثناء عليها مزاميرُ القرون ١١.

ضحية

هذا رجاءُ شابٍ مسلمٍ أغوى صباه الغريرَ سحرَ الصوفية، فَجَرَعَتْهُ زُعَافُهَا يحسبه خمرة الجنة تدهق كثوسها الملائكة، وغسلينها يخاله رحيقاً تُرويه به الخورُ النواعم، ثم أشرقت على روحه المظلم أشعة الهدى من كتاب الله، فنظر، فماذا رأى؟

رأى ماضيه الصوفيَّ شيطانَ كفرٍ ماردٍ يفتال إيمانه، وشركٍ يعصف بالرمقِ الشاحب من توحيده، فيأحرَّ قلباه!! كان الفتى اليتيم الروح يأمل أن يمشي على الماء، وأن يُحَلِّقَ بجناحيه فوق قبة النجوم، وأن يتحد بالروح الإلهي الأعظم، وأن يهتك - كالشهاب الشاقب - حُجُبَ «السُّوِّيَّةِ وَالْغَيْرِيَّةِ»^(١)؛ ليشهد حقيقة الوحدة الكُبرى، وحدة الوجود، ويسعد بها، وقد تحققت في ذاته!! كان يأمل ذلك كله، فبكل هذه الأساطير المجوسية وعدته الصوفية، ولكن!! وآه مما بعدها من أدمع وجراح!!.

أملت أن أمشي على الماء، فكانت الحُمَمُ المدمدمات من سقرا!!.

أملت أن أخلق بجناحيَّ فوق الأفق، فإذا هي مأساة المشرك التي قصَّها الله في كتابه ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فَمِنْ ذِرْوَةِ الْقِمَّةِ الْحَلِمَةِ الْخِيَالِ هَوَيْتَ - يَدُكُنِي الصَّخْرُ الْأَصَمُّ النَّاتِي - إِلَى غَوْرِ سَحِيقٍ سَحِيقٍ!!.

(١) اصطلاحان صوفيان مأخوذان من كلمتي «سوى وغير» والصوفي الحق في دين الصوفية من يوقن أنه لا «سوى ولا غير» أي يرى الكل عيناً واحدة!!.

وهناك على الصخور الحدياء^[١] بقيت مني أشلاء متناثرة، تروي لك
عبرتي الحزينة المفجوعة!!

وهنا في القلب الدامي جراحٌ نازقةٌ تنوح بين يديك بمأساتي الدامية!!
أملت الاتحاد بالروح الإلهي، فلم أجد غير الشيطان ينفث في دمي فتونه،
ويتلظى في غرائزي غياً يتعشق كل ساجية!!
أملت شهود الوحدة الكبرى!!

وآه من هذه الأسطورة الناعسة الفتنة، المكحولة الآثام!!

فقد وعدتني الصوفية أن هذه الأسطورة ستجعل مني إلهاً نائر الرغبات،
عاصف الشهوات، يَجْمَحُ به هواه إلى امتهان ألوهيته في سبيل مثل هذه
الرغاب التي تشهأها الحرمان من شاعر ظامئ الجسد.

آه يا يوم التلاقي ليتني كنت إلهاً
لأَبْحَثُ الناسَ للناسِ من خدوداً وشفافاً

وعدتني بالربوبية تتجلى في بصورة بشرية، فأصرف الوجود بقدري
القاهر، وقضائي الذي لا مَرَدَّ له، وأسخر السماء والأرض، والعواصف والجن،
والملائك والحوار، أسخرهم لَصَبَوَاتٍ شبابي، ونزواتٍ هواي!!

ألم يُبَيِّحْ كاهن الصوفية التلمساني في دينه الأم والأخت، ويرمي من
يحرهما على الابن والأخ بأنه محجوب؟!^[١]

ألم يؤكد طاغوت الصوفية الأكبر «ابن عربي»^(٣) أن الرب الأعظم غانيةٌ
هَلُوكَ الشَّفَاءُ على ثغرها قبلاً دنسة ملتهبة!! وأن هذا الرب لا يبلغ كمال تجليه

[١] الحَذَبُ: ما ارتفع من الأرض.

[٢] ص ١٧٧، ج١، «مجموعة الرسائل والمسائل» لابن تيمية، قال المعلق: التلمساني هو: سليمان بن علي بن

عبد الله، والتلمساني ينسب إلى تلمسان وكان ميلاده بها سنة ٦١٠ هـ، ووفاته سنة ٦٩٠ هـ ومن العجيب أنه
كان يلقب بـ«عفيف الدين التلمساني» «الموسوعة الصوفية» د. عبد المنعم الحفني ص ١٠٦، مكتبة مدبولي.

قال فيه شيخ الإسلام: «كان يستحل جميع المحرمات، حتى حكى عنه الثقات أنه كان يقول: البنت
والأم والأجنبية شيء واحد ليس في ذلك حرام علينا، وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا حرام
عليكم» مجموعة الرسائل (١/١٨٤) دار الكتب العلمية.

(٣) هو محمد بن علي بن محمد الحافتي الطائفي الأندلسي مات سنة ٦٣٨ هـ.

الاعظم إلا حين يتجسد في صورة أنثى تحتاج أنوثتها خطيئة كل عربي في غيابة الليل!! قد يتجلى هذا الرب في صورة ملك أو رجل، بيد أن تجليه في صورة ماجنة تُعول بالشهوة، وتصرخ بالرغبة، وتقتل بالمفانن، وتغازل بالإثم - تجليه في تلك الصورة أحلى وأجمل، وأتم وأكمل!!

إذ يتجلى في الرجل بصورة فاعل، أما في المرأة فيتجلى في صورة فاعل، وصورة منفعل، وصورة فاعل منفعل معاً في مجلى واحد^(١)!!

تثليث آخر!! غير أن وراءه شهوة متمردة تنزو به!! عُدْرَاكَ إِنْ جَمَحَتْ بِي رَغْبَتِي فِي الذِيَادِ عَنِ الْحَقِّ إِلَى ذِكْرِ خَطَايَا صُوفِيَّةٍ، يَدْمَى مِنْهَا حَتَّى الْخَزْيِ، وَتُشِيرُ الْحِيَاءُ فِي صَفَاقَةِ وَجْهِ الْبَغْيِ!! عُدْرَاكَ فَإِنَّمَا نَجَاهِدُ لَتَدْمِيرِ الطَّاعُوتِ الْأَكْبَرِ، وَشَيْخِ الصُّوفِيَّةِ يَشْكُو مِنَّا إِلَى النِّيَابَةِ، لَأَنَّا نَكْشِفُ لَهُمْ مَا افْتَرَاهُ الشَّيْطَانُ مِنْ أَدْيَانٍ وَثْنِيَّةٍ، فَتَنْبَهَا الْأَبْقِيَاءُ مِنَ الْخَلْقِ، وَسَمَّاها لَهُمْ صُوفِيَّةً!!

فمضى الكهان يبشرون بها على أنها توحيد يشع منه وحده الحق، وإيمان سماوي الروح، عُدْرِيُّ الْحُبِّ، فكان خطرهما الناجم الداهم، هو القاصمة، بل كانت أشد خطراً على المسلمين من المجوسية، فهذه مُسْتَعْلَنَةُ الْبَغْيِ لَهَا مِنْ قُلُوسِهَا آيَةٌ^[٢]. أما الصوفية، فَبَسَمَاتٌ حُلُوةٌ خُلُوبٌ^[٣]، ونجّوي ناعمة شَفٌّ رَقَّتْهَا عَشَقٌ مُحَرُّومٌ، وَنَغْمَاتٌ عَذَابٌ آسِرَةٌ، وَعَمَائِمٌ مُنْتَفَخَةٌ كَالْبَطُونِ الْمُتَخِمَةِ مِنَ الْحَرَامِ، وَلَحْيٌ بَيْضٌ مُرْسَلَةٌ عَلَى قُلُوبِ سَوْدٍ، يَعِثُ فِيهَا مِشْطُ مُوسَسُوسٍ، وَمَسْبَحَاتٌ بِالْوَانِ الطَّيِّفِ مَسْحُورَةٌ الْهَيْئَةُ^[٤]، لَا تَمَلُ مِنَ التَّرْتِيلِ، مَوْشَاةٌ الذَّوَائِبِ، مُنْعَمَةٌ الْأَنَامِلُ، تَصْطَفِقُ حَبَاتِهَا فِي رَعُونَةٍ نَائِرَةٍ!!

واجب الشيخ

كان واجب الشيخ - وقد ذكرته بهدى الله - دعوة أتباعه إلى الإسلام،

(١) سيأتيك نصه بلفظه.

[٢] أي أن المجوسية مكشوفة أمام الجميع، وكل يعرف أنها عدو للإسلام وأهله، أما الصوفية فعلى العكس من ذلك.

[٣] «خُلُوبٌ»: حادعة، وفعله: خَلَبَ.

[٤] «الهيئة»: الصوت الخفي.

يؤمنون بالكتاب والسنة، ويكفرون بالصوفية، وتراثها الوثني، فإن لم يرض أتباعه بالله وحده ربا، وبكتابه - فحَسَبَ - إماما، وبرسوله الحق وحده أسوة وقدوة، كان حقاً على الشيخ أن يفر إلى الله مُخْبِتاً مؤمناً، وأن يترك - رَضِيَّ النفس - هذا المنصب وأصنامه، ترجمهما لعنة الله!!.

لماذا أكتب للشيخ؟

في خيالي الكليل شَفَقٌ خابٍ من حسن الظن بالشيخ، وأطياف شاحبة الصور تُخَيِّلُ لي أن الشيخ على جهالة بدين الصوفية، وبما تطفح به كتبها من وثنية، ومن أعماق نفسي الحانية ينبعث دعاء ناثر الإلحاح في برٍّ وإشفاق، يدعوني إلى أن أنشر بين يدي الشيخ، وصَوْبُ فكره وعينه كتاب الصوفية ليُري فيه صور أربابها - وتعالى جدُّ ربنا الحق -، ورسولها^[١] - وبراً الله خاتم النبيين من بهتانها -، وأوليائها - وحاشا أولياء الرحمن أن تمسهم صوفية -، فلعل الشيخ حين يرى هذه الصور التي تفجع النفس والضمير والمخلوق الكريم والفكر البصير، يهب بها على الجاهلية الصوفية ثورة حقٍّ قوي لطمه باطل، وعزم مشبوب أحققه ظلمٌ خاتل، وهناك يروي التاريخ عنه للآباد الواعي قصة البطولة الفادية، وتزخر القلوب المؤمنة بمشاعر الإعجاب به آية حب عميق، ودليل أخوة في الله، أترك تفعل يا سماحة الشيخ؟!

وإلا فستَظَلْ - بعون الله - نُلْهَبُ بسياط الحق ظهورَ الآبقين^[٢]، ونَدُكُ بمعاوله - غير هيَّابَةٍ ولا واهنةٍ - معابد الأصنام، حتى تخر على سدنتها وعبيدها، ولن يحول بيننا - بتوفيق الله - وبين التذكير بما هدى الله إليه، وفرض علينا الجِلَادُ المُسْتَلِمُ دونه، عواصفُ شرٍّ تثيرها علينا أحقاد الصوفية المُسْتَعِرَة، فما لقلب المؤمن أن يرهَبَ في الحق إلا من فطره، ولا أن يرغب إلا في رضاه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

[١] أي رسول الصوفية، وهو معطوف على أربابها.

[٢] «أبق»: هرب، يقصد الهاربين عن عبودية الله إلى عبودية الأصنام.

دين الصوفية

للصوفية مدد من كل نحلة ودين إلا دين الإسلام، اللهم إلا حين نظن أن للباطل اللئيم مدداً من الحق الكريم، وأن للكفر الدنس روحاً من الإيمان الطهور، والصوفية نفسها تبرأ إلا من دين طواغيتها مؤمنة بأنه هو الحق الخالص، يقول التلمساني - وهو من كُهان الصوفية - «القرآن كله شرك»، وإنما التوحيد في كلامنا^(١)» وابن عربي يزعم أن رسول الله أعطاه كتاب فصوص الحكم - وهو دين زندقته - وقال له^(٢): «أخرج به إلى الناس يستفعمون به ويقول: «فحققت الأمانة كما حدّه لي رسول الله بلا زيادة ولا نقصان» ثم يقول:

«فمن الله، فاسمعوا وإلى الله فارجعوا»^[٣]

على حين يذكر الحق وتاريخه الصادق أن الصوفية تنتسب إلى كل نحلة مارقة، وتنتهب منها أخبث ما تدين به، ثم تفتريه لنفسها، مؤمنة به، وتحمل على الإيمان به كل فراشة تطيف بجحيمه، وإلا فهل من الإسلام أسطورة وحدة الوجود^[٤]، وخرافة وحدة الأديان؟ فتلك تزعم أن الله - سبحانه - عين خلقه، عينهم في الذات والصفات والأسماء والأفعال، تزعم أن واهب الحياة، وخالق الوجود عين الصخر الأصم، والرمة العفنة!! ووحدة الأديان تزعم أن كفر الكافر، وخطيئة الفاجر عين إيمان المؤمن، وصالحة الناسك، تزعم أن دين الخليل هو دين أبيه آزر، وأن إيمان موسى عين كفر فرعون، وأن وثنية أبي جهل عين توحيد محمد، فكل رب الدين ورسوله!! كل تعين للذات الإلهية،

(١) ص ١٤٥ ج١ «مجموعة الرسائل والمسائل» لابن تيمية.

(٢) ص ٤٠ «فصوص الحكم» بشرح بالي ط ١٣٠٩ هـ.

[٣] نقل المؤلف هذا القول مختصراً ونصه في «الفصوص»: «أما بعد: فإني رأيت رسول الله ﷺ في مُبَشِّرة أُرِيَتْها في العشر الآخر من الحرم سنة سبع وعشرين وستمئة بمحروسة دمشق، وبيده ﷺ كتاب، فقال لي: هذا كتاب «فصوص الحكم» خذه وأخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر كما أمرنا. فحققت الأمانة وأخلصت النية وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب، كما حدّه لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان» انظر مقدمة الكتاب. ص ٤٧ ط. عيسى الحلبي، والبيت في الصفحة ٤٨.

[٤] سيأتي تفصيل عن ذلك كله إن شاء الله تعالى.

غير أنها سميت في تَعْيُنٍ بِمُحَمَّد، وفي آخر بابي جهل، وهي هي في مظهريها، أو اسميها!! تزعم أن دين إبليس وإيمانه عين دين أمين الوحي، وروح إيمانه، بل زادت الخطيئة فجوراً، فزعمت أن إبليس أعظم معرفة بآداب الحضرة الإلهية من أمين الوحي، وأسمى مقاماً!!.

أَقْسَمُ دين الإسلام هذه الخطايا الكافرة؟!.

افتراء على دين الله

ولكن ما بالي أسرف في الحجاج؛ لاثبت ما ليس في حاجة إلى دليل يثبت، بل ما الصوفية - نفسها - تقر مؤمنة به؟!.

سلوها لِمَ انتبذت من المسلمين مكاناً قصياً تسمى فيه المدنيين برحبها صوفيين، لا مسلمين، والاسمان متقابلان تقابل الظلام الجائر، والضوء الباهر؛ سلوها لِمَ تمقت ما سمي به الله من يعبدونه على بصيرة، وتَجَنَّحَ إلى اسم ماله من دلالة إلا على كفر أو مذلة؟ سلوها مَنْ هم كهان دينها، وأخبار طقوسها؟ سلوها لِمَ تُوَرِّثُ أحقاد طواغيتها على الكتاب والسنة؟ سلوها لِمَ تفتن الأغرار عن دين الحق، فتزعم لهم أن الإسلام شريعة وحقيقة، تعني بالشريعة ما أوحاه الله إلى رسوله، وبالأخرى وساوس الأبالسة النافثين لبدع الصوفية. سلوها، وسلوها؛ ولكن لا تكذوا أنفسكم، فهذا ابن عجيبة الفاطمي الهوى، الصوفي الدين يلهمكم جواب ما عنه تسألون، فيليكم ما افتراه: [فأما] واضع هذا العلم - يعني التصوف - [هو] النبي ﷺ علمه الله [له] بالوحي والإلهام، فنزل جبريل أولاً بالشريعة، فلما تقرر، نزل ثانياً بالحقيقة^[١]، فخص بها

[١] الحقيقة والشريعة مصطلحان من مصطلحات الصوفية المشهورة؛ «الحقيقة» - عندهم - عبارة عن المعنى الذي لا يجوز عليه النسخ، وحكمه متساو منذ عهد آدم حتى فناء العالم مثل: معرفة الحق، وصحة معاملة النفس بخلوص النية. والشريعة - عندهم - عبارة عن المعنى الذي يجوز عليه النسخ والتبديل: مثل أحكام الأوامر، والشريعة هي فعل للعبد، والحقيقة هي حفظ الله وعصيته جل جلاله للعبد، والشريعة هي حفظ العبد لأحكام الظاهر على نفسه، والحقيقة هي حفظ الحق لأحوال الباطن عن العبد، والشريعة من المكاسب، والحقيقة من المواهب، من «كشف المحجوب» للهجويري مختصراً ص ٦٢٧ - ومرادهم =

بعضاً دون بعض، وأول من تكلم فيه، وأظهره سيدنا علي كرم الله وجهه، وأخذه عنه الحسن البصري^(١) « وإنها لفريّة جائرة الإفك على رسول الله، وبهت له بجريمة ملعونة، جريمة كتمان العلم، وأي علم؟ إنه علم الحقيقة في دين الصوفية!! أفيكتم الرسول الحق وعلمه ودلائله، وقد توعد كاتم العلم بعقاب شديد من الله » من كنتم علماً يعلمه الله إياه، أجم اليوم القيامة بلجام من نار^[٢] » ثم وراء هذا البهتان اتهام صريح لأبي بكر وعمر وعثمان، ومعهم خيار الصحابة من السابقين، بأنهم كانوا أنضاءً ضلالة وجهالة بما يعرج بالروح إلى محبة الله، ورائه محاولة حقوق مصممة على تجريد الجماعة الإسلامية من خيار سلفها وخيار خلفها من صفة الإيمان الحق، وحسب الصوفية أن تبوء هي وحدها بما تبهت به الصديقين والشهداء.

وسيلة المعرفة عند الصوفية

ويدين الصوفية ببهتان آخر يدغمها بالمروق عن الإسلام، ذلك هو اعتقادها أن الذوق الفردي^(٣) - لا الشرع، ولا العقل - هو وحده وسيلة المعرفة ومصدرها. معرفة الله وصفاته، وما يجب له^(٤)، فهو - أي الذوق - الذي

= « الحقيقة » أيضاً هو : إقامة العبد في محل وصل الله، ووقوف سره على محل التنزيه، « كشف المحجوب » ص ٦٢٨، وقد ينحرف هذا المعنى عند كثير من الصوفية ويذم أهل الشريعة بأنهم أهل الجمود والظاهر ولا يعرفون عن الأحوال والمقامات شيئاً؟ فعلم الحقيقة هو الجوهر، ويرقى الإنسان فيه يصبح ولياً لله. ولا شك أن هذا حطل، لأن الإنسان لا يترقى إلى الله ولا يصبح ولياً لله، إلا بطاعة الله ورسوله، فبتفويض أوامرهما واجتناب زواجرهما يترقى العبد ويصبح ولياً لله تعالى، وخاتم النبيين وأفضل الأولياء - ﷺ - كان أشد الناس عبادة من صلاة حتى تفتقر قدماء، وصيام وغير ذلك مما يسمونه علم الشريعة أو العلم الباطن!!.

(١) ص ٥ « إيقاظ الهمم في شرح الحكم » لابن عجيبة ج ١ ط ١٩١٣ م. وفي قوله ذاك دليل الصلة الوثيقة بين الصوفية وبين الشيعة التي تؤله أئمتها.

[٢] قال المؤلف - رحمه الله - : رواه أبو داود والترمذي وابن حبان؛ ولم أجده لا في أبي داود ولا الترمذي وإنما الحديث رواه بنحوه؛ أحمد في « المسند » (١٠٤٩٢، ١٠٦٠٥) وابن حبان في صحيحه (٩٦)، والطبراني في الأوسط (٧٥٣٢، ٤٨١٥)، والكبير (١٠٨٤٥)، ورواه الحاكم في « المستدرک » (٣٤٦) وقال : على شرط الشيخين، ونصه « من كنتم علماً أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »، وصححه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (١٢١) وانظر : « صحيح الجامع » (٦٥١٧).

(٣) يعني به الذوق الخاص بكل إنسان.

(٤) لم نقل : وما يستحيل عليه؛ لأن الصوفية تؤمن بأنه سبحانه يجب له كل شيء، لأنه عين كل شيء، فلا يستحيل عليه نقص ولا عجز.

يَقُومُ حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ، وَيَحْكُمُ عَلَيْهَا بِالْخَيْرِيَّةِ أَوْ الشَّرِّيةِ، بِالْحَسَنِ أَوْ الْقَبْحِ، بِأَنَّهُمَا حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ، فَلَا جَرَمَ أَنْ تَدِينِ الصُّوفِيَّةُ بِعَدَدٍ عَدِيدٍ مِنْ أَرْبَابِ وَأَلْهَةِ، وَلَا عَجَبُ أَنْ تَرَى النَّحْلَةَ مِنْهَا تَعْبُدُ وَثَنًا بَغِيرَ مَا تَعْبُدُهُ بِهِ أُخْرَى، أَوْ تَخْنَعُ لِصَنْمٍ يَكْفُرُ بِهِ سِوَاهَا مِنَ النَّحْلِ الصُّوفِيَّةِ، لَا عَجَبُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، مَا دَامَتْ تَجْعَلُ «الذَّوقَ» الْفَرْدِي حَاكِمًا وَقِيمًا عَلَى الْمَسْمِيَّاتِ وَأَسْمَائِهَا، فَيُضَعُ لِلشَّيْءِ مَعْنَاهُ مَرَّةً، ثُمَّ يَنْسَخُهُ بِنَقِيضِهِ مَرَّةً أُخْرَى. هَذِهِ الْحِدَّةُ فِي تَوَثُّرِ التَّنَاقُضِ صِبْغَةُ الصُّوفِيَّةِ دَائِمًا فِي مَنْطِقِهَا الْمَخْبُولِ، وَلَقَدْ ضَرَبَتْ الصُّوفِيِّينَ أَهْوَاءُ أَحْبَارِهِمْ بِالْحَيْرَةِ وَالْفِرْقَةِ، فَحَالُوا طَرَائِقَ قَدَدًا، تَوَلَّاهُ كُلُّ طَرِيقَةٍ مِنْهَا مَا ارْتِضَاهُ كَاهِنُهَا صَنْمًا لَهُ، وَتَعْبُدُهُ بِمَا يَفْتَرِيهِ هَوَاهُ مِنْ خَرَافَاتٍ! عَلَى حِينٍ يَجْمَعُهُمْ عَلَى الْوَحْدَةِ هَوًى وَاحِدًا، وَغَايَةً وَاحِدَةً، هِيَ الْقَضَاءُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَمَا إِخْلَالُكَ يَا سَمَاحَةَ الشَّيْخِ تَمْتَرِي فِيمَا ذَكَرْتَهُ لَكَ، فَأَنْتِ بِهِ خَبِيرٌ، وَإِلَّا فَفِيمَ هَذِهِ الشَّيْخِ الْمُتَطَاحِنَةِ^(١)، وَقِيمَ هَذِهِ الْمَشِيخَاتِ الْمُتَنَابِذَةِ، كُلَّمَا دَخَلَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهَا عَلَيْكَ لَعَنْتَ اخْتِهَا، بَلْ فِيمَ هَذِهِ الْحَرْبِ الَّتِي يَثِيرُونَهَا عَلَيْكَ فِي مَكْرِ دُنْيَا وَرِبَاءٍ مَآكِرٍ؛ إِذْ جَلَسْتَ عَلَى عَرْشِهِمْ دُونَ أَنْ تَكُونَ لَكَ قَدَمٌ ثَابِتَةٌ فِي التَّصَوُّفِ، وَدُونَ أَنْ تُنْصَبَ شَيْخَ طَرِيقَةٍ مِنْ قَبْلِ!؟ قَلْبُهَا صَرِيحَةُ الْجَرَاءِ بِإِسْمَاحَةِ الشَّيْخِ، يَهْبِ اللَّهُ لَكَ هَدَاهُ، وَمَقَامَ الصَّدِّيقِينَ، وَإِنَّهُ لِلْخَيْرِ الَّذِي تَنْشُدُهُ نَفْسُ كُلِّ مُؤْمِنٍ.



(١) يقول روم البخداي: «لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإن اصطلحوا، هلكوا» ص ١٨١ «طبقات الصوفية» للسلمي، فليتنافر المسلمون، وليتطاحنوا، فهذا دين الصوفية.

الفصل الثاني

ألهة الصوففة

يفتري الصوففة - فمالهم من سفة غير ذلك - أنهم الذين يعرفون الله معرفة لا فمس فقفنفا رفب؁ ولا فشوب جلال الحق فففا شبهة؁ وفصمفون المسلمف فعمف البصفرة^(١)؁ وعمه العقل؁ وخطف الفكر؁ وجمود العاطفة؁ وفساد الذوق وخمود جذوة الحفة فف الشعور؁ والإغراق العمفق السحق فف المادفة الصماء؁ والجمود الأحقق على عبادة التارفخ؁ ومازالف تلك دعوافم فما الرب الذي فعبدونه وإذا شئت إحكام الدقة؁ فسلفم: ما الرب الذي اختلفوه؁ ثم عبده؟

ناشدتك الله - إن مسك ففما أقول وهم رفة؁ أو ففئك منهم عن الحق غزل ابتسامة؁ أو فرنفمة عاشقة بتسبفحة أو دعاء؁ ناشدتك الله إلا ما قرأت شفاً من كتفهم؁ لفعرف رب الصوففة الأعظم. اقرأ من الففوفحات؁ أو الفصوص؁ أو فزجمان الأشواق؁ أو عنقاء مغرب؁ أو مواقع النجوم؁ وكلها لابن عربف. اقرأ من الإنسان الكامل للجلفلف؁ اقرأ من فائفة ابن الفارض وشرحها للتابلسف أو الفاشانف؁ اقرأ من الطبقات والجواهر والكبرفف الأحمر للشعرانف؁ اقرأ من الإرفز للذباف؁ اقرأ من كتاب الجواهر؁ والرماف وهما للففجانفة؁ وروض القلوب المستطاب لفسن رضوان؁ بل اقرأ فف فمجموع الأوراد الذي ففعبدون به الآن ودلائل الففرات؁ «وأحزاب» الكهنة منهم فف العشافا والأسفار.

إن الصوففة فففعت ابن عربف بأنه «الشفخ الأكبر والكبرفف الأحمر»^[٢]

(١) فقول نفكلسون «الصوففة لا ففشفون فعلنون أنهم أمة لله الففارة» ص ١١٧ «الصوففة فف الإسلام» فزجمة نور الدفن شرفة.

[٢] للشعرانف كتاب فف فزجمة ابن عربف عنوانه «الكبرفف الأحمر فف فبان علوم الشفخ الأكبر».

وتخسر له ساجدة، والجيلي بأنه «العارف الرباني والمعدن الصمداني» وابن الفارض بأنه «سلطان العاشقين» والشعراني بأنه «الهيكل الصمداني والقطب الرباني» فما أدعوك إذن إلى تلاوة كتب تنقم منها الصوفية دلائل الحق، وإشراق الهدى، بل إلى كتب تقدسها الصوفية على اختلاف نوازعهم، وتباين أهوائهم، ويجعلونها - ولا أعدو الصدق إذا قلت يعبدونها - ويرونها الأفق الأسمى لنور التوحيد، والمنيع السلسال لفيوض الربانية!! فإن قرأت شيئاً من تلك الكتب، فتدبر بعده آية واحدة من كتاب الله، واقدف بنور الحق الإلهي على دياجير الباطل الصوفي، وثمت يروعك، ويستفز الغضب الشوائر من لعناتك أن تجد الصوفية تدين رباً يتجسد في أحقر الصور، وتتعين هويته وإنشئه^(١) في أنتن الجيف، وتمثل حقيقته الوجودية صوراً أوهام في الذهن الكلليل، وظنون حيرى في الفكر الضليل، وتهاويل أسطورية في الخيال. ألم تؤكده الصوفية في دين كاهنها التلمساني رمة كلب تقفز من صديدها الدود^(٢)؟

ومعذرة يا سماحة الشيخ، فو الذي هدى المسلمين إلى دينه الحق، وأوجب الجهاد دونه، ما قلت إلا الحق للحق، وما رميت إلا بالحق، وإن شئت فمرحباً بموعده نلتقي فيه للمحاجة، فاختر ما شئت من أمكنة، وإن يكن قبة البدوي!!

وهاك من النصوص ما يكشف لك في جلاء عن معتقدات الصوفية، وساختار من النصوص ما لا يمكر به التأويل، من كتب تتخذها الصوفية شرعة لها ومنهاجاً في الدين، وتجعل أوثاناً من افتروها مطافات تستروح عندها - كما تزعم - نسائم الجنة، وعبير الخلود، وروح الله، وتضرع إلى جلاميدها

(١) الهوية عندهم هي الحقيقة الباطنة للذات الإلهية، والإنية هي حقيقتها الظاهرة في مجالها المتنوعة.

(٢) مر التلمساني على كلب أحرب ميت في الطريق، فقال له رفيق له - وكان التلمساني يحدثه عن وحدة الوجود - : أهذا أيضاً هو ذات الله؟ مشيراً إلى حثة الكلب. فقال التلمساني: نعم. الجميع ذاته، فما من شيء خارج عنها، انظر ص ١٤٥ «مجموعة الرسائل الكبرى» لابن تيمية.

الصُّمُّ أن تهب للروح السكينة، وللقلب اليقين المطمئن، وأن تمد الوجود بالحياة الفياضة بالخير واليمن والبركة، وأن تكشف لعبادها حقيقة الربوبية والإلهية ليعرجوا إلى الاتحاد بها، وترجو ما ينخر في عظامها من سوس، وينهش لحومها من دود، أن يُصَرَّفَ كُهاَنُ الصوفية في أقدار الله، وأن يجعل لهم السلطان على قضائه، وأن يُحَلَّقَ بهم فوق الذرى السامقات^[١] من أقداس الريانية!!

إله ابن الفارض^(٢)

يؤمن هذا الصوفي ببدعة الاتحاد، أو الوحدة سمها بما شئت . بصيرورة العبد رباً، والمخلوق خلافاً، والعدم الذاتي الصُّرْف وجوداً واجباً، وإذا شئت الحق في صريح من القول، فقل: هو مؤمن ببدعة الوحدة، تلك الاسطورة التي يؤمن كهنتها بأن الرب الصوفي تَعَيَّن بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله في صور مادية، أو ذهنية، فكان حيواناً وجماداً وإنساً وجناً وأصناماً وأوثاناً . وكان وهماً وظناً وخيالاً، وكانت صفاته وأسمائه وأفعاله، عيناً ما لتلك الأشياء من صفات وأسماء وأفعال؛ لأنها هي هو في ماهيته ووجوده المطلق أو المقيّد، وكل ما يقتضيه البُغَاة من خطايا، وما تنهش الضاريات من لحوم، أو تعرق من عظام، فهو فعل الرب الصوفي، وخطيئته وجرمه!!

وإخالك الآن تود لو تُسَوَّى بي الأرض، أو تدهمني - على غِرَّة - صاعقة، إذ يجري على لسان الحق ذكرُ ابن الفارض منعوتاً بالزندقة وتعجب أن يكون سلطان العشق الصوفي زنديقاً!!

وما عليّ - برحمة الله - مما تود، ولن يمنعي عجبك في ذهوله من أن أحكم على ابن الفارض بما ارتضاه هو ديناً له وتدبر ما سأنقل لك عنه من تائيته، فلعل يزول عجبك، وينفثي^[٣] غضبك .

[١] «السامقات»: جمع «الساق»؛ وهو المرتفع الشامخ.

(٢) هو عمر بن أبي الحسين علي بن المرشد بن علي شرف الدين الحموي الأصل المصري المولد توفي سنة ٦٣٢هـ، ولم يتحدث عن سبقه من الصوفية كالحلاج أو البسطامي مثلاً، لأنني اخترت أن أنقل عن يجمع الصوفية جميعاً سلفاً وخلفاً على تقديسهم، أما الحلاج وغيره فيطعن فيه رياء وبقا بعض الصوفية فكرته، حتى لا يكون لهم رياء معذرة.

[٣] «نفثي»: غضبه: انكسر حدته.

جَلَّتْ في تجليها الوجودَ لناظري ففي كلِّ مَرثِيٍّ أراها [برؤيتي] ^[١]
 يزعم أن الذات الإلهية هتكت عنه حُجْبَ الْغَيْبِيَّةِ، وَجَلَّتْ له الحقُّ
 الْمُغَيَّبُ، فرأى حقيقة الله مُتَعَيِّنَةً بذاتها في كلِّ مظاهر الوجود، رأى هذا الكون
 المادي بكلِّ ما يدب عليه، أو يغتال الحياة والأعراض في غياهب ليله
 السَّاجِي ^[٢]، وَمَغَاوِرُهُ ^[٣] المظلمة، رآه هو عَيْنَ الله وماهِيَّتَهُ، ورأى وجودَهُ عين
 وجوده، فما ثَمُّ من شيء عند ابن الفارض إلا وهو الله، بل ما للرب - رب ابن
 الفارض - وجود سوى وجود تلك الصور المادية، أو الذَّهْنِيَّة المنطبعة عن شيء
 متحقق، أو مُتَوَهَّم، أو متخيَّل. أَمَا وقد نَعَى بهذا البهتان، فَلْيَفْتَرِ لنفسه ما
 يترتب على الإيمان به؛ لهذا راح يزعم أنه بذاته اتحد بذات ربه، فكانت الثنائية
 في الاسم، وكانت الوحدة في الحقيقة والوجود، وأنه في جَلْوَةِ تلك الوحدة
 يشهد في ذاته وصفاته وأفعاله ذاتَ الله وصفاته وأفعاله، وعن هذا يعبر.

وَأَشْهَدْتُ غَيْبِي، إِذْ بَدَتْ، فَوَجَدْتُني هنالك إِيَّاهَا، بِجَلْوَةِ خَلْوَتِي ^[٤]
 شهد «هوية» الوجود الإلهي، أو باطنه، و«إِنِّيَّة» وجوده هو، أو ظاهره،
 فلم يجد للرب وجوداً سوى وجوده ولا لذاته كياناً متقوماً غير كيانه، فهتف
 في جَذَلِ الْبَشَرِي: أنا الله!!

يَبْدُ أنه خشي أن يتوهم أحدٌ أن هذا الشهودَ وهمٌ طارئٌ، أو حال عارض
 أو صورةٌ من حلم أسْبَل ^[٥] لها فكره وعينه، خشي هذا، فقال:

ففي الصَّحْوِ بعد المَحْوِ لم أَكُ غَيْرَهَا وذاتي بذاتي، إِذْ [تَجَلَّتْ]، تَجَلَّتْ ^[٦]
 والصحو في دين الصوفية هو رجوعُ العارف إلى الإحساس بعد سَكْرَتِهِ

[١] في الأصل (برؤية) وما أثبتناه من ديوان «ابن الفارض»، وهو البيت رقم (٢١٤) من التائية انظر الديوان ص ١١٠.

[٢] (سجا) الشيء: سكن ودام.

[٣] (المغاوير): جمع (مغور)، (وغور) كل شيءٍ قعره.

[٤] البيت رقم (٢٠٩) من التائية.

[٥] (أسبل) على عينه: جعل عليها غشاوة.

[٦] البيت رقم (٢١٢) وفي المطبوع (تَحَلَّتْ) وما أثبتناه من الديوان ص ١١٠.

بوارد قوي، وفيه يشهد العارفُ المغايرةَ بين الذات الإلهية ومظاهرها أو صفاتها، يشهد أن الكون ليس هو الذات الإلهية، وإنما هو تَجَلِّياتُ أسمائها وصفاتها، ومجالٍ لأفعالها. أما المحو في دينها فهو أمحاء الكثرة والغيرية^[١]، والخلقية المتنوعة المتعددة، وفناء السوئية، وتجلي الوحدة المطلقة، فيرى الصوفي الخلق عين الحق، والمربوب عين الرب.

فَتَمَّتْ إذن فرقٌ عند الصوفية بين الصحو^[٢] والمحو^[٣]، ولكن ابن الفارض أبي أن يؤمن بهذا الفرق المبتدع، فهتك الستر، ومزق القناع؛ ليكشف لك في قول صريح عن حقيقة معتقد الصوفية، ومضى مسرعاً يلهث؛ ليدرك فكرك قبل أن يؤمن بذلك الفرق بين الصحو وبين المحو!! وليؤكد لك أن دين الصوفية قائمٌ من أول أمره على الإيمان بأن الله سبحانه هو عين خلقه!! على نفي كل مغايرة - مطلقة، أو مقيدة، إضافية، أو نسبية - بين الخالق والخلق، سواء في ذلك حال الصوفي في الصحو، وحاله في المحو، وهكذا صرَّح ابن الفارض في جراءة شروء بما يرمز عنه سواه من منافقي الصوفية، حين يفجؤهم برهان الحق، ولذا يقول:

إلى كم أواخي الستر، ها قد هتكته وحلَّ أواخي الحجب في عقد بيعتي^[٤]
يعني أنه عاهد الحق حين بايعه على أن يهتك كُلَّ ستر، ويحلَّ كلَّ
أنشطة^[٥]، حتى يرى كُلَّ ذي بصر أن الله يتمثل دائماً في صور الخلق،
وتتعين ذاته بذواتهم!!

[١] أي بمحيي إن العبد غير الله، وتنمحي كثرة الأشياء أمامه، وكل هذه المغايرات تنمحي تماماً فيري كل شيء هو عين الرب - تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

[٢] الصحو - في نظر الصوفية - : هو رجوع العارف إلى الإحساس بعد الغيبة، وعكسه السكر وهو غيبة بوارد قوي. «الموسوعة الشاملة»، ص ٨٢٦.

[٣] المحو : هو رفع أوصاف بحيث يغيب العبد عندها عن عقله، ويحصل منه أفعال وأقوال لا مدخل لعقله فيها كالسكر. «الموسوعة الشاملة»، ص ٩٤٧، وبذلك ترى أنه يوجد فرق عند الصوفية بين الصحو والمحو، فهما كالضدين، أما ابن الفارض ففي حالته هذه لم يفرق.

[٤] البيت رقم (١٥٥) من الثانية، وقال في الهامش يعني: «ها أنا قد هتكته بكشف الحقيقة والحال أن حل قيود الاستتار وكشف وجوه الأسوار ثبت في عقد بيعتي يوم الميثاق أي جبلت على هذه الماضية أزلاً»

«الديوان» ص ١٠٢

[٥] الأنشطة: العقدة.

وتدبر هذه الصراخة الصارخة الجرأة في قول ابن الفارض: «ذاتي بذاتي، إذ [تَجَلَّتْ] تَجَلَّتْ» تدبر نجد الزنديق، يأبى أن يثبت لربه ذاتاً، ويتعالى أن يجعل وجوده هو فيض وجود ربه، فلم يقل: «ذاتي بذاته» أو «ذاته بذاتي» وإنما قال: ليحكم بالعدم الصوفي على رب الوجود الحق، وخالقه: «ذاتي بذاتي» فليس ثمت إلا ذاته هو في الحالين!! ألا تحس الجحود طاغي البغي!!

ما ثمَّ عند ابن الفارض من رب، ولا مسرُوب، إلا وهو ابن الفارض إنه الخلاق، وإنه هو الوجود، وواهب الوجود، وما الربُّ الأكبرُ إلا أثر من آثار قدرته، أو جُزْئِيٌّ نأته حيرانٌ من كُليَّته!! هذا دين ابن الفارض. فبماذا تحكم عليه؟

فوصفي، إذ لم تدع باثنين وصَفُها وَهَيْئُها - إذ واحدٌ نحن - هيئتي^[١] يزعم أن كل ما وصف به الله نفسه، فالموصوفُ به على الحقيقة هو ابن الفارض؛ لأنه الوجود الإلهي الحق، في أَرْليَّتِهِ، وَأَبْدِيَّتِهِ، وديموميَّته^[٢]، وَسَرْمَدِيَّتِهِ^[٣]..

فإن دُعِيْتُ كُنْتُ الحبيب، وإن أَكُنْتُ منادِي أجابت من دعائي، ولَبَّيْتُ^[٤] إن دُعِيَ الله أجاب ابن الفارض؛ لأنه عينه، وإن دُعِيَ ابن الفارض لَبَّى الله، لأنه اسمه ومُسَمَّاهُ! ولكن أتلمح الكبير جائر العُتُوِّ من ابن الفارض على خالقه؟ إذ يزعم أنه إن دُعِيَ الربُّ، فما يفعل ابن الفارض شيئاً سوى أن يجيب، أما إذا دُعِيَ ابن الفارض، فما يكفي الربُّ أن يجيب، وإنما يُهْرُولُ ملهوقاً إلى التلبية!!

[١] البيت رقم (٢١٥) من الثالثة.

[٢] أي دوامه - سبحانه وتعالى -.

[٣] أي أنه - سبحانه - ليس له أول ولا آخر. «الموسوعة»، ص ٧٩٣.

[٤] البيت رقم (٢١٦) من الثالثة.

ما كفاه زعمه أنه هو الله، فأكد أن الرب الأكبر ما هو إلا صورة شاحبة منه، وظل حيران له !!

فقد رُفِعَتْ^(١) تاء المخاطب بيننا وفي رَفْعِهَا، عن فَرْقَةِ الْفَرْقِ، رفعتي^[٢] الخطاب يستلزم الاثنيّة، إذ لا بُدَّ له من طرفين متقابلين مُخَاطَبٍ ومخاطب، ولهذا يكفر ابن الفارض بما يؤكده الخطاب في آيات الله، أو في دعاء الداعي من دلالة على المغايرة بين المتخاطبين!! وينفي صدور خطاب أو دعاء منه إلى «غير ما» فما ثم «غير» حتى يخاطبه، أو يدعوه!!

فإذا ما صدر منه خطاب، أو دعاء إلى الله، فلا تحسبن أنه يخاطب غيره؛ إذ الخطاب صادر منه إليه، والدعاء متوجه به من نفسه إلى نفسه.

لقد كان يقول من قبل أن يُكشَفَ عنه الغطاء: أنت أنت، فلما تجلّت له الحقيقة صار يقول: «أنا أنا» فما «أنت» تلك إلا «أنا» ذاتاً ووجوداً!!

ويرى ابن الفارض أن إثبات الربوبية الخلقة وحدها لنفسه شيء دون مقامه الأكبر، فيفتري أن له الربوبية بوجدانياتها وصفاتها وأسمائها وأفعالها، بملكها وملكوها، بِرَحْمَانِيَّتِهَا [وجبروتها]، بقدرتها القهارة، وعلمها المحيط الشامل، بما أبدعت من خلق، ومنحت من حياة.

[فلا]^[٣] فَلَكْ إِلَّا وَمِنْ نُورِ بَاطِنِي به مَلَكٌ يَهْدِي الْهَدَى بِمَشِيتِي^(٤)

وَلَا فُطِرَ إِلَّا حَلٌّ مِنْ قَيْضِ ظَاهِرِي به فِطْرَةٌ عَنْهَا السَّحَابُ سَحَبَتْ

(١) يصح أن يكون معناه أن الخطاب رفع بينه وبين غيره، لعدم وجود غير. ويصح أن يكون معناه أن «الفتحة» من تاء الخطاب في مثل «خلقت» بفتح التاء تحولت إلى ضمة وهي علامة رفع، فصارت «خلقت» بضم التاء لا فتحتها أي صارت تاء الخطاب بفتح التاء عين تاء المتكلم.

[٢] البيت رقم (١٥٣) من الثالثة.

[٣] في المطبوع [ولا] وما أثبتناه من الديوان، والبيت والذي يليه رقم (٤٦٥)، (٤٦٦) من الثالثة.

(٤) يقول تعالى لنبيه الأعظم ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصاص: ٥٦] فجعل ابن الفارض نفسه أعظم من محمد، وقرئنا مساوياً لله!!

ولولاى لم يُوجد وجودٌ، ولم يكن شهودٌ، ولم تُعهد عهدٌ بدمه
 فلا حيَّ إلا [عن^(١)] حياتي حياته وطوعُ مُرادِي كل نفس مريدة^(٢)؛ [٣]
 فبماذا يحكم المؤمن على زنديق يفترى أن ملكوت كل شيء بيده، وأن
 الوجود كله قطرة فيض من جوده ووجوده، وأن الإرادة البشرية كلها طوع هواه.
 وكلُّ الجهات الست نحوي توجَّهت بما تمَّ من نُسكِ وحجٍّ وعمره
 لها صلواتي بالمقام، أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلَّت
 هذه الصلوات يقيمها النساك في قدس المحاريب، وهذه الضراعات يتبتَّلُ
 بها القديسون، وهذه الدعوات يتهجَّد بها العباد تحت سَجَوات^[٤] الليل،
 وهذه المناسك ينسكها الحجاج والمعتزمون. إنها لا تُرْفَع في الحقيقة إلى الله،
 وإنما تتوجَّه بها القلوب إلى ابن الفارض رجاء رحمته، وابتغاء رضاه.

وهؤلاء المصلِّون يؤثِّنون وجوههم شطر المسجد الحرام، إنهم يؤثِّنونها شطر
 هيكل ابن الفارض، وهذه النذور يحفد بها الملهوفون، إنها قرابين العبودية
 منهم، يبتغون بها وجه ابن الفارض.

والله - جل شأنه - يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾
 [البقرة: ١١٥] غير أن ابن الفارض يرفع في وجه الحق باطله، فيفترى أنه ما ثمَّ
 إلا وجهه هو، وأن الكون كله ما يؤثِّي بجهاته الست وجهه إلا إليه.

وذلك الرب الصوفي الهَيِّمان في ملكوت ابن الفارض!، أيعيش عاطلاً بلا
 عمل؟، أيخالف عن أمر ابن الفارض؟، كلا فقد أرغمه ابن الفارض على أن
 يَرْتَسِم خاشع الذل في المعابد يصلي لابن الفارض، ويرجو رحمته.

[١] في المطبوع [من] وما أثبتناه من الديوان، ص (١٦٢).

(٢) أيقول هذه مسلم؟ إنها لله وحده، ففسحها ابن الفارض إلى نفسه!!

[٣] البيتان رقم (٦٣٨، ٦٣٩).

[٤] سجا الشيء: سكن.

أرأيت إلى سلطان العاشقين: كيف يفتري في شعره الوثني كل هذه الخطايا المجوسية؟!

ويهفو ابن الفارض لاهث الأنفاس؛ ليفتري لك مرة أخرى، أنه هو الله.

كلانا مُصلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته، بالجمع^(١) في كل سجدة

ولكن «كلانا» هذه دلالتها الحتمية على وجود اثنين أو تحقق وجودين يغير أحدهما الآخر. لهذا كرّر ابن الفارض يعدو في لهفة مجنونة؛ ليستدرك على «كلانا» بما ينسخ ما توهمه، فقال:

وما كان لي صليّ سواي، ولم تكن صلاتي لغيري في أدا كل [ركعة]^(٢)

عبادة الأنوثة

ولست أدري لم يُغرم الصوفية دائماً بنعوت المرأة يحملونها على ربهم، فيزعمون أن ربهم يتجلى - غزليّ الجمال - في صورة أنثى عاشقة ملهوفة تتقتل بفتون أنوثتها الهيم لحيوان يراودها عن نفسها، إن هذا الإلحاح الجسدي في عبادة الأنوثة يدفعنا إلى محاولة اكتناه^(٣) ما يعتلج^(٤) به من شعور يتلظى بالنزوات الملهبات والشهوات العرابيد؛ لتدرك علة ذلك التمجّس الصوفي الذي يؤلّه نار الجسد. أترى حين استبد بالصوفية عشق الأنثى، ولوعهم بالحرمان، أراقوا الغزل في هوى المعشوقة، فلم تُند أنوثتها منهم غليلاً، ولم تُبح لحمها للناب الملهوف، أتراهم حين احترقوا تلهفاً حتى إلى ظلي أنثى مبذولة، فلم ينالوا، صور لهم ما يؤجّج في غرائزهم من سعيير أن الأنثى ليست - إذن - إلا ربا تعالت كبرياؤه، وتسامى عرشه؟

أم تراهم - والأنوثة تعاطيهم صهباءً إثمها - أبوا إلا أن يترعوا الدنّ كله،

(١) الجمع عند الصوفية هو «شهود الحق» أي الله «بلا خلق».

(٢) في المطبوع [سجدة] وما أثبتناه من الديوان؛ البيت رقم (١٥٤) من الثالثة.

(٣) كنه الامر: حقيقته.

(٤) يعتلج: يضطرب.

فراحوا يُمِدُّونها في الغي، فزعموا لها أن الحقيقة الإلهية ليست إلا أنثى مشتهاة
مشتهاة، وأن حقائق الوجود كله أنوثة تشرب الشهوات خمر جسدها المَعْتَق ١؟
يمثل ابن عربي الطائفة الأولى، وستاتيك أنباؤه، أما ابن الفارض (١) فاسمع إليه
يقول:

ففي النشأة الأولى تراءت لآدم بمظهر حوًّا قبل حُكْم [الأمومة] [٢]
وتظهر للعشاق في كل مظهر من اللبس في أشكال حُسْنٍ بديعة [٣]
ففي مرة «لبنى» وأخرى «بثينة» وآونة تُدعي «بِعَزَّة» عَسَرَتْ

يزعم أن ربه ظهر لآدم في صورة حواء، و «لَقَيْس» في صورة «لبنى»
و «الجميل» في صورة «بثينة» و «لِكُثَيْر» في صورة «عَزَّة». فما حواء [أم]
البشر إلا الحقيقة الإلهية، وما أولئك العشاق سَكِرَتْ على شفاههن خطايا القلب
الحمرمة، وتهاوت بهن اللهفة الجسدية الثائرة تحت شهوات العشاق، ما أولئك
جميعاً سوى رب الصوفية تجسد في صور غَوَانٍ تطيش بهُدَاهُنَّ نَزْوَةً وَلَهْيً، أو
نَشْوَةً سَكْرَى، أو رغبة تَتَلَطَّى في عين عاشق!!

ويسرف ابن الفارض في تأكيد أنوثة ربه، وتجليه أبداً في صورة جسد
امرأة يَزِلُّ بها موعد الليل، فيقول:

(١) يصور لنا أحد أتباع ابن الفارض لوناً من ألوان مجنون سلطان العاشقين فيقول: «دفع إلى دراهم، وقال:
اشتر لنا بها شيئاً للأكل، فاشتريت ومشينا إلى الساحل، فنزلنا في مركب، حتى طلع البهنا [مدينة
بصعيد مصر الأدنى غربي النيل]، فطرق باباً، فنزل شخص فقال: باسم الله، [فطلع] الشيخ، فطلعت
معه، وإذا [أنا] بنسوة بايديهن الدفوف والشبابات، وهم يغنون له، فرقص الشيخ إلى أن انتهى، وفرغ
ونزلنا، وسافرنا حتى جئنا إلى مصر، فبقى في نفسي شيء، فلما كان في هذه الساعة جاءه الشخص الذي
فتح له الباب، فقال له: يا سيدي فلانة ماتت - وذكر واحدة من أولئك الجواري - فقال: اطلعوا الدلال،
وقال: اشتر لي جارية تغني بديها، ثم أمسك أذني، [وقال]: لا تنكر على الفقراء!!» ص ٣١٩ ج٢
لسان الميزان لابن حجر العسقلاني طبع الهند ١٢٣٠ هـ. هذا هو ابن الفارض القديس يرقص ويغني
والنسوة يرقصن معه ويظهرن له الدفوف!! ومع هذا يحرم على تابعه أن ينتقده!! وهكذا كل الشيخ.

[٢] في المطبوع [البهنة] وما اثبتناه من الدهوان؛ البيت رقم (٢٤٧) من الثالثة.

[٣] البيتان رقم (٢٥١، ٢٥٢) من الثالثة.

ولسن سواها، لا، ولا كن غيرها وما إن لها، في حسنهما، من شريكة^(١)

خشى ابن الفارض أن يتوهم أحد في ربه أنه يغاير حقيقته، أو تتباين صفاته، وهو يتجلى مرة بعد مرة في صورة غانية، أو أن يظن أن هؤلاء الغانيات «لبنى، بشينة، عزة» تغاير حقائقهن حقيقة ربه في شيء ما، خشى ابن الفارض ذلك، فاستدرك على الأوهام بما يحيلها يقينا ثابتا في أنوثة ربه، فقال: «ولسن سواها، لا، ولا كن غيرها» وهكذا صدق فيهم قول الله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (النساء: ١١٧) ماذا يحدث للشباب المسلم، ومنه لو أنه آمن بهذه الصوفية^{١٩}.

فليفهم كل عاشق يطويه الليل على خاطئة أنه حين يقترب الخطيئة مع أنشاه، وتعربد في جسدها الرخص أنيابه وأظفاره، ليفهم كل عاشق أن أنشاه هذه التي يعرق أنوثتها ليست إلا رب الصوفية الأعظم!!

وليصحح مؤرخو الأدب تاريخه، فابن الفارض يؤكد أن أولئك العشاق «قيس، جميل، كثير» وكل شعراء العشق لم يريقوا خمور الغزل إلا للذات الإلهية متجسدة في صور عشيقاتهم القوانل!!

أوعيت إذن علة إطلاق الصوفية على أربابهم أسماء نسوة^(٢) جلهن عواطل من الفضيلة، عوارب عن الشرف^{١٩}.

وعلة عبادتهم لأجساد تلظى فيها الشيطان، وعربد بخطاياهم^{١٩} ذلك لأن كهان الصوفية أوحوا إليهم أن أربابهم تتجلى دائما في صور إناث تجردن لخطايا العشق، وآثام الليل في حان الغرام!!

ومعذرة إلى من يقرءون للهدى^(٣) عما أثرته في نفوسهم من غشيان بذكر هذا القى القذر من الكفر الصوفي، وعما يحسونه بنقل تلك الأبيات من حرج تختنق فيه العاطفة، ويتقلب الضمير.

[١] البيت رقم (٢٥٣) من الثانية.

(٢) أنصت إلى المنشدين اليوم في حلق الرقص الصوفي أو الذكر كما يزعمون تجدهم يرقصون الذاكرين على مناجاة وليلي وسعادة وغيرها!!

[٣] مجلة «الهدى النبوي» إذ أصل الكتاب مقالات نشرت بها.

لمن كان سجود الملائكة،

ولا يمل ابن الفارض من تكرار إفكه الوثني يزعم فيه أنه هو الله، فيضيف إليه أنه عين رسل الله أيضاً، وعين آدم الأب الأول للبشرية، وعين الملائكة الذين سجدوا لآدم.

وفي شَهِدْتُ الساجدين لمَظْهَرِي^(١) فَحَقَّقْتُ أَنِّي كُنْتُ آدَمَ سَجَدْتِي^(٢)
وإليك شرح القاشاني - وهو كاهن صوفي - لهذا البيت : « أي عاينت في نفس الملائكة الساجدين لمظهري، فعلمت حقيقة أنني كنتُ في سجدتي آدَمَ تلك السجدة، وأن الملائكة يسجدون لي - والملائكة صفة من صفاتي^(٣) - فالساجد صفة مني تسجد لذاتي^(٤) » أرأيت إلى شرح القاشاني ؟ لقد نقلته لك بلفظه مثلاً لما يشرح به الصوفية أساطير دينهم ؛ لتؤمن أنني لم أمل مع الهوى فيما شرحت لك به أبيات ابن الفارض، وأظنني ما بلغت مبلغ القاشاني في الشرح، فهو صوفي يدين بالتائية.

وحسبنا هذا من سلطان عشاق الصوفية !!

إله ابن عربي^[٥]

أما هذا الطاغوت الأكبر، فقد افترى للصوفية رباً عجيباً يجمع بين التقيضين المتوترتين في ذاته، وبين الضدين الحقيقيين في صفاته، فهو الوجود

(١) يعني به آدم عليه السلام، فهو في دينه تجسد للذات الإلهية التي هي ابن الفارض.

(٢) البيت رقم (٤٧٦).

(٣) فسر الملائكة بأنها صفات، ليتقي القول بالغيرية والتعدد، ولكيلا يعترض عليه بمثل هذا: مادمت تتحدث عن ساجدين وعن مسجود له فقد قلت بذوات كثيرة، وأعيار عديدة.. لا يعترض عليه بمثل هذا لأنه يزعم أن الملائكة ليست ذوات. وإنما هي صفات للذات الإلهية والصفات عنده عين الذات، فلا تعدد، ولا غربة!!

(٤) ص ٨٩ ج ٢ « كشف الوجوه الغر » على هامش شرح الديوان طبع ١٣١٠ هـ.

[٥] هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطائفي الحافتي الأندلسي، الملقب: محي الدين المعروف بـ « ابن عربي » - تميزاً له عن ابن العربي المالكي - ولد في مرسية من بلاد الأندلس سنة (٥٦٠ هـ). زنديق له كفر بواح، قال بكفره جم غفير من العلماء انظر بعضها في « جزء فيه عقيدة ابن عربي » للفاسي، تحقيق / الحلبي، ط. ابن حزم.

الحق، وهو العدم الصرف، هو الخلاق، وهو المخلوق، هو عين كل كائن، وصفاته عين صفات كل موجود وكل معدوم، هو الحق الكريم والباطل اللئيم، هو الفكرة العبقريّة، والخرافة الحمقاء، هو الخاطرة المُلهمّة، والوهم الذاهل، والخيال الحيران، والمستحيل الذي لا يتصور فيه العقل أبداً أن يخطر حتى مرة واحدة في بال الإمكان، والممكن الذي يرى فيه الفكر أجلى معاني الإمكان، والذي لا يتوهم فيه العقل وهم استحالة، هو المؤمن، وهو الكافر، هو الموحد الخالص التوحيد، وهو المشرك الأصم الوثنية، هو الجماد الغليظ، وهو الحيوان ذو المشاعر المرفهة، والحساسية المتوقدة، هو الملاك الساجد تحت العرش، وهو الشيطان الذي يصطرخ في سقر، هو القديس الناسك يذوب قلبه في دموع التسابيح، وهو العرييد يضج الماخور^[١] من بغي خطاياها، هو الراهبة التي تحيا على محبة الله وتقواه، وهو الغانية التي تحيا للجسد المبذول، وتعيش على ثمنه، هو النور يغمر الوجود بمباهجه، وهو الظلام مؤر الكهوف بالفرع والرهبنة، تلك هي بعض ذاتيات رب ابن عربي، وبعض خصائص الإله الصوفي !!

ولهذا يؤمن الطاغوت بأن اليهود عبادة العجل ناجون، بل يؤمن بأنهم كانوا على علم بحقيقة الألوهية، لم ينعم موسى ولا هارون بلمحة من تجلياته، ولا ببارقة من انكشاف الأسرار الإلهية المغيبة له !! لأنهم ما قصرُوا العبادة على فكرة مجردة خاوية كموسى، وإنما عبدوا الرب متجلياً في صورة عجل، فادركوا من حقيقة الأمر ما لم يدركه هارون، وهو أن الذات الإلهية لا تعبد إلا حين تتجلى في صور خَلْقِيَّة !!

ويؤمن ابن عربي بقدسية عبدة الأصنام، ويمجد صدق إيمانهم وإخلاص توحيدهم، يؤمن بالصائبية عبادةً يوحدون الله، ويخلصون له الدين، يؤمن بسمو إيمان الذين عبدوا ثلاثة آلهة غير أنه يعيب عليهم قصورهم عن إدراك

[١] «الماخور»: هو بيت الرّبة ومجمع أهل الفسق والفساد وبيوت الخمارين.

الحقيقة كاملة؛ إذ عبدوا الله في ثلاثة أقاليم، على حين كان الواجب أن يعبدوه في كل شيء، فليس الرب عنده هو تلك الأقاليم، فحسب، وإنما هو عين ما يرى أو يُحس، وعين ما لا يرى، وما لا يُحس، فأصحاب الثالوث عنده مخطئون؛ لأنهم عبدوا بعض مظاهر الرب، أو بعض تَعَيِّناته وكان واجباً أن يعبدوه في الكل؛ لأنه هو ذلك الكل فيما ظهر منه، وفيما بطن!!^[١].

ربوبية كل شيء

واسمع إليه يؤكد لك أن كل شيء هو الله سبحانه: «سبحان من أظهر الأشياء، وهو عَيْثُهَا»^(٢)، «إن العارف من يرى الحق (الله) في كل شيء، بل يراه عين كل شيء»^(٣)، وكلمة «شيء» في دين الطاغوت تُطْلَقُ حتى على الصور الذهنية والوهمية وعلى العدميات، فوق إطلاقها على كل موجود له كيانه المادي المستقل المتقوم بذاتيته وخصائصه. فابن عربي كما ترى أصرح الدعاة إلى وحدة الوجود، بل هو كاهنها الأكبر!!.

الرب إنسان كبير

واسمع إليه يحكم على ربه بأنه يجب أن يوصف بما يوصف به الخلق، حتى بما فيهم من نقص وعجز وحمق وجهالة، وَيُحَدُّ بِمَا يُحَدُّ بِهِ كُلُّ كَائِنٍ

[١] اقرأ الفص (الميسوي) و (المحمدي) من فصوص الحكم لابن عربي. [قال في الفص الميسوي: اعلم أن من خصائص الأرواح أنها لا تغطا شيئاً إلا حيي ذلك الشيء وسرت الحياة فيه؛ ولهذا قبض السامري قبضة من أثر الرسول الذي هو جبريل وهو الروح، وكان السامري علماً بهذا الأمر فلما عرف أنه جبريل، عرف أن الحياة قد مرت فيما وطئ عليه فقبض قبضة من أثر الرسول بالصاد أو بالصاد أي بملء يده أو بأطراف أصابعه فنبت هذا في العجل فخار العجل، فذلك القدر من الحياة السارية في الأشياء يسمى لاهوتاً، والناسوت هو المخل القائم به ذلك الروح] الفصوص (٢٠٩، ١١٠).

وقال في الفص المحمدي: «فص حكمة فردية في كلمة محمدية» وإنما كانت حكمته فردية لأنه أكمل موجود في هذا النوع الإنساني فلهذا بدئ الأمر به وختم فكان نبياً و آدم بين الماء والطير، ثم كانت منشأته العنصرية خاتم النبيين، وأول الأفراد الثلاثة، انظر: الفصوص، ص (٣٢٦، ٣٢٧)، شرح الفاشاني.

(٢) ص ٦٠٤ ج٢ «الفتوحات المكية» لابن عربي.

(٣) ص ٣٧٤ «فصوص» بشرح بالي، ص ٣٨٢ بشرح قاشاني، ص ١٩٢ ج١ بتحقيق الدكتور عفيفي.

على حدة: «فما يُحدُّ شيء إلا وهو حدُّ»^(١) الحق، فهو الساري في مُسمَّى المخلوقات والمبدعات [ولم يكن الأمر كذلك ما صح الوجود. فهو عين الوجود، «فهو على كل شيء حفيظ» بذاته؛ «ولا يقوده» حفظ شيء. فحفظه تعالى للأشياء كلها حفظه لصورته أن يكون الشيء غير صورته. ولا يصح إلا هذا]^[٢]، فهو الشاهد من الشاهد، والمشهود من المشهود، فالعالم صورته، وهو روح العالم المدبر له، فهو الإنسان الكبير»^(٣).

الرب هو صور العالم

واسمع إليه يؤكد لك أن ربه هو كل ما ترى من صور العالم: «هي ظاهر الحق؛ إذ هو الظاهر، وهو باطنها؛ إذ هو الباطن، وهو الأول؛ إذ كان، ولا هي، وهو الآخر؛ إذ كان عينها عند ظهورها»^(٤) وتدبر تعريف ابن عربي لربه بقوله: «[فهو] عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثم من يراه غيره»^(٥)، وما ثم من يبطن عنه، فهو ظاهر لنفسه، باطن عنه، وهو المسمَّى أبا سعيد الخراز^(٦)، وغير ذلك من أسماء [المحدثات] «والعارف الحق بالله عند ابن عربي هو من يرى «سريان الحق (الله) في الصور الطبيعية والعنصرية، وما بقيت له صورة إلا ويرى عين الحق [عينها]».

صفات الرب صفات الخلق

ويحكم ابن عربي على ربه، ويصفه بالعجز الدليل، والنقص المشين،

(١) الحد هو أتم أنواع التعريف، فإذا عرفت الصنم مثلاً بحد ما، فهذا التعريف صادق على الرب الصوفي، لأنه هو ذلك الصنم نفسه.

[٢] هذه الريادة سقطت من الأصل، اثبتناها من الفصوص، ص (١١١).

(٣) ص ١١١ «فصوص الحكم» ط الحلبي.

(٤) ص ١١٢ «فصوص» ط الحلبي.

(٥) يعني أنك إذا رأيت إنساناً، أو حجراً، فقد رأيت الرب الصوفي، بل الرائي والمرئي هما عين ذلك الرب.

(٦) هو أحمد بن عيسى ممن تكلم في الفناء الصوفي توفي سنة ٢٧٩ هـ.

والسفه والحماقة، وبأنه مناط مذمة وتحقير ومهانة. فيقول: «ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر بذلك عن نفسه، وبصفات النقص، وبصفات الذم؟! ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها - وكلها حق له - كما هي صفات المحدثات حق للحق^(١)».

لقد خشي ابن عربي أن يتوهم فيه إنسان أنه يطلق صفات الخلق على الله سبحانه إطلاقاً مجازياً، أو يطلق صفات الله على خلقه كذلك. خشي هذا، فمحا توهم المجاز عن الأولى بقوله: «كما هي صفات المحدثات حق للحق» فلا تتوهم مجازاً ما فيما يحكم به ابن عربي على ربه، أو فيما يصفه به من ذم ونقص وعجز. ومحاه عن الأخرى بقوله: «وكلها - أي صفات الله من ربوبية وإلهية وخالقية ورازقية، وسواها مما هو من صفات الله وحده - حق له»، أي للمخلوق، فالخلق يوصف بصفات الله على الحقيقة لا على المجاز!! ذاك دين ابن عربي.

رب الصوفية وجود وعدم

ورب الصوفية في دين ابن عربي يستغرق كل نسبة عدمية، أو وجودية «فألغى لنفسه، هو الذي يكون له الكمال الذي يستغرق به جميع الأمور الوجودية، والنسب العدمية، بحيث لا يمكن أن يفوته نعت منها وسواء كانت محموداً عرفاً وعقلاً وشرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله تعالى خاصة^(٢)».

فأي رب هذا الذي يبعثه وجود، ويفنيه عدم؟ أي رب هذا الذي يكون مناط الذم من الشرع والعقل والعرف؟ لقد نعت ابن عربي ربه بكل مذمة، فلماذا لا يذمه الشرع والعقل والعرف؟!

(١) ص ٨٠ «فصوص» راجع ما كتبه في «دعوة الحق» ص ٣٠ وما بعدها.

(٢) ص ٧٩ «فصوص».

هل شيء رب للصوفية

لقد كفرت الصابئة؛ لأنهم عبدوا الكواكب، وكفرت اليهود؛ لأنهم عبدوا العجل، وكفرت النصارى؛ لأنهم عبدوا ثلاثة أقانيم، وكفرت الجاهلية؛ لأنهم عبدوا أصناماً أقاموها لمن مات من أوليائهم، لتكون مقصد الرجاء، ومطاف الآمال، كما كان أصحابها، وهم ناعمون بالحياة. فماذا تقول في الصوفية، أو بماذا تحكم عليها، وهي تدعو إلى عبادة كل شيء؟^(١) ألا يقول الجيلي: «إن الحق تعالى من حيث ذاته، يقتضي ألا يظهر في شيء، إلا ويُعبد ذلك الشيء، وقد ظهر في ذرات الوجود»^(٢)؟ ويزيد ابن عربي الفرية جلاء بقوله: «والعارف المكمل من رأى كُلَّ معبود مَجْلَى للحق يُعبد فيه، ولذلك سموه كلهم إلهًا، مع اسمه الخاص بحجر، أو شجر، أو حيوان، أو إنسان، أو كوكب، أو ملك»^(٣).

فهل تراني جَنَحْتُ إلى غُلُوٍّ مَا حين قلت لك: إن الصوفية استمدت من كل كفر، ودانت بكل ما دان به الكافرون من قبل، فكانت هي وحدها تاريخ الوثنية كلها، وحماتها منذ ابتدئها إبليس ليضل الكافرين؟^(٤)

ألا ترى ابن عربي حَفِيَ القلب والشعور والعاطفة بعبادة الحجر والشجر «آلهة الجاهلية» وعبادة الحيوان «آلهة الفرعونية واليهودية» وعبادة الإنسان «إله النصرانية والشيعة» وعبادة الكوكب والملك «آلهة الصابئة»^(٥)؟

فالصوفية هي كل ذلك الكفر، ثم تحته وفوقه، وعن شماله ويمينه ومن

(١) ص ٨٣ جمع الإنسان الكامل للجيلي.

(٢) ص ١٩٥ ج١ فصوص، وقد عدد في هذا النص آلهة الذين كفروا من قبل، فعبدوا الحجر والشجر والحيوان والإنسان والكوكب والملك، يعني الصابئة واليهود والنصارى والذين أشركوا. وصوب عبادتهم، إذ كل ما عبدوه في دينه ليس إلا ربا تجلّى في صورة ذلك المعبود.

(٣) [٢] يوجد بالأصل [أي] وحذفناها لتناسب السياق.

خلفه ومن قدامه كفرها الخاص بها!! وفيما ذكر ابن عربي ما يثبت اليقين في قلبك بما أقول.

التجسد في النسـة .

وكما عبد ابن الفارط جسد الأنثى، عبده كذلك ابن عربي، بيد أن الأول عبد المرأة مستباحة العفة له، وعبدها الآخر مستعصية الشرف عن أهوائه.

وإليك نصاً واحداً من فصوصه يكشف لك عن مدى إيغال ابن عربي في عبادة الأنثى «ولما أحب الرجل المرأة، طلب الوصلة^(١)، أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح^(٢)، ولهذا تعم الشهوة أجزائه كلها، ولذلك أمر بالآغتسال منه – فعمت الطهارة، كما عم الفناء فيها – عند حصول الشهوة، فإن الحق غير على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره، فطهره بالغسل^(٣)؛ ليرجع بالنظر إليه فيمن فنى فيه، إذ لا يكون إلا ذلك، فإذا شاهد الرجل الحق^(٤) في المرأة، كان شهوداً في منفعل، وإذا شاهده في نفسه – من حيث ظهور المرأة عنه – شاهده في فاعل، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه، كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة، فشهوده للحق في المرأة آتم وأكمل؛ لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة؛ فلهذا أحب ﷺ النساء؛ لكمال شهود الحق فيهن^(٥)، إذ لا يشاهد

(١) يقصد بها ما يحدث بين الذكر والأنثى.

(٢) يقصد به ماله من معنى في أدهان العامة بدليل ما ذكره بعده، لا يريد الزواج بل شيئاً آخر.

(٣) يزعم أن الله لم يأمر بالفصل إلا ليطهر العبد مما توهمه من أنه كان مع امرأة، على حين كان هو مع الربة الصوفية جسداً وخطيئة!!

(٤) الحق في دين الصوفية هو الذات الإلهية في وجودها المطلق!!

(٥) يزعم ابن عربي أن علة حب الرسول ﷺ للنساء هي اعتقاده أنهن الله في أجمل صور تعيناته وتجلياته، ورغبته في الالتذاذ الجسدي المتنوع بربه!!

الحقُّ مُجَرِّداً عن المواد أبدأ، [فإن الله بالذات غني عن العالمين. وإذا كان الأمر من هذا الوجه ممتنعاً، ولم تكن الشهادة إلا في مادة]، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله، وأعظم الوصلة النكاح^(١).

وتستطيع أن تلخص، وتستخلص من هذا النص وحده دين ابن عربي كله. إنه يعتقد أن رب الصوفية يتجلى أعظم تجلٍ له في صورة أنثى يهصر^[٢] جسدها المستسلم حيواناً نائر الجسد. يعتقد أن العاشقين ينتهبان خطايا الليل، هما رب الصوفية!! ويلحف على العشاق، عربدت بهم خمرة الأجساد من دنان الإثم أن يدينوا بأنهم كانوا مع الرب الصوفي ليلاً وخطيئة وغريزة ولذة!!، فما استغرقوا في اللذة بأنثى، بل بالرب المتجسد الخطايا في أنوثة عصفت بها الرذيلة!! ثم ينحدر ابن عربي في سرعة مجنونة إلى أعماق الأغوار السحيقة من المادية، فيؤكد لنا: أن الرب الصوفي شيء مادي، وأنه لا يرى أبدأ إلا في مادة!! هذه هي روحانية الصوفية يا من عنها تذودون!! روحانية يفترى كاهنها الأكبر هذه الغربة الكبرى فيقول: «لا يشاهد الحق (الله) مجرداً عن المواد أبدأ» ويقول: «وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى مُحَدَّثَات هي العلية لذاتها، وليست إلا هو»^(٣).

وما ينبغي - احتراماً لعقلك يا سماحة الشيخ - أن أدلك على أساطير الزندقة في تلك النصوص الصوفية، فإنها تكاد تنشب مخالبتها في العين لتراها!! أترى تخزك الندامة على أنك شكوننا، فنكات^[٤] لك الجراح، أم تراها تخزك لما ظلمت به من يود لك الخير، ويدعوك إليه، ولأنك في مكانك هذا تحمل أوزار الصوفية كلها على ظهرك^{١٢}.

(١) ص ٢١٧ فصوص ج ١ ط الحلبي، ص ٤٣٧ ط استامبول بشرح القاشاني، ص ٤٢٠ بشرح بالي ط ١٣٠٩ هـ.

[٢] هصر الفصن: أخذ براسه فأماك إليه.

(٣) ص ٧٦ ج ١ فصوص لابن عربي ط الحلبي.

[٤] «نكأ» القرحة، نكأ: قشرها قبل أن تبرأ فندبت.

التجسد المسيحي. والتجسد الصوفي

وتلوذ بي عاطفة من إشفاق تحملني على ألا أزيد جرحك انتكاساً بذكر
نصوص آخر، غير أنني أود تذكير الشيخ بأن المسيحية^[١] حين سلبتها الصوفية
رشدّها وهداها، وقداسة الروحانية فيها، فرغبت بها عن التوحيد الخالص إلى
الشرك؛ بعبادة ثلاثة آلهة!! إن المسيحية حين استعبدتها غواية الصوفية أثبت أن
تخبط وراءها في كل مهلكة، فلم تؤمن بتجسد الذات الإلهية في كل شيء
وإنما اختارت جسداً طيباً طاهراً، شرف الله صاحبه بالرسالة، وآمنت بأنه
التجسد الأعظم لله!! ومع هذا لم تنل من الله إلا لعنة الأبد، وغضب الأبد،
وسعير جهنم يصلونها، وبئس المصير.

أما شيخكم الأكبر، فقد هوى به الكفر، أو هوى هو بالكفر، إلى أبعد
أعماق الهاوية الساحقة الماحقة، وانحدر به إلى كل منحدر، فأمن بتجسد ربه في
أجساد تقيحت من الدنس، آمن بتجسد ربه في الجيف، وفي الأوثان، وعجل
السامري، وفرعون موسى، ثم هَفَّتْ^[٢] به غُلْمَتُهُ^[٣] الآثمة، فكشفت عن دخيلة
نفسه الآبقة تعبد رباً تتلظى غرائزه، وتتسعر شهواته، وتشتهي مفاتنه حين
يتجسد في أنثى طاحت بها نزواتها لقي تحت رغبة كل عابر يراود خطيئة!!.

لماذا عبد ابن عربي المرأة؟

إن كبيرتكم الأحمر هذا أحب امرأة ذات مرة، هي ابنة الشيخ مكين
الدين. وأين؟ في مكة!!.

وهذا العاشق المذلُّ يتلمس جسد المرأة، وسبيل أنيابه إليها، راح يتوسل
إليها أن تتجرد له، وأن تبيح قدس عرضها لخطيئته، فأبت العذراء، يتلهب
حياؤها كرامة أن يلغ في شرفها ذئب!!.

[١] التعبير الشرعي لهذه الطائفة «النصرانية» وليس «المسيحية»، فكذلك سماهم الله - عز وجل - وسامهم
رسوله ﷺ.

[٢] «هَفَّتْ»: شدة الشهوة للجماع.

[٣] «غُلْمَتُ»: تساقطت.

لقد أرادته للقلب الطاهر، وأرادها هو للجسد الثائر، أرادته للطهر والمعبود وأرادها هو للدنس والماخور، فتمنعت الفتاة عن نابه الطحون، فنظم فيها ديوانه « ترجمان الأشواق » قُرْبَانًا من شهواته إلى جسدها الفُواح العطر والفتنة، لعلها تنحدر معه إلى الهاوية، فتهب له من جسدها مضغعة، أو مِنْ دَمِهَا رَشْفَةً، فزادته الفتاة عن حَرَمٍ مخدعها الْوَرْدِيُّ، ولجَّت في إِبائِها النبيل الكريم، وأبت إلا أن تكون عذراء متألقة العرض، روحانية العاطفة، مُمَنَّعة العفة والشرف، ترى، هل أراب اليأسُ منها عشقَ ابن عربي؟ كلا، فقد استغرق نفسه، ووجوده، وملا عليه دنياه فتنة ولهفة وقلقًا عاصفًا، فلم يَعْرِه اليأس، ولا مَسَّ لَهَبُهُ خُمُودٌ، فعاد إلى ديوانه يشرحه بدين الصوفية، يؤكد لهذه الجميلة النافرة الأبيَّة أنها هي الرب متجسدًا في صورة أنثى جميلة، وأنه ما أَحَبُّهَا إلا لأنها أجمل تعيُنات الحقيقة الإلهية، وأنه - إِذ يَتَشَهَّأُهَا - فَإِنَّمَا يَتَشَهَّى فِيهَا أَنْوثة ربه، وجسده الفائز!! فابت المرأة إلا أن تكون أنثى شريفة، لا رُبًّا صوفيًّا يحتسي الآثام!! ومضى ابن عربي وراء الأسطورة موعلاً في التيه الموحش، والدغل الرهيب، مضى وراءها يمجدها، ويهتف بها حتى صارت الأسطورة حقيقة صوفية صريحة، منحها ابن عربي وجودًا حَيًّا صريحًا، وأمدَّها مثله الأبحار الزنادقة معه ومن بعده وهكذا تغزل الصوفية في « ليلي وبشينة وسعاد »^[١]!!

[١] قال ابن عربي يحكي قصة تأليف هذا الديوان :

« وكان لهذا الشيخ - وهو الشيخ مكيبن الدين أبي شجاع زاهر بن رستم الأصبهاني قرأ عليه ابن عربي الترمذي وهو في مكة - بنت عذراء، طفلة هيفاء، تفيد النواظر، وتسرهاهاضر، وتحير المناظر تسمى بالنظام »، وظل يمدح فيها نحو عشرين سطرًا، ومما قاله :

« فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب - يعني الديوان - أحسن القلايد، بلسان نسيب رائق، وعبارات الغزل الرائق، ولم أبلغ بذلك بعض ما تجده النفس، ويشير الأنس، من كريم ودَّها، وقديم عهدها ... ».

« فكل اسم أذكره في هذا الجزء فمعتها أكنى، وكل دار أُنْدبها فدارها أعني، ولم أزل فيما نظمته في هذا الجزء عن الإيماء إلى الواردات الإلهية، والتنزلات الروحية، والمناسبات العلوية، جريًا على طريقتنا للثلي ».

يعني طريقته الشيطانية في أنه تصور الإله في صورة تلك المرأة. انظر: (ذخائر الأعلام شرح ترجمان الأشواق) ص ١٧٤، ١٧٥، تحقيق د. محمد علم الدين الشقيري.

وتسائلهم، فيزمون^[١] الشفاه تهكما من حماقة جهلك !! ويرمقونك بالنظر الشَّزْر، وكانما يقولون لك: مسكين !! مازال يجهل أن ربنا أنثى جميلة !! ضليل !! لم يهتد إلى أن الغاية اللعوب المهلوك هي الأفق الأعظم لتجليات الربوبية والإلهية، وإلى أن جسدها المنهوم الجائع إلى الآثام جسد ربنا الأعظم !! وأنها هي هو جسداً فاتناً، ورذيلة سوداء !!.

فقر الإله الصوفي إلى الخلق

الله سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] غير أن الصوفية تؤمن بإله هو الفقير إلى الخلق، فقير إليهم في وجوده فقير إليهم في علمه، فقير إليهم في بقائه، فقير إليهم في طعامه وشرابه، وفقير إليهم في كل شيء يهب له الظهور بعد الخفاء، والوجود بعد العدم، ويحول بينه، وبين الفناء.

يقول ابن عربي: «فوجودنا وجوده، ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا، وهو مفتقر إلينا من حيث ظهوره لنفسه» ويقول: «فانت غذاؤه بالاحكام^(٢)، وهو غذاؤك بالوجود، فتعين عليه ما تعين عليك، والأمر منه إليك، ومنك إليه، غير أنك تُسمَّى: مكلفاً، وما كلفك إلا بما قلت له: كلفني بحالك، وبما أنت عليه – ولا يُسمَّى مكلفاً: [اسم مفعول].

فيحمدني، وأحمده ويعبدني وأعبده^(٣)»

ذلك هو رب الصوفية الذي افتراه لها ابن عربي، وبه يدين أقطابها، وله

يسجدون !!

[١] «زَمَّه بَانْفَه: تَكَبَّرَ.

(٢) أي أسماؤك أسماؤه، وصفاتك صفاته، وأفعالك أفعاله، فلولاك ما سمي ولا وصف، ولا حكم عليه بحكم لأنك عينه وذاته.

(٣) من ٨٣ ج١ «فصوص» ط الحلبي.

إله الجيلي^(١)

وهذا الكاهن الوثني الأكبر يدين يدين صنميه ابن الفارض وابن عربي، غير أن اللون الفاضح الصارخ في زندقته هو اعتقاده أن الله ما هو إلا إنسان كامل^(٢)، وأن الإنسان الكامل ما هو إلا الرب الأكبر الجامع بين الحق والخلق في وحدة^(٣)، ولقد سبقه بهذا الإلحاد ابن عربي، ولكن الجيلي كان حَفِيًّا به أكثر، مديراً حول محوره زندقته، ولقد رأى الجيلي ألاَّ يَمُنَّ بهذه المرتبة على أحد قبله، فمضى يؤكد القول أن إنسانيته هي أفق الربوبية والالوهية الاسمي.

أحد الجيلي الربوبية العظمى

«لي الملك في الدارين، لم أر فيهما سواي، فأرجو فضله، أو فأخشاه وقد حُزْتُ أنواعَ الكمّال، وإنني جمالٌ جلالِ الكل، ما أنا إلا هو» هذا قول الجيلي، والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩] ولكن الجيلي يفترى أن له وحده ملك الدنيا والآخرة وأنه ليس للوجود رب سواه، ولا ليوم الدين ملك غيره، وأنه الغني بذاته، فلا تنفخ قلبه رغبةً في نعمة من أحد؛ لأنه الوهاب للنعم، ولا تلتفع

(١) هو عبد الكريم بن إبراهيم الجيلاني أو الجيلي توفي نحو سنة ٨٣٠ هـ.

(٢) يقول الكمّشخاني «الإنسان الكامل المتحقق بحقيقة البرزخية الكبرى عين الله وعين العالم» ص ١١١ «جامع الأصول في الأولياء».

[٣] قال الجيلي: «ويظهر الحق فيها - أي في فلك الالوهية الذي يحيط بالضدين كالوجود والعدم - بصورة الخلق مثل قوله: «رأيت ربي في صورة شاب أمرء» - حديث موضوع - ويظهر الحق فيها بصورة الخلق مثل قوله: «خلق آدم على صورته» - «الإنسان الكامل» ص ٤٣. والحديث «خلق آدم على صورته» رواه البخاري (٥٨٧٣) ومسلم (٢٦١٢، ٢٨٤١)، أما تفسيره الصحيح قال عنه الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : «واختلف إلى ماذا يعود الضمير (الهاء في صورته)؟ فقيل: إلى آدم أي خلقه على صورته التي استمر عليها إلى أن أهبط وإلى أن مات، دفعا لتوهم من يظن أنه لما كان في الجنة كان على صفة أخرى، أو ابتداء خلقه كما وجد لم ينتقل في النشأة كما ينتقل ولده من حالة إلى حالة. وقيل للرد على الدهرية أنه لم يكن إنسان من نقطة ولا تكون نقطة إنسان من إنسان ولا أول لذلك، فبين أنه خلق من أول الأول على هذه الصورة» اهـ. انظر بقية هذه الأقوال في «الفتح» (٦/١١) شرح حديث رقم (٦٢٢٧)، أما الحديث الأول «رأيت ربي في صورة شاب أمرء» فموضوع كذب وزور.

نفسه رهبةً من سلطان؛ لأنه ملك الكل ومالكهم!! ولم يكتب الجيلي بهذا، بل مضى يعدّد أنواع الخلق، وصور الوجود المادي والحسي والروحي والمعنوي؛ ليزعم بعدها أنه هو عينها ذاتاً ووجوداً، فلا يتوهم وأهم أن شيئاً ما في الوجود يغاير الجيلي، أو يخرج عن حقيقة ذاته، فقال:

« فمهما ترى من معدن ونباته	وحيوانه مع إنسه وسجايه
ومهما ترى من أبحر وقفاره	ومن شجر، أو شاهق طال أعلاه
ومهما ترى من صورة معنوية	ومن مشهد للعين طاب محياه
ومهما ترى من هيئة ملكية	ومن منظر إبليس قد كان معناه
ومهما ترى من شهوة بشرية	لطبع، وإيشار لحق تعاطاه
ومهما ترى من عرشه ومحيطه	وكرسیه، أو رفرف عز مجلاه
فإني ذاك الكل، والكل مشهدي	أنا المتجلي في حقيقته، لا هو
وإني رب للأنام وسيد	جميع الوري إسم، وذاتي مُسماه ^(١) »

أرأيت إلى الجيلي بآية وثنية ينثق؟ وبآية مجوسية يدين؟ أرأيت إليه في قوله: «أنا المتجلي في حقيقته لا هو؟» يا للجيلي!! يحكم على الوجود الحق بالعدم الصرف!!

أرأيت إليه في زعمه أنه «رب للأنام وسيد»؟

أرأيت إليه - وقد جُنّت شهوة الزندقة فيه - يفترى أن الشهوات إحدى مقومات الوجود الإلهي، وأنها في دنسها عين وجوده؟ وأن إبليس في غيّه وتمرده هو عين الرب الأعظم؟ وأن كل اسم في الوجود هو اسم الله سبحانه، لأنه عين كل مسمى، وأن كل صفة لكائن ما، هي لله صفة، لأنه عين الموصوف بها؟ فعلام يدل كل هذا، أو أثارة واحدة منه؟

(١) ص ٢٢ وما بعدها ج ١ «الإنسان الكامل» للجيلي ط ١٢٩٣ هـ. [قد اختصر المؤلف أبياتاً لا داعي لذكرها].

أسأل الله يا سماحة الشيخ أن يشرق في قلبك شعاع من هدي الله، لتبصر على نوره هذا الكيد الدنيء للإسلام، تؤجج أحقاد الصوفية، وتورث أضغاثه في خبث خاتل، ودهاء يفتك بالبسمات العذاب، يترقب الفرصة للطعنة النجلاء^[١].

وإن تعجب، فعجب تقديس الصوفية للجيلي، وتبرئة ساحته مما يحكم به الحق والعدل عليه !! إنها محاولة الرياء الجبان انتهت ستره، فيلود بالبراءة حتى من نفسه، لتسنع له الفرصة مرة أخرى، فيجهز على الضحية.

إن تلك الزندقة الجيلية يتوارثها صوفي عن صوفي، فحق عليهم قول الله ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٥٣) [الذاريات: ٥٣]. كيف يجعله الصوفية قطباً عرجت روحه إلى الحق تستلهمه الوحي، وهو القائل ١٩:

«لي الملكُ والملوكُ نسجي وصنعتي لي الغيبُ، والجبروت مني منشاء»^(٢)،

رب الصوفية نقيضان وضدان

دانت الصوفية كما رأيت برب هو عين كل شيء، وعين كل ما يطيف بالذهن من صور، ومن الأشياء ضدان^[٣]، ومن الصور نقيضان، ورغم هذا لم يحجم الصوفية عن وصف ربهم بأنه يجمع في ذاته بين الشيء وضده. وبين الصفة ونقيضها، يقول الجيلي: «اعلم أن الله - تعالى - لما خلق النفس المحمدية من ذاته - وذات الحق جامعة للضدين - خلق الملائكة العالمين من حيث صفات الجمال والنور والهدي من نفس محمد، وخلق إبليس وأتباعه من

[١] النجلاء: واسعة شق العين.

(٢) ص ٢٣ ج ١ «الإنسان الكامل».

[٣] كل هذا الذي جرحهم إليه إيمانهم بعقيدة وحدة الوجود وأنه ليس في الكون إلا الله، ولأن في الكون أشياء كثيرة تتضاد فيما بينها كالليل والنهار، قالوا بأن الله - أو فلك الألوهية كما يسمونه - يحيط بالضدين كالوجود والعدم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

حيث صفات الظلمة [والضلال] من نفس محمد ﷺ^(١) ويقول: «[و] اعلم أن الوجود والعدم متقابلان وقلك الألوهية محيط بهما؛ لأن الألوهية [محيط] تجمع الضدين من القديم والحديث، والحق والخلق والوجود والعدم، فيظهر فيها الواجب مستحيلاً بعد ظهوره واجبا، ويظهر فيها المستحيل واجبا بعد ظهوره فيها مستحيلاً، ويظهر الحق فيها بصورة الخلق^(٢)، ويظهر الخلق بصورة الحق^(٣)» «الألوهية في نفسها تقتضي شمول النقيضين و [جميع] الضدين»^(٤).

«تجمعت الأضداد في واحدٍ البها وفيه تلاشت فهو عنهن ساطع»^(٥)
هذا رب عجيب لم يتدعه غير خيال الصوفية الخبول. رب موجود معدوم واجب مستحيل، قديم حديث، ينعم بالحياة، ويهلكه الموت، فهو حي ميت في آن معاً!! هذا هو رب الصوفية الذي اختلقه الجيلي، وبه تدين الصوفية، وإياه يعبدون!!

إله الغزالي^(٦)

ولعل مما يقلق دهشتك، ويشير نائرتك أن يُقرَن بأولئك هذا الذي افترى له الصوفية أضخم لقب في التاريخ، وهو «حجة الإسلام» ليفتكوا بهذا اللقب الخادع بما بقي من ومضات النور الشاحبة في قلوب المسلمين، فاسمع إلى كاهن الصوفية - لا حجة الإسلام - يتحدث عن التوحيد ومراتبه: «للتوحيد

(١) ص ٤١ ج ٢ المصدر السابق. وتامل زعمه أن إبليس خلق من نفس محمد!! لقد رمانا الصوفية بالكفر، لانا دعواناهم إلى الصلاة على رسول الله بما شرعه الله. فماذا يقولون في الجيلي؟

(٢) الحق والخلق وجهان أو صفان للذات الإلهية فالأول باعتبار باطنها، والآخر باعتبار ظاهرها.

(٣) ص ٢٧ ج ١ المصدر السابق.

(٤) ص ٦٩ ج ١ نفس المصدر.

(٥) ص ٣٣ ج ١ المصدر السابق.

(٦) محمد بن محمد بن أحمد الطوسي أبو حامد الغزالي مات سنة ٥٠٥ هـ.

أربع مراتب ... والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كما صدق به عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام^(١). والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار^(٢). والرابعة: ألا يرى في الوجود إلا واحداً وهي مشاهدة الصديقين، وتسميه الصوفية: الفناء في التوحيد، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً، فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه؛ لكونه مستغرقاً بالتوحيد، كان فانياً عن نفسه في توحيده^(٣)، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق.

ثم يحدثنا الغزالي عن مقامات الموحدين في كل مرتبة، فيصف صاحب المرتبة الرابعة من التوحيد بقوله: «الرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير، بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد...»^[٤] إن قلت: كيف يتصور ألا يشاهد إلا واحداً، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة، وهي كثيرة؟ فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات^(٥)، وأسرار

(١) تدبر وصفه لعموم المسلمين بأنهم عوام في الاعتقاد!!

(٢) في هذه المرتبة يقرر وحدة الفاعل، بدليل ما سيقرره بعد، وهو أنه لا يشاهد إلا فاعلاً واحداً، فيلزمه نسبة فعل المجرم إلى ذلك الفاعل الواحد.

(٣) قرر فيما سبق وحدة الفاعل ولكنه لم ينف وجود غيره، أما في هذه، فيقرر وحدة الوجود أي وحدة الوجود، يقرر أن الذوات على كثرتها هي في الحقيقة ذات واحدة.

[٤] هذه النقط ليس من وضع المؤلف، وإنما من وضعنا، ذلك لأن بين الفترتين كلام كثير لم يذكره المؤلف - رحمه الله -.

(٥) يكل المعرفة باسم مراتب التوحيد إلى علوم المكاشفات، فما تلك العلوم؟ إنها قطعاً شيء آخر غير الكتاب والسنة، إنها أساطير الصوفية التي استمدوها من «أذواقهم ومواجيدهم» ثم سجلوها في كتبهم، فكان القرآن وسنة الرسول ليس فيهما ما يصل بالقلب إلى قدس الحق من التوحيد الخالص، فتدبر تجد الغزالي يهدف إلى صرف المسلمين عن هدي ربهم إلى خرافات الصوفية وضلالاتهم.

هذا العلم لا يجوز أن تُسَطَّرَ في كتاب^(١)، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر^(٢)، ثم يضرب لنا مثلاً عن شهوة الوحدة في الكثرة بقوله: «كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد.. فكذا كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار من الاعتبار واحد، وباعتبارات أخرى سواه كثير [وبعضها أشد كثرة من بعض] ومثاله الإنسان، وإن كان لا يطابق الغرض، ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحداً، ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه، وتؤمن إيمان تصديق^(٣)، وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج^(٤) حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال: فيماذا أنت؟ فقال: أدور في الأسفار؛ لأصحح حالتي في التوكل، [وقد كان من المتوكلين] فقال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فكان الخواص^(٥) كان في تصحيح المقام الثالث، فطالبه بالمقام الرابع^(٦).

(١) اقرأ بعد هذا قول الله تعالى ﴿مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وأهم شيء هو توحيد الله في ربوبيته وإلهيته، ولكن الغزالي يزعم أن حقيقة التوحيد الحق لا يجوز أن تسطر في كتاب، وهذا معناه أنها ليست في كتاب الله، وأنه لا يعرفها أحد إلا الصوفية أرباب الكشف!!

(٢) هذا معناه أنه هو وأمثاله من الصوفية يعرفون أسرار الربوبية، غير أنهم يضمنون بها على الكتب، وأن للمسلمين جميعاً لا يعرفون حقيقة التوحيد!! ومعناه مرة أخرى: أن كتاب الله ليس فيه الحق من التوحيد!!

(٣) بهذا الهراء يستدل الغزالي على الوحدة بين الخلق والخالق، ويحتم علينا الإيمان به!! كنا نحب أن يأتيها بآية من كتاب الله، أو إثارة من فكر صحيح وبرهان عقلي، بيد أنه لجأ إلى الخيال السقيم يشبه الوحدة بين الله وعباده بالوحدة بين الإنسان وأعضائه!!

(٤) صلب سنة ٣٠٩ هـ لثبوت زندقته.

(٥) إبراهيم بن إسماعيل أبو إسحاق الخواص مات سنة ٢٩١ هـ.

(٦) كل النصوص التي ذكرتها من كتاب «الإحياء» للغزالي جزء من ص ٢١٢ وما بعدها ط دار الكتب العربية. وعجيب أن يمجّد الغزالي الحلاج، وهو يعلم أنه قاتل هذه الآيات:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الشاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً في صورة الأكل والشارب

أرأيت إلى من صنَّمته الصوفية باللقب الفخم الضخم؛ لتفتن به المسلمين عن هدي الله؟! أرأيت إلى الغزالي يدين بوحدة الوجود، أو الشهود؟! سَمَّها بما شئت، فعند الكفر تلتقي الاسطورتان، لا تقل: إن وحدة الوجود أنشودة من البداية ووحدة الشهود أغرودة عند النهاية، فكلتاها بدعة صوفية بُيِّد أنها غايرت بين الاسمين، وخالفت بين اللونين، ولكن البصر البصير لا يخدعه اسم الشهد سمي به السم الناقع!!

كلتاها زعاف^[١] الرقطاء^[٢]، غير أن واحدة منهما في كأس من زجاج، والأخرى، في كأس من ذهب!!

ولقد فضح الغزالي سره حين تمثل في إعجاب بتوحيد الحلاج، وهذا وحده كاف في إدانة الغزالي بالحلاجية، ولقد علمت ما هي!!

رأي في الغزالي

ولقد فطن إلى حقيقة دين الغزالي المستشرق نيكلسون، وإلى أنه النافث لجرثومة الصوفية، فقال: «إن الغزالي أوسع المجال لبعض صوفية وحدة الوجود أمثال ابن عربي وغير هؤلاء من طوائف الصوفية الذين كانوا إخواناً في ذلك

حتى لقد عاينه خلقه
كلحظة الحاجب بالحاجب
* * *
مُرَجَّتْ رُوحُكَ فِي رُوحِي كَمَا
تُمَزَّجُ الْخَمْسَةُ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ
فَإِذَا مَسَّكَ شَيْءٌ مَسْنِي
فَإِذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُلِّ حَالٍ

«الطواسين» للحلاج ص ١٣٠، ١٣٢. عجيب أن يمجّد الغزالي صوفياً يزعم أن الله أكل شارب، يحب الحياة ويخاف الموت، ويمحقه العدم ويقتله الحزن، وتزل به الشهوات، لأنه عين خلقه!! ألم يمجّد الغزالي من المؤمنين من يتمثل به في بلوغ أسنى مراتب التوحيد؟ ألم يعطفه توحيد أبي بكر وعمر، فينصرف عنهما إلى تمجيد زندقة الحلاج!!

[١] «الزعاف»: يقال (سم زعاف) : سريع القتل، وموت (زعاف) : سريع.

[٢] «الرقطاء»: ضرب من الحيات.

الدين الحر بكل ما للكلمة الدين الحر من معنى^(١) « ولقد كنا نحب أن يظن إلى ذلك بعض من يمجّدون الغزالي، كما فطن إليه ذلك المستشرق المسيحي^(٢) !! ويقول جولدزيهير: « وابن عربي الذي أشرنا من قبل إلى تأثيره بالغزالي يخضع تفسيره الذي نحاه فيه منحى التأويل إخضاعاً تاماً لوجهة النظر التي أخذ بها الغزالي! »^(٣) » ويقول: « خلص الغزالي الصوفية من عزلتها التي ألفاها عليها، وأنقذها من انفصالها عن الديانة الرسمية، وجعل منها عنصراً مألوفاً في الحياة الدينية، وفي الإسلام، ورغب في الاستعانة بالآراء والتعاليم المتعلقة بالتصوف، لكي ينفث في المظاهر الدينية الجامدة « كذا!! » .. قوة روحية^(٤) »^[٥] » ويقول: « إن الغزالي رفع من شأن الآراء الصوفية، وجعلها من العوامل الفعالة في الحياة الدينية في الإسلام^(٦) » وهكذا لم يعمل الغزالي للإسلام بل للصوفية، وبعد أن كان المسلمون على حذر من سمها، وفي انفصال تام عنها حملهم بسحرياته على أن يعتنقوا أساطيرها، ويقول كارل بكر: « ولقد سادت روح « الغنوص » فرق صدر الإسلام كلها، ثم سادت التصوف الذي كان يعد في البدء بدعة خارجة عن الدين، ولكنه أصبح بفضل الغزالي خالياً من السم معترفاً به من أهل السنة^(٧) » هذا هو خطر الغزالي !! صور التصوف للمسلمين رحيماً خالياً من السم، فترشقوه، ففتك بهم.

(١) ص ١٠٤ « في التصوف الإسلامي » ترجمة الدكتور عفيفي.

(٢) سبقه إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه، فكشف كشفاً صريحاً مؤيداً بالنصوص الفاطمية عن صوفية الغزالي وإن كان لم يستشهد بتلك النصوص التي نقلتها من الإحياء فيما قرأت لشيخ الإسلام.

(٣) ص ٢٥٩ « مذاهب التفسير » لجولد زيهير.

(٤) ص ١٥٩ « العقيدة والشرعة » لجولد زيهير.

[٥] كان الأولى الاستشهاد بأقوال علماء مسلمين، لاسيما وقد تكلم في الغزالي كثيرون كابن العربي المالكي تلميذه وشيخ الإسلام والذهبي وغيرهم، ولا شك في علو كعب شيخ الإسلام وفضله وعلمه، فضلاً عن أنه مسلم، وهو الأصل الذي يعتمد في الجرح والتعديل، وأدري بالإسلام من هؤلاء، أما جولدزيهير اليهودي المتعصب، فهو يتكلم من وجهة نظره حيث ظن - ويظن كثيرون مثله - أن عقيدة الصوفية تعني القوة الروحية؟ وبدونها تصبح تعاليم الإسلام جامدة انظر « المدخل » ص (٣٥).

(٦) ص ١٦١ « نفس المصدر ».

(٧) ص ١٠ « التراث اليوناني » ترجمة الدكتور بدوي.

رأى في خطر وحدة الوجود

يقول «نيكلسون»: «إن الإسلام يفقد كل معناه، ويصبح اسماً على غير مسمى، لو أن عقيدة التوحيد المعبر عنها بـ «لا إله إلا الله» أصبح المراد بها: لا موجود على الحقيقة إلا الله. وواضح أن الاعتراف بوحدة الوجود في صورتها المجردة قضاء تام على كل معالم الدين المنزل، ومحوً لهذه المعالم محوً كاملاً، حقيقة ساطعة، يقرها مسيحي^[١]، ويكفر بها شيوخ كبار يزعمون أنهم أحناب الدين وأئمة!! وهل المقام الرابع للتوحيد في دين الغزالي إلا مقام القائلين «لا موجود إلا الله»؟ بل إنها لتسيحة الصوفية في العشايا والأبكار!! وإني لعلی بينة من أني بهذا الحق الذي أشهد به، أثير نائرة الكبار من الشيوخ، فكتاب «الإحياء» قرأنهم الأول، وبما يهرف الغزالي فيه، يؤولون كتاب الله، ويحرفون آياته، وفي وجه الحق من هدي الله يرفعون ضلالة الأساطير من «الإحياء» وخرافة الأوهام من «المشكاة»!!

ولكنني أصرخ بالحق في وجوه الشائرين: رؤيدكم!! فما نؤله من دون الله أحداً، وما نتخذ كتاباً يهدينا غير كتابه، ولا قدوة غير رسوله ﷺ، ولا نسجد لصنم، ولا ننطق بطاغوت، وإن يكن هو الغزالي، أو كتبه^(٢)!!

دندنة الغزالي بوحدة الوجود

يقول: «العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة، اتفقوا على أنهم لم يروا

[١] لا يجوز إطلاق اسم «موجود» على الله لوجهين: الأول: أن أسماء الله توقيفية تتلقى من الكتاب والسنة واسم «موجود» ليس فيهما. الآخر: أن اسم «موجود» اسم مفعول من أوجد الشيء فالشيء «موجود» وهذا يستحيل على الله - تعالى -، فالله واجدٌ للأشياء. وأما تعبير علماء الإسلام في تفسير «لا إله إلا الله» وهو «لا معبود بحق إلا الله» أما هذا النصراني فلا يحسن الظن به ولا بأمثاله وهم لا يفقهون شيئاً في ديننا، فتنه!

(٢) يحاول السبكي في كتابه طبقات الشافعية تبرئة ساحة الغزالي بزعمه أنه اشتغل في أخريات أيامه بالكتاب والسنة، ونحن نسأل الله أن يكون ذلك حقاً، ولكن لا بد من تحذير المسلمين جميعاً من تراث الغزالي، فكل ماله من كتب في أيديهم تراث صومعي، ولم يترك لنا في أخريات أيامه كتاباً يدل على أنه اشتغل بالكتاب والسنة.

في الوجود إلا الواحد الحق، لكن منهم من كان له هذه الحالة عرفاناً علمياً^(١) ومنهم من صار له [حالة ذوقياً]^(٢)، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية، واستغرقوا بالقرذانية المحضة [واستوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه ولم يبق فيهم متسع لا لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضاً]، [فلم يكن] عندهم إلا الله، فسكروا سكرًا، [دفع] دونه سلطان عقولهم، فقال [أحدهم]: أنا الحق^(٣)!. وقال الآخر: سبحاني!. ما أعظم شائي^(٤)! وقال [آخر]: ما في الجبة إلا الله^(٥) وكلام العشاق في حال السكر، يطوى، ولا يُحكى^(٦)!، فلما خف عنهم سكرهم، وردوا إلى سلطان العقل [الذي هو ميزان الله في أرضه]، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل [شبه] الاتحاد، مثل قول العاشق في حال فرط [عشقه]:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا^(٧)

وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق فيها بلسان المجاز: اتحادًا، ويلسان الحقيقة توحيدًا. ووراء هذه الحقائق أسرار [أيضا] [يطول] الخوض فيها^(٨)، توحيد من؟؟؟ أتوحيد الرسول ﷺ، أم توحيد البررة الأخيار من أصحابه؟ أجيبوا يا ضحايا الغزالي وسدنة الأصنام من كتبه؟

(١) أي وصل إليها عن طريق الدليل والبرهان.

(٢) أي وصل إليها عن طريق الكشف والإلهام.

(٣) قالها طيفور البسطامي.

(٤) قالها طيفور البسطامي.

(٥) قالها الحلّاج.

(٦) يصف الغزالي هذه المحوسية الصوفية بأنها هتافات أرواح سكرت بعشق الله، ولم يجد الغزالي ما ينقد به هذه الصوفية - إن عدته نقداً - سوى قوله: وكلام العشاق يطوى ولا يحكى!! ولكن ما حكم الله يا غزالي؟ لا يجب!!، ولكنه حكم من قبل بأن ذلك أسمى مراتب التوحيد!!

(٧) البيت للحلاج وانظر ص ٣٤ طواسين، والبيت الذي بعده.

فإذا أبصرتني، أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

والغزالي يعرف أن ذلك للحلاج غير أنه ينسب على شيطان وحيه، والحلاج حلولي يؤمن بشائية الحقيقة الإلهية، فيزعم أن الإله: له وجهان، أو طبيعتان هما: اللاهوت والناسوت، وقد حل الأول في الآخر. فروح الإنسان هي لاهوت الحقيقة الإلهية، وبدنه ناسوته. فإذا كان الغزالي قد رفض القول بالاتحاد، ودان بما يشبهه، فقد آمن بما هو أخبث منه، وهو الحلول. بدليل استشهاده بالبيت الذي عبر به الحلّاج عن حلوليته!!

(٨) ص ١٢٢ «مشكاة الأنوار» للغزالي ط ١٩٣٤ م.

زمزمات بالوحدة

وأصيخ إلى زمزمات الغزالي بأسطورة الوحدة: «الكل، [بل هو الكل]، بل هو لا هوية^(١) لغيره إلا بالهجاز، فإذن لا نور إلا [نوره]، وسائر الأنوار أنوار من [الذي يليه لا من ذاته]، فَوَجْهُ كُلِّ [ذي وجه] ومَوْلُ شطره ﴿أينما تَوَلَّوْا، فَوَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، فإذن لا إله إلا هو، فإن الإله عبارة عما الوجوه مولية نحوه بالعبادة، و [التأله]، أعني وجوه القلوب، فإنها الأنوار، بل كما لا إله إلا هو، فلا هو إلا هو، [لأن] «هو»: عبارة عما إليه [إشارة]، وكيفما كان، [ولا] إشارة [إليه]^(٢)، بل كلما أشرت [إليه] فهو بالحقيقة [إشارة] إليه «يفتري أن كل هوية في الوجود، هي عين هوية الله سبحانه، أي حقيقته!، ولذا لا يمكن أن تقع إشارة ما إلا عليه!، فإن أشرت إلي صنم، أو ميت، فكلتا إشارتيك واقعة على رب الغزالي، ولم لا؟ وماهية الصنم أو حقيقته هي عين ماهية الرب الغزالي.

تلك هي الأسطورة التي ابتدعها الغزالي، ووصى بها كهنة الصوفية من بعده!! وإليك هينمة الموبذان بخرافة الوحدة مرة أخرى: «لا إله إلا الله» توحيد العوام! «ولا هو إلا هو» توحيد الخواص^(٣)! [لأن هذا أتم] وأخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه في الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة،

(١) الهوية عند الصوفية هي: الحقيقة الباطنة للذات الإلهية، أو هي الذات قبل التعين في مادة، يزعم بهذا أن كل ما تحقق من إثبات الوجود، فباطنها هوية الله!!.

(٢) ص ١٢٤ «مشكاة الأنوار» للغزالي. وتلك هي الطامة الغزالية؛ إذ يزعم أنك مهما أشرت إلى شيء ما، فأشارتك في الحقيقة واقعة على الله؛ لأنه عين ذلك الشيء المشار إليه!!

(٣) يزعم أن الإيمان بما توجهه كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هو توحيد العوام!! لأنه يثبت لله وحده الربوبية والإلهية، وينفيهما عن غيره. ويثبت بالتالي وجود خلاق وخلق، وفي هذا، أي في إثبات وجودين، أو موجودين يغاير أحدهما الآخر ثنائية تناقض صرافة الوحدة، وهذا شرك عند الصوفية وكاهنهم. ولذا يبهت «لا إله إلا الله» بأنها توحيد العوام. يبهتها بذلك، وهي توحيد الرسل جميعاً!! أما توحيد الخواص عنده، فكلمته «لا هو إلا هو» لأنها تثبت وجوداً واحداً، وتنفي الغيرية والكثرة والتعدد، تثبت موجوداً واحداً تنوعت مظاهره، فسميت خلقاً، وتنفي للغايرة بين من سميهم الخلق وبين من نسميه الخلاق!! وتثبت أن وجود الأول عين وجود الثاني، فكما أنه لا وجود إلا وجوده، فكذلك لا ذات إلا ذاته، أما تلك الكثرة الوهمية في الذوات، فيؤمن بها عمى القلوب!! هذا دين الغزالي.

ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية، فليس وراء ذلك [مرقى]! إذ [الترقي] لا يتصور إلا بكثرة، فإنه نوع إضافة يستدعي ما منه الارتقاء، وما إليه الارتقاء، وإذا ارتفعت الكثرة، حققت الوحدة، وبطلت الإضافة، وطاحت الإشارة، فلم يبق علو، [وسفل^(١)]، ونازل، ومرتفع]، فاستحال الترقّي، واستحال العروج، فليس وراء الأعلى علوّ ولا مع الوحدة كثرة، ولا مع انقضاء الكثرة عروج، [فإن كان من تغير حال]، فالنزول إلى [سما] الدنيا، أعني [بالإشراف] من علو إلى أسفل، لأن الأعلى - [له أسفل وليس له أعلى]، وهو من العلم الذي هو [كهيئة] المكنون الذي لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به، لم ينكره إلا أهل الغرّة بالله^(٢).

ثم يتابع الغزالي الحديث عن الله، فيقول: «له نزول إلى [السما] الدنيا [فإن] ذلك هو نزوله إلى استعمال الحواس، [أو] تحريك الأعضاء، وإليه الإشارة بقوله: «صرت سمعه» الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به»^(٣).

(١) استعمل نفس هذا التعبير العطار الصوفي في «تذكرة الأولياء» ج ٢ ص ٢١٦.

(٢) ص ١٢٥ «المصدر السابق»، وأقول: إن الله سبحانه أخبر أنه استوى على عرشه، وأن الملائكة تعرج إليه، وأن العمل الصالح يرفعه إليه ولكن الغزالي أبى إلا أن يرفع في وجه الحق وفي حرمه أصنامة هو، فزعم استحالة العروج، ونفاه نفيًا باتًا، لكيلا يتناقض مع ما يدين به من الوحدة المحضة، فالقول بعروج أحد إلى الله إثبات للتعدد أو للكثرة أو للغيرية، إذ يستلزم وجود من منه العروج ووجود من إليه العروج، وهذه ثنائية تنقض أو تنافض الوحدة التي يؤمن بها الغزالي، وحدة الوجود، فإذا قيل بعروج ما، فالقول به مجازي محض، إذ العروج، هو من الذات الإلهية نفسها بنفسها إلى نفسها، فالذي منه العروج عين من إليه العروج، وإذا ما قيل: نازل أو صاعد، فالنازل هو الصاعد إذ هما ذات واحدة، والنزول عين الصعود، إذ هما وصفان متحدان في الحقيقة؛ مختلفان بالاعتبار، توصف بهما ذات واحدة في حال واحدة في آن واحد هي الذات الإلهية. فالملائكة الذين يرجون إلى الله «فَرَجُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ» [المعارج: ٤] هم عين الذات الإلهية في أسماء أخرى لها. والعمل الصالح الذي يرفعه الله إليه، هو عين الذات الإلهية في وصف آخر لها، وإلا قلت بالكثرة والتعدد، وبأن الله غير الخلق!! هذا دين الغزالي فتدبره، وثمت يلفاك ابن عربي بما تعرفه منه، ولكن باسم جديد، وزى ساحر، ولقب كبير خادع.

[٣] قال شيخ الإسلام: «هذا الحديث يحتاج به أهل الوحدة وهو حجة عليهم من وجوه كثيرة: منها: أنه قال: «من عادي لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة» فأنبت نفسه ووليه ومعادي وليه، وهؤلاء ثلاثة، ثم قال: «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» فأنبت عبداً يتقرب إليه بالفرائض ثم بالنوافل، وأنه لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يحبه، فإذا أحبه، كان العبد يسمع به، ويبصر به، ويبطش به، ويمشي به.

[فإذا كان هو سمعه وبصره ولسانه] فهو السامع والباصر والناطق إذن لا غيره^(١) » والجملة الأخيرة وحدها صريحة في الكشف عن إيمان الغزالي بالوحدة بين الحق والخلق؛ إذ يقرر أن كل سامع وباصر وناطق هو الله! وما إخال مسلماً يلمح إيماضاً من الحق في تلك الأوهام، ولا شعاعة من التوحيد في تلك الأمشاج^[٢] الغزالية، وإنما يحس بِيَحْمُوم^[٣] الوحدة الصوفية، يطغى بسواده هنا، وهناك، ويخفق الأنفاس حتى تحتضرا! ولقد شعر الغزالي بما في مفترياته من شطط متجانف^[٤] لإثم، فخاف على باطله أن يقذف عليه بالحق أهله، فوصف المنكرين لاساطيره بأنهم: أهل غرة! وَمَنْ أهل الغرة؟ إنهم الذين يدينون دين الحق من القرآن، ويكفرون بأساطير الغزالي! ليكن يا كاهن الصوفية! فما أنت الذي نعرف منه فيصل التفرقة بين الكفر والزندقة - كما سميت كتاباً لك - وإنما نعرف ذلك من كتاب الله الذي يدينك، ويحكم عليك بما يصعق عابديك وكهان دينك^(٥)!



= هؤلاء هو عندهم قبل أن يتقرب بالنوافل، وبعده هو عين العبد وعين غيره من المخلوقات فهو بطنه وفخذه، لا يبخسون ذلك بالأعضاء الأربعة المذكورة في الحديث، فالحديث محصور بحال مقيد، وهم يقولون بالإطلاق والتعميم، فابن هذا من هذا! ١٩١٠ هـ. (مجموع الفتاوى ٢/ ٢١٥)، والحديث «صرت سمعه...» رواه البخاري (٦١٣٧) وليس فيه «ولسانه الذي يطق به»، وروى هذه الزيادة الطبراني في الكبير (٧٨٣٣)

(١) ص ١٢٥ المصدر السابق.

[٢] «الأمشاج»، جمع مشيج: وهو كل شيئين مختلفين، وتطلق أيضاً على الأوساح التي تجتمع في السرة.

[٣] «البحموم»: الشيء شديد الحرارة.

[٤] «متجانف» الإثم: مال إليه، أو مال عن الحق.

(٥) لا تعجب حين ترى الغزالي ينجح في دهاء إلى السلفية في بعض ما كتب، فللغزالي وجوه عدة كان يرثي بها صنوف الناس في عصره، فهو أشعري؛ لأن نظام الملك صاحب المدرسة النظامية أراد على ذلك، وهو عدو للفلسفة، لأن الجماهير على تلك العداوة، وهو متكلم، ولكنه يتراءى بعداوته للكلاميين اتقاء غضب الخنابلة، أما هو في كتبه «المضنون بها على غير أهلها» فصوفي إشرافي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وفي كتبه الأخرى تجمده أشعرياً تارة، وسلفياً مشوباً بأشعرية تارة أخرى. وهكذا كان يلقي كل/فريق بالوجه الذي يعرف أنهم يحبونه، لا يهمه أكان وجه حق، أم وجه باطل!!

أصنام صغيرة

إله ابن عامر البصري (١)

ولكيلا ترتاب في أن ما ذكرته لك هو دين الصوفية جميعاً من سلفهم إلى خلفهم ومعاصريهم، أذكر لك دين بعض أصنامهم الصغيرة، فاسمع إلى ابن عامر في تائيته التي عارض بها تائية ابن الفارض، وزناً وقافية، ولطخها بنفس الزندقة الفارضية!

تجلى لي المحبوب من كل وجهة فشاهدته في كل معنى وصورة
وخاطبني مني بكشف سرائر تعالت عن الأغيار (٢) لطفاً، وجلّت
فقال: أتدري من أنا؟ قلت: أنت يا منادي أنا؛ إذ كنت أنت حقيقتي (٣)

بهذا بدأ ابن عامر قصيدته، فكان صريح الزندقة فيها!

نظرت، فلم أبصر سوى محض وحدة بغير شريك، قد تغطت بكثرة
تكثر الأشياء، والكل واحد صفات وذات ضُمنا في هوية (٤)

ويظل الصوفي يهوي حتى يبلغ القرار السحيق من وحدة الوجود.

فانت أنا لا، بل: أنا أنت (٥). وحدة مُنزّهة عن كل غير وشركة (٦)

إله الصدر القونوي (٧)

يقول في كتابه «مراتب الوجود»: «فإنسان هو الحق، وهو الذات، وهو

(١) عامر بن عامر أبو الفضل عز الدين توفي غالباً في أواخر القرن الثامن الهجري.

(٢) قول المسلم: تعالى الله عن شريك، أما قول الصوفي: تعالى الله عن الأغيار أي ما ثم غير له، إذ هو عين كل شيء!!.

(٣) [الآبيات (١-٣) من التائية.

(٤) [الآبيات (٥٠-٥١) من التائية.

(٥) يقول لربه: أنا أنت وانت أنا، وإليس في عتو جحوده وكفره قال لربه: «رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمْعُودُونَ» [الحجر: ٣٦] فلم يكفر اللعين كفر الصوفية، إذ أقر بربوبية الله. أما هم، فيبهتون وربوبية الله بأنها عبودية شائنة.

(٦) تائية ابن عامر بتحقيق الشيخ المغربي ط دمشق سنة ١٩٤٨م، والآبيات رقم (٥٠-٥١) من التائية.

(٧) محمد بن إسحاق توفي سنة ٦٧٣ هـ.

الصفات، وهو العرش، وهو الكرسي، وهو اللوح، وهو القلم، وهو الملك، وهو الجن، وهو السموات وكواكبها، وهو الأرضون وما فيها، وهو العالم الدنيوي، وهو العالم الآخروي، وهو الوجود، وما حواه، وهو الحق^(١)، وهو الخلق، وهو القديم، وهو الحادث^(٢) وإخال أنني أنتقص من فكرك، إن حاولت أنا أن أدلك على خطايا الوثنية في بداء القانوني.

إله النابلسي^(٣)

يقول معقبا على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] يقول: «أخبر تعالى أن نبيه محمداً ﷺ هو الله تعالى وتقدس وبيعته بيعة الله، ويده التي مدت للبيعة هي يد الله» ويفسر قول الله لموسى: ﴿وَأَنَا اخْشَرْتُكَ﴾ [طه: ١٣] بقوله: «بأن تكون أنا، وأكون أنا أنت»، ﴿فَاسْمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾: إليك مني، وهذا نظير حديث الإنسان الغافل لنفسه، يحدثها وتحديثه ويفسر قوله سبحانه لموسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] بقوله: «أي ذاتي ف أظهر بك، وتغيب أنت، وتظهر أنت، وأغيب أنا، وما هما اثنان، بل عين واحدة»^(٤) وما ألمس من بهتان مُسِفٍ^[٥] في فجور الزور، وقحة الكذب؛ كبهتان النابلسي يزعم أن الصوفية تعتد بالكتاب والسنة في إيمانهم بوحدة الوجود؛ إذ يقول «إن عمدتنا وعدتنا هو التمسك بالقرآن العظيم وسنة [نبي الله] الكريم في معرفتنا بربنا وإطلاق ما أطلقه على نفسه في كلامه القديم، وما أطلقه عليه نبيه البر الرحيم»^(٦) لم يقنع بالكفر السفیه

(١) أذكرك بأن الصوفية يعنون بالحق الله سبحانه، أو هو الحقيقة الإلهية قبل تجليها في صور خلقية.

(٢) من كتاب «مراتب الوجود» مخطوط بالظاهرة بدمشق رقم ٥٨٩٥ عام «نقلاً عن الإنسان الكامل ص ١١٥ للدكتور بدوي».

(٣) عبد الغني بن إسماعيل النابلسي توفي سنة ١١٤٣ هـ.

(٤) عن رسالة اسمها «حكم شطح الولي» للنابلسي مخطوطة بالظاهرة بدمشق رقم ٤٠٠٨ نقلاً عن كتاب «شطحات الصوفية» ص ١٥٣ للدكتور بدوي.

(٥) «سفا» فلان: طلب الدنيء من الأمور.

(٦) نفس المصدر وبمثل هذا الرباء يخدع الصوفية المسلمين عن دينهم، إذ يلونون الباطل بلون من الحق، ليكرهوا به، وحق ما يقول جولدزهر: «كان التصوف خصوصاً هو الذي عني بتصوير كثير من الأفكار الأفلاطونية المحدثة والغنوصية في صورة إسلامية، فمن دوائر التصوف صدر الكثير من الأحاديث الموضوعة التي قصد بها إلى تبرير قواعد التصوف» ويقول: «كل تيار فكري في مجرى التاريخ الإسلامي زاول =

وحده، فاضاف إليه بهتاناً دنيئاً؛ إذ يزعم أن كتاب الله هو عذته في التمسك بوحدة الوجود، ويقيني أنك لو قرأت الفقرة الأخيرة، وأنت غافل عن عقيدة النابلسي، لايقنت أنه مؤمن فاض بنور الحق قلبه، وهكذا كل صوفي يلبس لكل حال لبوسها، ويعطيك جانباً منه يرضيك، حتى إذا سكنت إليه ختلك، فقتلك!

بل هكذا كل نحلة تثير على كتاب الله حرب أضغانها، فهي لا تستعلن بتكذيب الله في وحيه، وإنما تزعم - لتفنع الناس عن دينهم الحق - أنها تقدسه ولكنها - وهي مقنعة الأهداف بريائها الخاتل - تضع لألفاظ القرآن معان ما أنزل الله بها من سلطان، وليست لها صلة ما بألفاظها، اللهم إلا حين تزعم أن الكفر معناه الإيمان، وأن الباطل هو روح الحق! ولهذا تجد تكذيبها لله شر وأخبث أنواع التكذيب، وما البهائية في تحنث كفرها أو القاديانية في مكر دعوتها إلا دليل صدق على ما أقول، فكلتاها تفتري أنها تؤمن بكتاب الله ورسوله! وكلتاها عدو ألد الخصام لله، ولرسله، ولكتبه.

إله ابن بشيش^(١)

للورد الذي افتراه ابن بشيش سحر الأمل، استهل بعد يأس في مشاعر الصوفية، ورقة البشائر تأسو الدموع وجراح الأحزان، إذ يروونه - على اختلاف طرائقهم - وحيا ينفخ قداسة وربانية، وصلاة يخشع بها سجد الملائك، وتسابيح ترتلها الحور في خمائل الفردوس!

وإليك هذا الورد الذي يضرع به الصوفية في معابد الأصنام كلما قبل السحر جبين الليل! «اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق» همسات غير خافتة بأسطورة الحقيقة المحمدية الصوفية، بيد أن هذه الهمسات تعلو رويداً رويداً حتى تحول صريخاً وفحيحاً^(٢) في قوله: «ولا شيء إلا وهو به منوط؛ إذ لولا الواسطة، لذهب كما قيل المتوسط،

= الاتجاه إلى تصحيح نفسه على النص سنداً له على موافقته للإسلام ومطابقته لما جاء به الرسول، وبهذا وحده كان يستطيع أن يدعي لنفسه مقاماً وسط هذا النظام الديني وأن يحتفظ بهذا المقام» انظر ص ٢١٨ التراث اليوناني، لبدوي وص ٣ «مذاهب التفسير» لجولد زهر.

(١) عبد السلام بن بشيش أو مشيش من كبار شيوخ الشاذلية [صحب أبا الحسن الشاذلي].

(٢) «الفحيح»: صوت الأفاعي من فيها.

اللهم إنه سرُّك الجامع الدالُّ عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك» ثم تُجَنُّ لهفته، فيهرول مجنون الخطي إلى هتك الستر عن معتقده، فيضرع إلى الله بهذه الصوفية الملحدة «وَزُجُّ بي في بحار الأحدية»^(١) وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقي في عين بحر الوحدة، حتى لا أرى، ولا أسمع، ولا أجد، ولا أحس إلا بها». أرايت إلى الصوفية تحت غلائل السَّحَرِ الوَرْدِيَّةِ، والليل ساجي السكون لا تسمع فيه سوى رفيف^[٢] أجنحة الرؤى، وهمسات الأحلام، والكون في فيض الجمال الغامر، والبهاء الساحر يثير في القلب المؤمن أزكي مشاعر الإيمان والحب للخلق البديع، فيسجد لله في عبودية خالصة، في هذه الجلوات الروحية، وفي تلك المجالي حيث يتالق نور الجمال، ويهمس الليل بنجوى الوداع في سمع الفجر يضرع الصوفية إلى الله أن ينشلهم من أوحال التوحيد ١٢٢

إله الدمر داش^(٣)

يقول:

لقد كنتُ دهرًا قبل أن يُكشَفَ الغَطَا
إِخَالُكُ أَنِي ذَاكَرُكَ شَاكَرُ
فلما أضاء الليل أصبحتُ شاهدًا
بأنك مذكور وأنت ذاكر^(٤)

حتى هذه الزعنفة التائهة تزعم أن الغطاء كُشِفَ عنها فرائت أنها هي الله!!
واسمع إليها تقول:

(١) الأحدية «هي مجلى الذات ليس للأسماء، ولا للصفات، ولا لشيء من مؤثراتها فيه ظهور، فهي اسم لصرافة الذات المجردة عن الاعتبار الحقية والخلقية، وليس لتجلي الأحدية في الاكوان مظهر أتم منك إذا استغرقت في ذاتك، ونسيت اعتباراتك، وهو أول تنزلات الذات من ظلمة العماء إلى نور المجالي، وهذه الأحدية في لسان العموم هي [عين] الكثرة المتنوعة» هذه هي الأحدية عند الصوفية انظر ص ٣٠ ج١ «الإنسان الكامل للجلي».

[٢] «الرفيف»: صوت النبات عندما يهتز خضرة وتلاؤا.

(٣) هو محمد الدمر داش الحمدي توفي سنة ٩٢٩ هـ.

(٤) ص ١٦ «القول الفريد للدمر داش» ط ١٣٤٨ هـ.

هو الواحد الموجود في الكل وحده

سوى أنه في الوهم سُمِّيَ بالسَّوَى^(١)

والكل هنا نعم الشيئية المطلقة^[٢] في عمومها وشمولها، فما ثم إذن عنده من شيء يدركه الحس، أو يتخيله الوهم، أو تطيش به الغريزة إلا وهو عين الله ذاتاً وصفة!! غير أن الوهم هو الذي حال بين العقول وبين إدراك هذه الحقيقة، فظننت أن هذه الكائنات المحسَّة، وتلك الصور الذهنية شيء آخر غير الله! ولذا يقول: «فلا وجود سوى الله، والغير وهم وخيال»^(٣).

إله ابن عجيبة^(٤)

وهذا الذي تجرَّع الفاطمية الخبيثة ينقل في شرحه لحكم ابن عطاء الله هذه

الآيات:

أَرْبٌ، وَعَبْدٌ، وَنَفْيٌ ضِدٌّ؟	قلست له: ليس ذاك عندي
فقال: ما عندكم؟، فقلنا	وجودٌ فَقْدٌ، وَقَدْ وَجَدَ
توحيدٌ حَقٌّ بِتَرْكِ حَقٍّ	وليس حَقٌّ سِوَايَ وَحْدِي

ويشرحها بقوله: «و[معنى كلام الشاعر] الإنكار على من أثبت الفرق، بأن جعل للعبودية محلاً مستقلاً منفصلاً عن أسرار معاني الربوبية، قائماً بنفسه، ولا شك أن العبودية تضاد أوصاف الربوبية على هذا الفرق، وأنت تقول في توحيد الحق: لا ضد له، فقد نقضت كلامك؛ ولذلك قال: ونفي ضد؟! فالواو بمعنى: مع، وهو داخل في الإنكار، أي: أيوجد رب. وعبد [مستقل]، مع نفي الضد للربوبية، والعبودية تضاد أوصاف الربوبية!؟ والحق أن الحق تعالى تجلّى بمظاهر الجمع في قوالب الفرق، [و] ظهر بعظمة الربوبية

(١) ص ١٤ «المصدر السابق».

[٢] أي نعم كل شيء على الإطلاق.

(٣) ص ١٤ «المصدر السابق».

(٤) أحمد بن عجيبة الإدريسي الفاسي نسبة إلى فاس بالمغرب توفي في منتصف القرن الثالث عشر الهجري.

في إظهار قوالب العبودية، فلا شيء، معه^(١) يريد الفاطمي الخبيث أن يقول: نحن نؤمن بأن الربوبية لا ضد لها، فإذا آمنا بوجود عبودية تغاير الربوبية في الذات والصفات، فقد تناقضنا ونقضنا ما قلناه، فالذي ينبغي الإيمان به هو الوحدة المطلقة، هو أن العبد عينُ الرب حتى لا تناقض قولنا: إن الرب لا ضدَّ له^(٢).

وحسبك هذا من ذلك العِلَج^[٣] الفاطمي. !
إله حسن رضوان^(٤)

يقول في منظومته الكبرى «روض القلوب»:

فليس في الوجود شيء يشهد	سواه، فالأشياء به تُوحَّد
والكثرة الموجودة الموهومة	في ذاتها بوحدة معدومة
والحق في الأشياء جميعاً ظاهر	وسرُّه قامت به المظاهر
وكل ذرة من الذرات	تنبئ بأن الكل عين الذات
فوحدة الوجود لا تفارق	شيئاً، ولكن يستفاد الفارق ^[٥]
فبالحدوث والفناء يوصف	إذن، ولا يضر إذ يُعرف ^(٦)

ثم يبشر سالك الطريق الصوفي بقوله:

ولا يزال نوره يزيّد	حتى لديه يكمل التوحيد
وسر وحدة الوجود ينكشف	لعينه، ومنه ذوقاً يرتشف
فَتَضْمَحِلُّ الكثرة المشهودة	له بنور الوحدة المقصودة
فلا يرى بعينه الموحَّدة	في الكون شيئاً غير ذات واحدة ^(٧)

(١) ص ٢٠٩ وما بعده يلاحظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة.

(٢) يقول جولد زيهري: «عند الصوفية إلى إقحام آرائهم في القرآن والحديث بطريق التاويل، وهكذا ورثوا الإسلام تركة فيلون» ص ١٤٠ العقيدة والشرعية.

[٣] العِلَج: الواحد من كفار الأعاجم. (٤) توفي سنة ١٣١٠ هـ أي منذ نصف وستين عاماً..

[٥] ما بين هذا البيت والذي ذكره المؤلف عشرة أبيات تبتدئ بقول المدعو حسن رضوان:

فلوجود الحق يثبت القدم ويستحيل ضده ثم العدم

(٦) ص ٢٦٩ «روض القلوب المستطاب» ط ١٣٢٢ هـ. (٧) ص ١١٥ «المصدر السابق».

من بواكير الزندقة

وأصح^[١] يا سماحة الشيخ إلى فحيح الزندقة ينفث سمها الأول طيفور البسطامي أبو يزيد^[٢]: «خرجت من الله إلى الله، حتى صاح مني في: يا من أنا أنت^(٣)، وإليه «سبحاني ما أعظم شاني»!^(٤).

أرأيت إلى الأصنام الصغيرة. تدين بدين أمها الكبيرة؟!.

تأليه الحيوان النجس

هأنذا شرقت وغربت، وياسرت، ويامنت مع الصوفية أحراراً وكهاناً، قدامى ومحدثين، ونقلت عن سلفهم، وسجل ماضيهم وحاضرهم، نقلت ما يدينون به في أمانة لم يجتج بها عن قدسها غل ولا حقد ولا غضب، نقلت هذا كله؛ ليؤمن من لا يزال علي فكره وقلبه غشاوة من سحر الصوفية، أن الصوفية – قديماً وحديثاً في النصرانية، وفي اليهودية، وفي دين من خدعوك بأنهم مسلمون – تؤمن بأن هذا الكون كله، حتى جيفه ورّمه وخنازيره، وكلابه ما هو إلا حقيقة الرب الأعظم «هوية وإنية»؛ ولذا ينقل محمد بهاء الدين عن زعيم صوفي قوله:

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة^(٥)

وناقل هذا صوفي يتمثل بهذا البيت الصوفي في روعة الحب الخاشع، ليكشف لك عن روحانية الجمال الصوفي!.

هذه هي الصوفية في كتابها، فماذا ترى؟ تؤمن بأن الله هو عين خلقه، ويأن الماخور عرّدت فيه الأبالسة، عين المسجد تبتلت فيه الرسل!، وأن الوثنية

[١] «صح»: يصحّه: صاح بهم صيحة تصم الآذان.

[٢] هو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، توفي سنة (٢٦١ هـ)، نقل عنه كلام كثير فيه زندقة. انظر «السيرة» (١٠ / ٤٨١).

(٣) ص ١٦٠ ج ١ «تذكرة الأولياء». (٤) نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

(٥) «النفحات القدسية شرح الصلوات الإدريسية» ط ١٣١٤ هـ.

السامرية عين التوحيد الحق، وأن الحج إلى مَبَكى اليهود، أو «كَرْمل»^(١) البهائية عين الحج إلى بيت الله، وما والله رميت الصوفية بفرية، بل بما يدينون به، ويدعون إليه، ويحبون أن يُعرفوا به، فما رأي سماحة الشيخ الكبير؟^(٢).

نور من القرآن

وإشفافاً على الصوفية أن يجدوا مشقة في إِبصار الحق المتلالي، أذكرهم بهدي الله من كتابه الحق؛ ليعرف حقيقة النور من يخط في تيه الظلام، ويدرك الحق من دَوَّخه الباطل، وينعم بالتوحيد من شقى بالشرك، ولعل الصوفي الضليل يتخذ من التذكير بآيات الله منجاةً له، فيجعلها حكماً يصدع بالحق والعدالة في شأن الصوفية.

يقول رب العالمين: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥] ﴿إِنْ رِئُوكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴿[يونس: ٣-٤].

يقول سبحانه: إنه خالق السموات والأرض، فتقول الصوفية: لا، بل هو عين السموات والأرض، وما فيهن من دابة! ويقول سبحانه: إنه يدبر الأمر،

(١) حيث ثوت رمة الهالك ميرزا حسين علي الملقب ببهاء الله!!

(٢) قبل رأي الشيخ ننقل آراء بعض المستشرقين فيما جاء به الإسلام من التوحيد، فهذا عستاف لوبيون يقول - وهو يتحدث عن وحدة الوجود -: «إن الإسلام يختلف عن النصرانية، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، فالإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهيم على كل شيء، ولا تحف به الملائكة القديسون وغيرهم، وللإسلام وحده كل الفخار، بأنه أول دين أدخل التوحيد المحض، والإسلام وإدراكه سهل خال مما تراه في الأديان الأخرى، وبإياه الذوق السليم من المتناقضات والفوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله» ص ١٥٨ «حضارة العرب» ترجمة عادل زعير، ويقول سيديو: «من شأن مبدأ التوحيد الجليل الذي انتشر بين قوم وثنيين أن يضرر الحمية في النفس المتحمسة العالية، ويسود هذا المبدأ القرآن وإليه يعود إبداعه، ويبدو هذا التوحيد المحض جازماً تجاه علم اللاهوت الذي تورطت فيه الفرق النصرانية، بعد أن زاد عددها بفعل البدع» ص ٨٨ «تاريخ العرب العام» لسيديو ترجمة زعير ثم يقول في ص ٨٩ من الكتاب: «ومحمد إذ كان رسول الخالق بلغ أن الله لا ولد له، وإن إله الكون واحد، وأن الله مصدر كل قوة، وأن إلى الله مرد من لم يجيبوا دعوته، وهود محمد أن يجتذب الناس إلى عبادة خالق كل شيء، بغير واسطة».

فتصرخ الصوفية: مَيِّنْ^(١) وبهتان، فنحن الذين يدبرون الأمر له! ويقول الله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، فاعبدوه، فيضج كل طاغوت صوفي: لا: بل أنا الله لا إله إلا أنا! ويقول جل شأنه: ﴿إِلَهِهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، فتزعم الصوفية: إن معنى الرجوع هنا أن تعود الذات المتكثرة إلى وحدتها، فتعود حقًا، بعد أن كانت خلقًا!

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ (٤) أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ (٣) إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٤) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٥) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ (٥) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ (٦) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تَصَرَّفُونَ (٦)﴾ [الزمر: ٢-٦]

ويقول عز من قائل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ (٧) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (٩) وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١٠)﴾ [الشورى: ١٠، ١١]

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص: ١-٤].

[١] «الْمَيْن»: الكذب، وجمعه (ميون).

(٢) يقولون: أما نحن فنتخذهم معه!! وهل الشرك إلا هذا؟

(٣) يقولون: أما نحن فنندعوهم!! وهل الدعاء إلا العبادة، أو مخ العبادة؟

(٤) وتزعم الصوفية أن الكاذب الكفار هو الرب الأكبر في صورة كاذب كفار.

(٥) وتزعم الصوفية أن ربها هو ذلك الخلق المتطور في ظلمات ثلاث «الصماء، الأحادية، الواحدية».

(٦) ويزعم الجيلي أن له الملك في الدارين ويزعم معه كذلك الأخبار!!

(٧) وتقول الصوفية بل حكمه إلى كتب ابن عربي أو الغزالي أو ابن الفارض، ويقول غيرهم بل: إلى كتب المذاهب الأربعة.

(٨) وتزعم الصوفية أن الله هو الذي جعل نفسه أزواجًا، فبدأ حقًا في صورة خلق، أو إلها في صورة عبد!!

(٩) وتقول الصوفية كما ذكرت: بل هو عين كل شيء.

(١٠) وتقول الصوفية على لسان ابن عربي والغزالي وغيرهما: بل هو عين كل سميع، وعين كل بصير.

(١١) وتقول الصوفية: بل كل شيء هو له كفو إذ كل شيء في الوجود هو الذات الإلهية.

فاين أين من هذا التوحيد المشرق بالحق الأعظم، تلك الأساطير المجوسية التي ينق^[١] بها ابن عربي، وينعب^[٢] ابن الفارض، وينبح الجيلي، وتعوي^[٣] الصوفية^{١٩}.

وأها لشيوخ الصوفية الكبير، أيغار على الصوفية من مسلم يدعوهم إلى الإنابة إلى الله، ولا يغار على المسلمين مما تجنيه الصوفية عليهم، حتى لتكاد تزهر ما بقي فيهم من أرماق شاحبة واهنة^{١٩}.

أيغار على تلك الأساطير، فيشكو إلى النيابة مسلماً، يحذر المسلمين من التردّي فيها؛ ثم لا يغار على الإسلام تكيد له كهنة الصوفية، وتآلو - وعلى نابها الأزرق تتلمّظ الجرائم - أنها مثاليّة الطهر والحب ومعين^[٤] الروحانية في الإسلام^{١٩}.

جبن النفاق

ولقد ناقشت أحد أتباعكم «الغلاة»، فاعترف بالفصوص، وأنها حق جليل، وبالطبقات، وأنها سجلّ كرامات مقدسة، فجئت بالمسكين صوب المذبايع وكنت أحاضر في مكان كريم، يصخب عليه «الدررايش» في عيد وثني يحتفل فيه الصوفية بمولد الوثن الزينبي - وبرأ الله زينب رضي الله عنها من بهتان الصوفية - ورجوت الدرويش الثائر أن يتلو على الحشود من كرامات الصوفية المسجلة في طبقات الشعراني، فما إن قرأ كرامة سيده «علي وحيش»، ورأى الجريمة الباغية، حتى ضرب الأرض بالكتاب صارخاً مرْتاعاً: هذا مدسوس^(٥).

[٢] عوى الكلب عواءً: صاح.

[١] «نق» في الفتنة نفاقاً: رفع فيها صوته.

[٤] المعين: الماء الجاري.

[٣] «نصب» الغراب نعيماً: صاح وصوت.

(٥) يقص الشعراني في طبقاته كرامات سيده علي وحيش معقّباً على ذكر كل كرامة بقوله: رضي الله عنه: «كان الشيخ [وحيش] رضي الله عنه عندهنا في خان بنات الخطا!! وكان كل من خرج - أي بعد اقتراء الجريمة الباغية - يقول له: قف، حتى أشفع فيك [عند الله]، قبل أن تخرج، فيشفع فيه!!» وكان إذا رأى شيخ بلد، أو غيره، ينزله من على الحمارة، ويقول له: أمسك لي رأسها حتى أفعل فيها، فإن أبي شيخ البلد تسمّر في الأرض لا يستطيع يمشي خطوة، وإن سمح حصل له خجل عظيم والناس يمرون عليه ص ١٣٥ ج ٢ «الطبقات» ط صبيح. جريمة فسق منكّرة تروى بالفاظ فاسقة وأسلوب فاسق. وإذا أبي صاحب الدابة إلا صيانة عرضها من وحيش عطبه وحيش!! ومع هذا يقول الشعراني عن وحيش: رضي الله عنه!!

فقلت للمسكين المفجوع في معبوده! :حنانيك، وهل يمكن أن يكفر الصوفية بهذا الكتاب ١٩، أو يعترفون بأنه مدسوس ١٩؟ فأجاب الدرويش - والحق في عينيه جمرات تنوهج، وفي بدنه رعدة غضبي - : إن من يدين بهذا فهو كافراً! ومن لا يعترف بأنه مدسوس، فهو كافراً! ثم فر مذعور الرياء! وهكذا يا سماحة الشيخ، كلما خشي صوفي افتضاح معبود له، قال: مدسوس! حتى إذا خلا إلى شيطانه، قال: ينفذ الشيخ ما اطلع عليه من قدر الله المغيب! فعمله طاعة، لا معصية!.

وليس هذا شأن الصغار منكم، بل هو أيضاً شأن أحباركم الكبار، فقد زعم لي مثل ذلك الزعم شيخ التيجانية في مصر حين صدمته ببهتان ابن عربي أمام دراويشه، وأمام أناس يحرص على أن يوقروه، ويعظموه!.

ولقد قلت لذلك الصوفي الصغير، كما قلته من بعد لشيخه الكبير: سل الصوفية، وشيخهم الأكبر، أن يكفروا بتلك الكتب، فإن فعلوا، كان الخير الذي تظلم النفس إلى معينه، وكفى الله المؤمنين القتال!.

فهل تستطيع يا سماحة الشيخ أن تصنع باسم الله شيئاً، كهذا؟ أيمن أن تصدر بياناً تعترف فيه بالحق غير هباب، ولا وجل، فتقول - مثلاً - فيه: «لما في الفصوص والطبقات و، و... من مخالفة صريحة لدين الحق، فإننا نأمر أتباعنا، أن يكفروا بتلك الكتب ١٩».

أم يمكن - مثلاً آخر - أن نقول: «إن كتاب الفصوص، أو الطبقات، أو ... أو ... مدسوس على من نسب إليه، لأن فيه، وفيما هو مثله كفرة!؟» ليتك يا سماحة الشيخ تقدمها إلى الله صالحة!.

إيمان الصوفية بكتبهم

إن الصوفية هنا، وهناك، وفي كل مكان يتربصون فيه بالإسلام، يؤمنون بكتبهم إيماناً عنيداً طاغياً يأسر منهم في قبضته القاهرة عواطف القلوب،

ومشاعر النفوس وسبحات الخواطر، وتأملات الفكر، ويدينون بكل حرف فيها يرمز إلى أسطورة، وبكل كلمة تُفْشِي خرافة. فما تناوَحَتْ^[١] إحساساتهم بالحب إلا لها، وما فتك بالقلوب أُخْطِبوهم إلا بها، وما قتلت عناكبهم ذباب النفوس إلا بلعابها السام!

بيد أنهم حين يلقون المؤمنين، يقولون رياء ومخادعة: مدسوس!

حتى إذا خلوا إلى شياطينهم، قالوا: نفتن المؤمنين!

وإلا، فيأني أدوي بصيحة الحق، تتحدَّى الصوفية وطواغيتها أن يجرؤ واحد منهم على القول: إن تلك الكتب مدسوسة!

أو يستنكر ما تطفح به من كفر، وليأتنا بأثارة من علم، أو ظن تدل على أنها دعيّة النسب إلى من افتروها!

نعم أدوي بصيحة الحق: إن تلك الكتب ليست بمدسوسة، ويشهد بذلك التاريخ الحق، وتواتر النقل الصحيح، ولكن هبّوها كذلك، فما ينفعكم، وأنت بها تدينون، وتؤمنون إيمان عابد الخمر [بالدُّنْ] والكأس والعريضة!

مدسوسة! إنها التُّرْسُ الأخير، يلوذ به من يناد منكم تحت صدمة الحق الصاعقة! وشهادة زور تُفْتَرِي؛ لينجو بها المجرم من عقاب جريمته!

زعمهم أن كتبهم أسرار ورموز

وآخرون من أسارى الصوفية يزعمون أن تلك الكتب أسرار ورموز، لا يفقهها إلا أولئك الذين أباح لهم الغيب الخفي مكنونه، وقُدس أسرارهم، أو الذين هتك الله عنهم الحجاب الأعظم، فخرّوا تحت عرشه سجداً يسمعون وحيه، ويسجلونه^(٢) رموزاً في شعرهم ونثرهم!

[١] ناحت الحماسة: سجعت، وتناوحت الرياح: تجاوبت واشتد هبوبها.

(٢) أما الدكتور فيليب جتي، فيقول: «ودين محمد عملي صريح، وقلمنا يشير إلى هدف عال يصعب بواله، ويكاد أن يكون حلواً من العقد اللاهوتية، وليس فيه أثر للأسرار الرمزية المقدسة، أو مراتب الكهنوت، وما رتبته أصول الرسامة والتكريس والخلافة الرسولية» «كلها مناصب دينية في المسيحية» ص ١٧٨ ج١ «تاريخ العرب العام».

من صفات القرآن يا هؤلاء أنه «بيان للناس» ومن الناس عالمون، وجاهلون ومنهم أميون وكاتبون قارئون، ولكن الله جعله بياناً لهم جميعاً، ميسراً للذكر؛ ليعبد كل امرئ ربه على بصيرة.

بيد أنني سأنحدر إلى فرية أولئك، فازعم أن كتب الصوفية رموز مُقنعة بالخفاء، وأسرار ملثمة بسحر الغيب!!

ولكنني أسألك، كيف يُعبد الله برمز مقنع بالإبهام، وسر مستغرق في الغموض يحمل من الكفر وجهاً ظاهراً؟!

أيحق لامرئ أن يعبد ربه بشيء أطبق عليه الجهل به، وبغير ما شرعه الله في كتابه، وأوحاه إلى رسوله؟!

وأسألك - ولا تغضب إذا ألحقت في تساؤلي - : أتفقهون يا كهنة الصوفية دلائل تلك الرموز، أم لا تفقهونها؟ فإن تكن الأولى، فابينوا لاتباعكم؛ لتطمئن قلوبهم بالمعرفة، ولتزداد في نقدكم إنصافاً، وإن تكن الأخرى، فإنها دين البيغاء تردد ما لا تعي.

أما مع الحق، فاقول: لقد قرأت لابن عربي، ولابن الفارض، وغيرهما جُلّ ما كتبوا، وما شرح به تلاميذهم تلك الكتب، فلم أجد في كل ما قرأت رمزا مستوراً، ولا سرّاً خفياً، بل دلائل صريحة تكشف في جلاء صريح عن حقيقة معتقد الصوفية!!

تري أي رمز في قول ابن عربي: «العارف من يرى الله في كل شيء، بل يراه عين كل شيء»؟! إن ابن عربي خشي أن يتوهم أتباعه حتى «الظرفية» المجازية في كلمة «في»^[١] أو الحلولية الحلاجية، وفيها ثنائية تناقض الوحدة، خشي ابن عربي ذلك، فأطاح الوهم بيقينه الجازم؛ ليؤمن الصوفية بوحدة

[١] يقصد المؤلف بأن ابن عربي بقوله «بل يراه عين كل شيء» قد دفع كل احتمال لتأويل هذا الكلام أو حمله على وجه حسن، فقد جزم بالكفر، نعوذ بالله من الضلال.

الوجود إيماناً لا تنال منه شائبة، ليؤمنوا بأن الله هو عين كل شيء، وأن كل شيء هو الله، ومن الأشياء القبيح^[١] المُنْتِن، والعَرَض الذبيح، والجريمة يشخب^[٢] منها الدم البريء!! أفي ذلك رمز؟ أم بيان صريح وقح الجراءة، سفيه الزندقة؟!

إن الحق بَيِّنٌ يا سماحة الشيخ، فاهتف به لله، وانصره لله، وإلا فالجزاء شديد بين يدي الله ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦) [البقرة: ١٦٦].



[١]، القبيح: المدة التي لا يخالطها دم؛ من (قاح) القرح (فيح تقييحاً).

[٢] «يشخب»: (الشخب) جريان اللين في الإناء وقت الحلب، (تشخب) دمًا، أي تنفجر دمًا.

الفصل الثالث

دين الصوفية في الرسول

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين »^[١] هذا قول سيد الخلق، خاتم النبيين محمد ﷺ، ولقد بلوت مما ذكرك به دين الصوفية، فهل لحت فيه حتى لمحّة حيرى من حقّ حائر، أو نفحة ولهى^[٢] من خير شرود^[٣]؟! هل لحت منه بارقة خابية من حبّ لله، أو لرسوله ﷺ؟ يقينك، ويقين كل من يبتلى الصوفية يجزم بأنها ترفع فوق الكتاب المنزل أية خرافة يهرف بها درويش مأفون^[٤] ممرور^[٥].

أطوار الوجود الصوفية

تدين الصوفية بأن الوجود الإلهي له أطوار، أو مراتب، أو تنزلات، أو تعينات أو نسب، أو إضافات، فكلها ذات مدلول خرافي واحد!!

وأولى تلك المراتب « العماء » والوجود الإلهي في هذا الطور لا يوصف بوصف، ولا يُسمّى باسم، ولا يُعرّف بحسّد ولا برسم، أو كما يقول الكمشخاني: « اعلم أن حقيقة الذات الإلهية من حيث هي هي، امتدادها - أعني مدة بقائها - غير مضبوط لأنها من حيث هي كذلك لا وصف لها، ولا رسم، فهي العماء، إذ لا يمكن معرفتها بوجه من الوجوه، ما لم تتعين بصفة،

[١] رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) وابن ماجه (٦٧) من حديث أنس.

[٢] « ولهى »: من (ولّه) و (ولّها) و (الولّه): ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد.

[٣] « شرود »: (شرد) البعير أي نفر فهو شارد وشرود.

[٤] ما أروع تلك الكلمة التي قهر بها الحق حمدون القصار الصوفي، قدمغ بها الصوفية حين سئل: ما بال كلام السلف اتفع من كلامنا؟ فقال: « لأنهم تكلموا لعز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفس، ومطلب الدنيا وقبول الخلق » هذا قول زعيم صوفي في القرن الثالث الهجري فما بالك بما بعده؟ انظر ص (١٢٥) « طبقات الصوفية » للسلمي.

[٥] « ألن » فلان: نقص عقله، فهو مأفون، وأفون.

[٦] « ممرور »: أي ذاق مرارة هذا المعتقد.

وأول هذه التعيينات علمها بذاتها، فهذه الصفة تَنَزَّلُ لها من الحضرة الإلهية الذاتية التي لا نَعَتْ لها إلى الحضرة الوَاحِدِيَّة التي هي حضرة الاسماء والصفات، وتُسَمَّى: الحضرة الإلهية^(١) ^(٢) نقلت لك النص بتمامه، ليستيقن قلبك بأننا ننصف الصوفية، فلا نَسِمُهُم^[٣] إلا بما يحبون أن يُعرَفوا به. وقد يسمى الرب الصوفي في تلك المرتبة بالوجود المطلق، بيد أن النابلسي في غُلُو التجريد الذي ينتهي به إلى العدم المطلق، ينزه الوجود في تلك المرتبة حتى عن الإطلاق، لأن وَصْفَهُ بالمطلق قَيْدٌ، أو صفة له، [فيستلزم]^[٤] أن يكون المطلق مقيدا، والمقيّد مطلقاً^(٥)، فيتوتر التناقض بين وصفيه، ويستلزم أن تكون له صفة، وهو مجرد كل التجريد في ذلك الطور عن الاسم والصفة!!

ولقد أراد هذا «العماء» أو الوجود المطلق أن يتعيّن في صورة؛ ليُعرَفَ وليعرف نفسه^(٦)!! فتعيّن في صورة «الحقيقة المحمدية»، فكانت هي التعيّن الأول للذات الإلهية، أو الفَتَقَ بعد الرُتَقِ^[٦]، أو معبرَ الوجود من الإطلاق إلى التقييد، أو من العماء إلى الأحدية ثم الواحدية!!

(١) ص ٩٣ جامع الأصول للكُمُتْخَانِي.

[٢] بقول الجبلي:

إن العماء هو الخلل الأول فلك الشمس الحسن فيه أقل

هو نفس نفس الله كان له بها كون ولم يخرج فلا يتبدل

«الإنسان الكامل» (١ / ٥٠)

فالجبلي أيضاً يقول إن أول مراتب الوجود الإلهي «العماء»، وغيره كثير من فلاسفة الصوفية.

[٣] «نسمهم»: تصفهم.

(٤) رغم هذا، فهو واقع في التناقض، لأن الوصف بالسلب، أي عدم الإطلاق، قيد أيضاً للوجود، كالوصف بالإيجاب!!

(٥) هذه علة وضع الحديث الصوفي «كنت كثيراً مخفياً، فاردت أن أعرف، فخلقت الخلق، في عرفوني» ويفسر الصوفية «في» بكلمة «محمد» لأنها تساويها في العدد في حساب الجمل!!

[٦] «الفتق»، و «الرتق» مصطلحان من مصطلحات الصوفية؛ فـ «الرتق» ضد «الفتق»، وعند الصوفية إجماع مادة الوجدانية التي يسمونها العنصر الأعظم المطلق الذي كان «مرتوقاً» قبل خلق السماء والأرض، ومفتوقاً بعد تسيهما بالخلق، أما «الفتق» فهو من «فتق» الشيء: شقه، وعند الصوفية: ما يقابل الرتق من تفصيل المادة المطلقة بصورها النوعية. انظر «الموسوعة الصوفية» ص (٧٦٣، ٨٩٧).

الحقيقة المحمدية

يعرفها الصوفية بقولهم: «هي الذاتُ مع التعيين الأول، ولها الأسماء الحسنى وهي اسم الله الأعظم»^(١) فمحمد الصوفية ليس بشراً، ولا رسولاً، وإنما هو الذات الإلهية في أسمى مراتبها!!

ويقول الدمرداشي: «حقيقة الحقائق هي المرتبة الإنسانية الكمالية الإلهية الجامعة لسائر المراتب كلها، وهي المسماة بحضرة الجمع، وبأحادية الجمع، وبها تتم الدائرة، وهي أول مرتبة تعيّنت في غيب الذات، وهي الحقيقة المحمدية»^(٢) ويقول الكمشخاني: «صُورُ الحق هو محمد؛ لتحقيقه بالحقيقة الأحادية والواحدية»^(٣)، فمحمد عندهم هو الاسم الأعظم، فما الاسم الأعظم؟ إنه «الجامع لجميع الأسماء، أو هو اسم الذات الإلهية من حيث هي هي أي المطلقة»^(٤)!!

ومحمد هو الأحادية! فما هي؟ إنها «مجلي الذات الإلهية، ليس للأسماء، ولا للصفات، ولا لشيء من مؤثراتها فيه ظهور، فهي اسم لصرافة الذات المجردة عن الاعتبارات الحقيّة»^(٥) والخلقيّة»^(٦).

ومحمد هو الواحدية، فما هي عندهم؟ إنها «عبارة عن مجلي ظهور الذات فيها صفة، والصفة فيها ذات»^(٧)، والفرق بين الأحادية والواحدية: «أن

[١] انظر تحت المادة جامع الأصول في الأولياء للكمشخاني والتعريفات للجرجاني [قال الجيلي: «اعلم أن الله خلق الصورة المحمدية من نور اسمه البديع القادر، ونظر إليه باسمه المنان» «الإنسان الكامل» (٢/ ٤٧)].
وقال القاشاني: «إنه ﷺ أول التعينات الذي تعين به الذات الأحادية قبل كل تعين فظهر به من التعينات الغير المتناهية» الفصوص شرح القاشاني ص ٣٢٦.

(٢) ص ٧ «رسالة في معرفة الحقائق» محمد الدمرداش.

(٣) ص ١٠٧ «جامع الأصول» للكمشخاني.

(٤) ص ٩٢ «المصدر السابق».

(٥) أي لا توصف بأنها حق، أو خلق في تلك المرتبة.

(٦، ٧) عن جامع الأصول تحت مادتي الأحادية والواحدية وعن «الإنسان الكامل» للجيلي ج ١ ص ٣٠.

الاحدية^[١] لا يظهر فيها شيء من الأسماء والصفات، [وذلك عبارة عن محض الذات الصرفة في شأن الذات] [و] الواحدية [تظهر] فيها الأسماء والصفات^(٢)، وبهذا يتجلى لك أن الصوفية تعتقد في محمد أنه هو الله - سبحانه - ذاتاً وصفة، وأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنه هو الوجود المطلق والوجود المقيّد، أنه كان ولا شيء قبله، أو معه، ثم تعيّن في صور مادية سُمّي في واحدة منها بجسماد، وفي أخرى بحيوان، وهكذا حتى اندرج تحت اسمه كل ممسّى، وصدقت ماهيته على كل ماهية!

من هدى الله

ذاك هو محمد الصوفية، أما محمد خاتم النبيين ﷺ، فقد جلا لنا ربه وخالفه، ومن اصطفاه رحمة للعالمين، جلا لنا حقيقته في قوله الحكم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

ترى هل يصدق على كل بشري أنه هو ذات الله، واسمه الأعظم؟ إن الدين الصوفي يستلزم هذه الزندقة، بل يستلزم إطلاق تلك الصفات والأسماء على فرعون وأبي جهل - وغيرهما من طواغيت الكفر - فيصف كلاً منهم بأنه: هو الوجود الإلهي في تعينه الأول؛ إذ كلهم بشر!

ونحن نؤمن - كما هدى القرآن والسنة - بأن أول خلق الله هو القلم أو العرش^[٣] فمتى خلقت أسطورة الحقيقة المحمدية الصوفية؟! ونعلم بالتواتر

[١] قال الجيلي في «الاحدية»: «وليس لتجلي الاحدية في الاكوان مظهراً اتم منك إذا استغرقت في ذاتك ونسيت اعتباراتك، وأخذت بك فيك عن ظواهرك، فكنت أنت في أنت من غير أن ينسب إليك شيء مما نستحقه من الأوصاف الحقة». انظر: «الإنسان الكامل» (١ / ٤٢).

(٢) عن جامع الأصول تحت مادتي الاحدية والواحدية، وعن الإنسان الكامل (١ / ٣٠).

[٣] عن عباد بن الصامت رضي الله عنه، قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» رواه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢٣١٩، ٢١٥٥) وغيرهما، قال ابن أبي العز الحنفى:

«واختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات، أو العرش؟ علي قولين، ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمداني، أحدهما: أن العرش قبل القلم، لما ثبت في «الصحيح» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال رسول الله: «قدّر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرضه على الماء» فهذا صريح أن التقدير وقع بعده خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، الحديث عبادة هذا» اهـ. «شرح الطحاوية» (٢ / ٣٤٥).

القطعي أن عبد الله بن عبد المطلب تزوج بآمنة بنت وهب، وأنهما أنجبا طفلاً سمي محمداً، وأنه نشأ نشأة الخير والطهر والشرف والكرامة، وضيء الطفولة، قي الصِّبا، طهور الشباب؛ فلم يشب نقاء صباه ربيّة، ولم تهف بقُدس شبابه نَزْغَةً^[١] هوى، ولا نَزْغَةً صَبَوَةً، فكانت دنياه كلها معبداً يطيب أصائله^[٢] وعشاياه وأسحاره بذكر الله وحده.

ونعلم أنه جَدُّ في الحياة راعي غنم، ثم تاجرًا، فكان في حاله المثل الأعلى في الجَدِّ القوي الصالح، والأمانة التي تعتصم بالتقوى، والحكمة الحكيمة في كل ما يُصَرَّف به شعون دنياه، والرعاية التي تقدس الحق والواجب لكل ما حُمِّل من أمانة، وأنه كان في كل أطوار حياته الكامل في الأدب والخلق، وحكمة العقل وسمو العاطفة، ونباعة الفكر، وقوة الإرادة ومضاء العزيمة، وجلال الشرف، وعزة الكرامة، ونبيل المروءة، وكرم الإيثار والنجدة، وسماحة النفس، فلم يغمر قلبه إلا حب الله، ولم تنزع به الإرادة إلا إلى الخير، ولا العاطفة إلا إلى السمو، ولا الفكر إلا فيما ينال به رضاء الله، جواداً مَسْمَاحاً^[٣] في سخائه وبرّه، محسناً كل الإحسان في كل ما أنعم الله به عليه، فلم يغضب إلا للحق، ولم يهجن إلا عن الذنب، ولم يطمع إلا فيما هو عند الله، ثم اصطفاه ربه خاتماً للنبيين، فجاهد في الله حق جهاده، وبلغ كل ما نَزَّل إليه من ربه، وشهد الله له بذلك، ثم قبضه الله إليه بعد أن صارت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فصلوات الله وسلامه عليه.

هذا قبس نستهدي به من حياة محمد ﷺ، فقل لي عن الحقيقة المحمدية، تلك الأسطورة الصوفية الموغلة في تيه القدم والعدم: من أبوها؟ من أمها؟ ومن خلقت؟ ولكن أرسلت؟

[١] «نَزْغَةً»: هو اسم هيفة من (نَزَغَ) الشيطان؛ أي وسوس.

[٢] «أصائله»: جمع (أصيل)؛ وهو الوقت بعد العصر حين تصفر الشمس لمغربها، وقال في (مختار الصحاح): (الأصيل): الوقت بعد العصر إلى المغرب وجمعه (أَصْل) و (أَصَال) و (أصائل) كأنه جمع أصيلة. اهـ. انظر مادة (أَصْل).

[٣] صيغة مبالغة (مفعال) من السماحة.

شان محمد

وتزعم الصوفية أن شان محمد هو شان الله!! اسمع إلى صوفي يقول:
 «شان محمد في جميع تصرفاته شان الله، فما في الوجود إلا محمد» ويقول:
 «لا يُدْرِي لحقيقته غاية، ولا يُعْلَم لها نهاية، فهو من الغيب الذي نؤمن به»
 ويقول: «ولما كانت بشريته ﷺ نوراً محضاً، كانت فضلاته مقدسة طاهرة،
 ولم يكن لجسمه الشريف ظل كالأجسام الكثيفة، وهذا النور المحمدي، هو
 المعنى بروح الله المنفوخ في آدم، فروح الله نور محمد»^(١).

المهاجر من مكة

يقول ابن عربي: «اللهم أَفْضُ صَلَٰةٍ صَلَوَاتِكَ وسلامة تسليماتك على أول
 التَّعَيِّنَاتِ المفاضة من العماء الرباني»^(٢)، وآخر التَّنَزُّلاتِ المضافة إلى النوع
 الإنساني، المهاجر من مكة - كان الله^(٣)، ولم يكن معه شيء ثان - إلى
 المدينة، وهو الآن على ما عليه كان، مُحْصِي عوالم الحضرات الخمس^(٤) في
 وجوده، سر الهُويَّة في كل شيء سارية، الجامع بين العبودية والربوبية الشامل
 للإمكانية والوجوبية^(٥)، أُرأيت إلى قطب الصوفية الأكبر في غيِّ الحاده
 الأكبر، يفترى أن محمداً هو الله، وتأمل دهاء مكروه، فيما يعبر به عن كفره،
 في قوله: «المهاجر من مكة كان الله ولم يكن معه شيء ثان إلى المدينة» إنك
 حين تقرأ تلك الجملة دون تدبر ستظن أن فيها خلا، وأن جملة «كان الله»،
 ولم يكن معه شيء ثان» لا صلة لها بما قبلها، ولا بما بعدها، وأعترف أنني

(١) هذه النصوص عن كتاب «النفحات الأقدسية» للبيطار ص ٩، ١١، ١٣.

(٢) العماء عند الصوفية «هو الحضرة الأحدية، وهذه تعين بالتمعين الأول لأنها محل الكثرة وظهور الحقائق والنسب الأسماوية» «جامع الأصول» مادة العين.

(٣) نصب لفظ الجلالة باعتباره خيراً لكان، فيكون معنى الجملة «المهاجر من مكة كان هو الله».

(٤) يجعلها القاشاني ثلاثاً فقط «الفردية وهي حالة وجود الذات الإلهية في عين الجمع حيث كانت، ولم يكن معها شيء ثان، الثانية حضرة الوترية وهي حال بقائها بعد فناء كل شيء في مقام الجمع، الثالثة حضرة المعية وهي حالة وجودها مع كل شيء في عالم التفرقة، والأولى ما وردت الصفات منها، والثانية ما صدرت إليها، والثالثة ما وردت إليها ثم صدرت عنها» كشف الوجوه الغر ص ١٣٣.

(٥) ص ٢ «مجموعة الأحزاب» ط استامبول سنة ١٢٩٨هـ.

خَدَعْتُ، فَظَنَنْتُ أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مَقْحَمَةٌ، وَحَرْتُ فِي إِدْرَاكِ هَدَفِ ابْنِ عَرَبِي مِنْ وَضْعِ تِلْكَ الْجُمْلَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ عَنْ حَقِّ كَرِيمٍ بَيْنَ بَاطِلٍ عَرَبِيٍّ وَآخِرِ لَثِيمٍ! بَيِّدَ أَنِّي عَدْتُ إِلَى النَّصِّ أَتْلُوهُ، وَفِي فِكْرِي دَيْنُ ابْنِ عَرَبِيٍّ، وَثُمْتُ^[١] بِدَالِي هَدْفُهُ فِي وَضْعِ وَجَلَاءٍ، وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ الْجُمْلَةَ لَيْسَتْ مَقْحَمَةٌ، وَإِنَّمَا هِيَ لَحْمَةٌ دَيْنُهُ وَسَدَاهُ^[٢]، فَلْتَعُدُّ إِلَى الْجُمْلَةِ نَرْتَبِهَا كَمَا تَحْتَمُّ قَوَاعِدُ اللُّغَةِ الصَّحِيحَةِ «الْمُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ اللَّهُ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ ثَانٍ» مَازَدْنَا شَيْئًا عَلَى قَوْلِهِ، وَلَا نَقَصْنَا مِنْهُ، وَكُلُّ مَا فَعَلْنَاهُ هُوَ وَضْعُ قَوْلِهِ: «إِلَى الْمَدِينَةِ» مَوْضَعُهُ، بَعْدَ أَنْ نَأَى بِهِ ابْنُ عَرَبِيٍّ عَنْهُ؛ لِيَمْكُرَ بِهِ، وَيَلْتَوِي عَلَى الْقِرَاءَةِ فَهْمَهُ! بِهَذَا يَبْدُو لَكَ جَلِيًّا أَنَّ ابْنَ عَرَبِيٍّ يَفْتَرِي أَنَّ الْمُهَاجِرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ يَكُنْ هُوَ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا كَانَ هُوَ اللَّهُ مُتَجَلِيًّا فِي صُورَةِ اسْمِهِ فِيهَا «مُحَمَّدٌ».

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ تَعْرِفُ أَنَّ صَاحِبَ الرِّسُولِ فِي الْهَجْرَةِ كَانَ أَبَا بَكْرٍ غَيْرَ أَنَّ ابْنَ عَرَبِيٍّ يَقُولُ: «لَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ ثَانٍ» يَعْنِي أَنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ الْآخِرُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا اللَّهُ مُتَعَيِّنًا فِي صُورَةِ اسْمِهِ فِيهَا: «أَبُو بَكْرٍ»!

وَمَاتَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَمَاتَ مِنْ بَعْدِهِ أَبُو بَكْرٍ! فَأَيُّ إِلَهٍ هَذَا الَّذِي يَتَجَرَّعُ غَصَّةَ الْمَوْتِ مَرَّتَيْنِ؟ بَلْ مَا ذَلِكَ إِلَّا الَّذِي يَمُوتُ وَيَحْيَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ آلَافَ الْمَرَّاتِ ١٩.

لَقَدْ دَانَتْ الصُّوفِيَّةُ بِأَنَّ الرَّبَّ الْأَكْبَرَ هُوَ عَيْنُ خَلْقِهِ! وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ يَعْبُرُ بِهَا الْوُجُودُ تَفْنَى حَيَاةً، وَتَنْبُثُ حَيَاةً، فَيَا لِلصُّوفِيَّةِ! يَعْبُدُونَ رَبًّا يَمُوتُ آلَافَ الْمَرَّاتِ، وَيُولَدُ آلَافَ الْمَرَّاتِ فِي آنٍ وَاحِدٍ!

وَمُحَمَّدُ الصُّوفِيَّةِ لَهُ مَظْهَرَانِ، أَوْ اعْتِبَارَانِ، فَهُوَ عَبْدٌ أَوْ خَلْقٌ بِاعْتِبَارِ ظَاهِرِهِ،

[١] «ثُمْتُ» وَثُمْتُ: اسْمُ إِشَارَةٍ لِلْمَكَانِ.

[٢] «الْحَمَّة» مِنَ الثَّوْبِ: خَيْطُ النَّسِيجِ الْعَرَضِيَّةِ يُلْحَمُ بِهَا السَّدَى، وَالسَّدَى «مِنَ الثَّوْبِ»: خِلَافَ اللَّحْمَةِ، وَهُوَ يَمْدٌ طَوِيلٌ فِي النَّسِيجِ وَالْوَحْدَةُ «سَدَاةٌ».

وهو رب أو حق باعتبار باطنه، ولهذا يصفه ابن عربي - باعتبار ظاهره - بأن له العبودية ويصفه - باعتبار باطنه - بأنه له الربوبية^[١]، يصفه بأن له الإمكانية باعتبار ناسوته، وبأن له الوجوبية، باعتبار لاهوته^[٢].

والنابلسي في شرحه لصلاة ابن بشيش يقول: «ما صلى على محمد إلا محمد، لأن صلاة العبيد عليه، صدرت منهم بأمره من صورة اسمه»^(٢).

كرة من الحق على الباطل

أما محمد خاتم النبيين، ﷺ، فيهدينا الله إلى حقيقته بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، في قوله سبحانه ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ حجة من الحق تزهد الباطل الصوفي كله.

وأما اعتقاد المسلمين في نبيهم الحق، فهو أنه ﷺ «بشر مثلنا يوحى إليه» فالقرآن - وهو كلام الله وهده ورحمته - يفرض عليهم الإيمان بذلك، فلا مناص^[٣] من الإخبات^[٤] له بالقلب والفكر والشعور، ويزيدنا القرآن هدى؛ إذ يقرر أن بشرية الرسول الأعظم مثل بشرتنا، في أسلوب من القول مشرق الإعجاز في بلاغة البيان وفصاحته، في أسلوب يفرض على الفكر الإيمان بمعناه البين دون أن يشتبه معناه الحق حتى على الأمي الجاهل، وذلك في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

كلام هو الحق والحكمة والهدى في أسلوب جلي جلي محكم محكم، لا يأذن حتى لحاطرة واهية من ظن أن تقتحم عليك قدس يقينك، أو أن تحوم خفية حوله أو تفسد عليك شيئاً ما من فهمك لمعنى الآية، ومن تدبر ﴿بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لراي أشعة الهدى الإلهي الأعظم تغمر حوله الوجود كله، وتهديك

[١] أي يصفه بإمكانية الوجود باعتبار إنسيته وبشريته، ووجوب وجوده باعتبار إلهيته.

(٢) ص ٥٥٧ «مجموع الأحزاب» ط استمبول.

[٣] «لا مناص»؛ لا مفر.

[٤] «الإخبات»؛ الخشوع.

إلى الحق الذي يجب أن تؤمن به . ألا تراها تجعل بشرتنا هي المقياس الذي به نقيس بشرية رسول الله الكريم ﷺ^[١]، حتى لا يفتننا حب هذه البشرية الظهور، فنظنها خلقاً آخر، أو نوعاً من البشرية يفاير في حقيقته بشرتنا، فلا ندرك كنهها، ولا شيئاً من خصائصها؛ لأنها لم تتحقق إلا في فرد واحد؟ لقد كان يكفي في الدلالة على المعنى أن يقال: « قل : أنا بشر » أو « أنتم بشر مثلي » ولكنه سبحانه - وهو الحكيم العليم الخبير - شاء أن يعرفنا بشرية محمد ﷺ بما نعرفه نحن من خصائص هذه البشرية التي فطرنا عليها، وبما نبثليها من قيمها ومقوماتها، وبما نعالج من غرائزها وعواطفها^(١)، وبما نعلمه - عن الله - من حقيقة بدنها . وغاية متهاها، وبما تتجارب به مع رؤاد الوجود من حب أو كراهية . ولذا طعم ﷺ، وشرب، وتزوج، ونَجَل^[٢] خير البنين، وذاق الشيع والجوع والمرض، ومست قلبه الأحزان، وذرفت عيناه الدموع، وجاشت^[٣] نفسه برحمة البكاء، وغير ذلك مما قضاه الله على البشرية من أقدار في هذه الحياة، ثم جاءه ﷺ ملك الموت الذي وُكِّلَ بنا .

غير أن بشريته ﷺ آمنت حق الإيمان بما هداها الله إليه، وأنعم عليها به، فادت حق الله كاملاً من الحق والشكر، وحلقت فوق قمة السمو الإنساني الأعظم، فكانت وحدها هي النجم الأرفع الاسمي، وتألقت بعبوديتها الخالصة فوق أعلى أفق للتوحيد الخالص، فمازلت بها عاطفة لإثم، ولا هفت بها غريزة إلى ذنب؛ لأنه ﷺ اتخذ الله وحده رباً له، وجعل رضاه غايته والدعوة إليه هدف كفاحه وجهاده، والغاية العظمى لدينه، والملك الأعظم الذي تدور فيه حياته .

ثم تدبر ما حكم الله به على المشركين الذين قالوا: ﴿ مَا لَهُذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٧] إنه جل شأنه حكم عليهم بأنهم ضلوا

(١) غرائز البشرية الصالحة وعواطفها نفس غرائز البشرية الطالحة وعواطفها في الفطرة والعرق أن صاحب الأولى وجهها وجهة الخير، ووجهها الآخر وجهة الشر . [٢] «نجل»: أي ولد، ومه (النجل) وهو الولد .

[٣] «جاشت»: غاضت .

فلا يستطيعون سبيلاً لتعلم أن هذا الذي استنكره المشركون ليس إلا قدر الله العدل الحكيم الذي قضاه على البشرية، وقسطاً من أقساطها في الوجود، وأنه لا يمس مقام النبوة بآثارة من ضيعة^(١)، إذ النبي - قبل كل شيء - بشر، والبشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

وتدبر ما وصف الله به رسله جميعاً ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] تدبر هذه الآيات؛ لترد بها فرية الوثنية التي تزعم أن محمداً ﷺ نجم الحياة الأبدية الخالدة في الدنيا، وأن فضلاته كانت مقدسة طاهرة وإشعاعاً من أضواء الربانية!

لماذا - إذن - كان يتوضأ ﷺ، ويتيمم، ويغتسل؟

وتدبر خطاب الله لنبيه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ذكّر موتنا عقب ذكر موته؛ ليهتدي إلى أن الموت الذي قضى علينا هو عين الموت الذي قضى على نبيه ﷺ! ورغم هذا - على ما فيه من وضوح وجلاء - وجد من يزعم أن موت محمد معناه الحياة السرمدية، وجد من يضع للفظ نقيض معناه، أو يضع للفظ إسفاف الشهوة من هواه!

يقول الصوفية: «إنه ﷺ يحضر كل مجلس، أو مكان أراد بجسده وروحه، وأنه يتصرف، ويسير حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته، لم يتبدل منه شيء»^(٢).

وتدبر تلك الآيات التي يعاتب الله فيها سبحانه نبيه: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتُنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا﴾ (٧٢) وَلَوْلَا أَن تَبْتَائِكَ لَقَدْ كَدَّتْ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٣) إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفُ الْحَيَاةِ وَضِعْفُ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴿[الإسراء: ٧٣، ٧٤، ٧٥].

[١] وضعة: دناءة.

(٢) ص ٢١٩ ج ١ كتاب «رماح حزب الرحيم» لعمر بن سعيد الفوني ط ١٣٤٥ هـ.

وَعِيدٌ جليل الكبرياء، أَحَدِي الْقَهْر والجبروت، أفتدرك منه وعيدَ رَبِّ لمثله، أو لنفسه، أم وعيد قادر قهار متعال له ملكوت السموات والأرض لأشرف عبادِه، وخاتم رسله؟ أفلو كان محمد ربًّا يشرك الله في ربوبيته وإلهيته - كزعم الصوفية - أكان يبتليه الله بمثل ذلك الوعيد الذي يغمر النفس خشيةً ورهبةً، ويقهر عبوديتها قهر الرضى والحب على أن تُخْبِتَ لله وحده، وعلى ألا تتعدى حدوده قيد لحظة، أو خاطرة؟!

وهل أشد على نفس المؤمن من أن يتوعده الله بفقدان النصير، وبعذاب يتجرعه ضعف الحياة، وضعف الممات؟!

أفي قضايا العقل - ودينكم يؤمن بربوبية محمد - أن يتوعّد الرب نفسه، وينذر بها بعذاب الحياة والموت تصلاه ضعفين، وبالوحدة الصِّمَاء تقتل في النفس الشعور بالحياة؟!

أشرف صفات الرسول في أشرف مقاماته

والله سبحانه يصف رسوله بأشرف الصفات - وهي العبودية - في أشرف مقاماته، وأخلدها ذكراً، وأجلها أثراً وغاية ﴿مُبْعَانِ الَّذِي أُسْرِيَ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] يصفه ربه بالعبودية الصرفة الخالصة وحدها في تلك الليلة التي استشرف فيها قِمةُ السُّمُوِّ الأعظم، وتألقت أمجاده الخوالد الذكريات. آه لو قيل: «أسرى بمحمد» فحسب، إذن لراح الصوفية يثيرون ما يفتنون به من شبهات لا تجد من اللفظ النور القوى الذي يبددها، إذن لآلوا أن محمداً لم يكن بشراً، ولا عبداً، وإنما كان روحاً إلهياً سَخُرَتْ لقدرته الآفاق، وعُبِّدَتْ لقهره مُتُونُ القضاء، فجاءت كلمة «عبده» في الآية حجة الحق المتلافة التي تبديد الظنون، وتبدد كل شبهة تختلس الفتنة للعقول بأوهامها. جاءت برهاناً ربّانياً - لا ينقض أبداً - على أن محمداً ﷺ، ما كان إلا بشراً يُوحَى إليه، حتى في تلك الليلة التي وقف فيها دون عرش ربه الأعظم، يقبس من نور الله وهده، فما بالك به في كل أصائل عمره وعشاياه؟!

ويصفه سبحانه بالعبودية في مقام الدعوة إليه ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ [الجن: ١٩] وتدبر إضافة «عبد» إلى «الله» ليغمر يقين الحق قلبك، فلا يشتبه عليك الفرق الجليل العظيم الكبير بين عبودية محمد وربوبية ربه والوحيته، ولا تفتنك مجوسية الصوفية تبهت^[١] الحق بزعمها أن محمداً هو الله ١١.

ويصفه سبحانه بالعبودية في مقام هو القيصَل الحق الأكبر بين كون محمد دعياً، وكونه نبياً، ذلك هو مقام التحدي بالمعجزة العظمى، معجزة القرآن ﴿وَأَن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]. والرسول نفسه يضع لنا على الطريق صُوى^[٢] ومنارات؛ حتى لا تحيد عنه، فهلك، ويرشدنا إلى الحق، حتى لا تزيع بنا غلواء الشاعرية في الحب، فيقول ﷺ: «لا تطروني، كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» ويدوي صوته الأخاذ الرائع بصيحة الحق، يعظ بها ذلك الصحابي الذي جرفه غلو الحب، فقال لنبيه: «أنت سيدنا!» فصاح به؛ ليصمت، ثم أرسلها تعبر الأجيال والأحقاب والدهور عظة شافية هادية «إنما السيد الله تبارك وتعالى»^(٣)، فما إن تهاست تحت قبة الفلك الأصداء الراعشة الخافضة الواهنة المذعورة من قولة الصحابي، حتي تجاوب الوجود كله بدوي الصيحة الهادية من الرسول، تحول بين الأخرى وبين أن تطمئن في سمع، أو تهز وترأ من قلب، وما زالت قلوب المؤمنين تتجاوب بعظة محمد العظيم في حب وإجلال، فصلى الله عليه وسلم.

وفي الصلاة - وهي شعيرة الحب العابد - علمنا الرسول عن أمر ربه أن نشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، ولكن الصوفية تأبى إلا أن تدين بأن ذلك الحق باطل وخطيئة، فتكذب الله ورسوله، وتقول: لا بل محمد هو الرب الأعظم!

[١] «تبهت»: تفترى.

[٢] «الصُوى»: الأعلام من الحجارة الواحدة.

(٣) صحيح: رواه أحمد (١٦٣٥٠، ١٦٣٥٩) والبخاري في الأدب المفرد (٢١١)، وأبو داود (٤٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٧٤، ١٠٠٧٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٠٠).

وفي حديث الشفاعة يقص علينا الرسول ﷺ أن عيسى عليه السلام - وقد ناشده الخلق أن يستأذن ربه في أن يشفع لهم عيسى عنده - يقول: « اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » ولكن الصوفية تأبى إلا اتهام عيسى بالحق على محمد، وجحود فضله، فتقول: لا، بل هو رب نعبده، ونضرع إليه أن يهب لنا ما يملكه الله وحده، فيهتف الصوفية حتى يصكروا سمع الصخر - إن كان له سمع - : « الشفاعة يا محمد ! »

تدبر ما ذكرتك به من آيات الله؛ لتؤمن أن محمداً ﷺ، لم يبلغ ما بلغ من عظمة وكمال وسمو إلا بإخلاص الدين لله وحده، وأنه كان بشراً يوحى إليه، لا الله، ولا شريكه، كما تفتري الصوفية !

آراء المستشرقين (١)

وما يلوع النفس بالحسرة، والقلب بالأسى أن يدرك المستشرقون - على عدواتهم للإسلام - هذا الحق، ويظل الصوفية - ومنهم أحبار كبار يختالون أنهم أئمة الإسلام - مصرين في جحود أصم على عدواة ذلك الحق. يقول نيكلسون: « إذا بحثنا في شخصية محمد، في ضوء ما ورد عنه في القرآن من آيات، وما أثر عنه من الحديث في الصدر الأول، وجدنا الفرق شاسعاً بين الصورة التي صُوِّرَ بها في ذلك العهد، وبين الصورة التي صُوِّرَ بها الصوفية أولياءهم، أو تلك الصورة التي صور بها الشيعة إمامهم المعصوم، وظهر من المقارنة أن صورة شخصية الرسول لا تفضّل عند الموازنة صورة الولي الصوفي، أو صورة الإمام الشيعي، إن لم تكن دونهما، ذلك أن الولي الصوفي والإمام المعصوم؛ قد وصفا بجميع الصفات الإلهية، بينما وصف الرسول في القرآن بأنه بشرفيه كل ما للبشر من صفات، وأنه ينزل عليه الوحي من ربه بين آن وآخر ولكنه لا يتلقاه مباشرة عن الله، بل بواسطة الملك، وأنه لم ير الله قط، أو يطلع (١) لا أذكر رأي هؤلاء احتجاجاً به، وإنما هو لبيان أن هذا الحق، قد أدركه هؤلاء المستشرقون على عدواتهم، فقرروه، على حين يعاديه الصوفية ويكفرون به.

على أسرارهِ، وأنه لا يتنبأ بالغيب، ولا يفعل المعجزات، أو خوارق العادات، بل هو عبد من عباد الله ورسول من رسله» (١)، (٢).

ثم يتحدث الرجل عن محمد عند الصوفية، فيقول: «فمحمد إذن ليس المصدر الذي يستمد منه جميع الأنبياء والأولياء علمهم بالله، فحسب، بل هو الحقيقة الإلهية السارية في الوجود بأسره، كما أنه العلة الأولى في خلق كل ما هو مخلوق، والعقل الكلي الذي يصل ما بين الوجود المطلق «الله» وبين عالم الطبيعة، وليس العالم إلا صورة الحقيقة المحمدية، كما أن الحقيقة المحمدية ليست إلا صورة الله» (٣).

ويقول جولد زيهر: «إن صورة النبي كما صورتها السنة، قد أصابها التعديل والتحوير، لكي تتلاءم مع تقديس الأولياء، حتى نجم عن ذلك أن العقائد الشعبية، وضعت صورة للنبي تتعارض تماماً مع البيانات البشرية التي صور بها القرآن والسنة مؤسس الإسلام الأول» (٤)، (٥).

ويقول هنريش بكر: «من الثابت أن الغنوص قد أثر في إيجاد هذه الصورة التي صورتها العصور الوسطى الإسلامية المتأخرة لمحمد، وكان هنيئاً في إيجاد

(١) ص ١٥٨ في «التصوف الإسلامي» ترجمة الدكتور عفيفي.

[٢] بل إن الرسول يفعل المعجزات، وتجري عليه خوارق العادات، وقد بطلمه الله على بعض الغيب، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٦) إلا من أوتى من رُسُلِهِ، وإن لم تكن هذه من مؤهلات النبي، فهم يعرف الناس أنه نبي؟، فلا بد من معجزة ظاهرة أمامهم، ولكن كل هذا بإذن الله - تعالى - كما قال تعالى مخاطباً عيسى - عليه السلام - وهو يمن عليه بما حياه من معجزات: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَبْدُوكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ نَكَلَمَ الْفَتَى فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُخَرِّجُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لِي إِلَهِاتٍ فَقَالُوا لَا بَلْ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ مِنْكَ﴾ (٧)، وبهذا تبين لك عوار التنصاري حيث حصر معجزات النبي ﷺ في الوحي فقط، فتنبه!

(٣) ص ١٦٠ المصدر السابق.

(٤) ص ٢٣٤ «المعقيدة والبشيرة» لجولد زيهر.

[٥] بل الإسلام دين الله الذي لا يقبل - عند الله - دين سواه، وقد أرسل الله عز وجل به جميع أنبيائه ورسله عليهم وعلى نبيهم الصلاة والسلام - من لدن آدم إلى محمد ﷺ، وليس له مؤسس من البشر إنما الدين لله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِمَا بَيْنَهُمْ وَمِمَّا يُكَفِّرُ بَأْثَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ (٨)، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩). وعليه فلا ينبغي تحرير هذا الوصف من ذلك اليهودي الحاقدا لحاتم الانبياء والمرسلين ﷺ، فتنبه!

ما يشبه عبادة محمد، وهذه العبادة، وتلك الصورة مخالفتان لما كان عليه الإسلام الأول كل المخالفة، أما أولياء الله في الإسلام، ففي مقابل الأرواح القدسية في الهلينية «هم الكائنات الروحية الوسيطة بين الذات الإلهية وبين المادة عند الغنوصية» حتى أن محمداً - وهو نموذجهم الأعلى - ينتهي بأن يصبح هو العقل الموجود منذ الأزل، وأن يكون الرحيم المخلص القدير، وعن طريق هذا المذهب، انقلبت فكرة الوحي التي كانت موجودة في الإسلام الأول إلى ضدها^(١).

ويقول فيليب حتى: «والعقيدة الثانية في باب الإيمان هي أن محمداً رسول الله، وخاتم النبيين، وفي علم الإلهيات القرآني ليس محمد إلا بشراً لم يتم الله على يده من العجائب غير إعجاز القرآن، إلا أن التقاليد والاساطير التي اصطنعتها العامة^(٢)، من بعد، نسجت حول هامة الرسول هالة من النور الإلهي^(٣)» وهكذا يدرك يهود ومسيحيون^(٤) حقائق من الإسلام يتعامى عنها أحرار الصوفية، لقد تجرد أولئك المستشرقون قليلاً من التجرد، ولكنهم فهموا كثيراً من الفهم الصائب، فوصفوا الحق ببعض صفاته، ولولا أنك على

(١) ص ١٢ «التراث اليوناني» ترجمة الدكتور بدوي.

[٢] هذا خطأ بَيِّن؛ نعم، إن أعظم معجزة حباها الله - عزَّ وجلَّ - لنبيه محمد ﷺ القرآن الكريم، ولكن قد أوتي النبي ﷺ معجزات غيرها كثيراً؛ كمعجزة الإسراء والمعراج وفيضان الماء بين أصابعه يوم الحديبية حتى سقى وروى جيشاً كاملاً، وتكثير الطعام يوم الخندق حتى أطعم بصاع من شعير وجدي صغير جيشاً كاملاً، وحنين الجذع إليه ونطقه على مسمع ومرأى كثير من الصحابة عند اتخاذه ﷺ منبراً من خشب، وانشقاق القمر له ﷺ حين طلبت قريش منه ذلك، وغيرها كثير مما هو مبثوث في كتب السنة والسيرة.

أما إعفال هذا المستشرق لهذه المعجزات بجانب القرآن الكريم، فهذا يرجع لسببين: أحدهما: جهله بهذه المعجزات أو ببعضها وهذا متأكد. وآخرها: أنه أغفلها كيداً للإسلام وانتقاصاً من مقام الرسول الكريم ﷺ ويدل على ذلك قوله: «إلا أن التقاليد والاساطير التي اصطنعتها العامة... وهذا فيه غمزٌ للصحابة الكرام ﷺ الذين نقلوا هذه الأحاديث، ومثل هذا المستشرق لا يحسن به الظن، فتنبه.

(٣) ص ١٧٧ ج ١ «تاريخ العرب العام» لفيليب حتى.

[٤] التسمية الواردة في الكتاب والسنة «نصارى» قال تعالى: «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَحَارُونَ» [المائدة: ١٤] وقال عز وجل: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ» [البقرة: ١١٣]، ومن هنا يتبين أنه لا يصح تسميتهم بالمسيحيين كذلك فإن المسيحيين الذين اتبعوا المسيح ﷺ، وهؤلاء ما اتبعوه، إنما كفروا به.

بينة من عقائدهم الأسطورية الباطلة، لظنتهم في قولهم هذا مسلمين يتهجدون في المحاريب في نور من القرآن!

أو يرضيك أن يصدع بذلك الحق، قوم لم تلن قلوبهم لدين الحق، وأن يسجد الصوفية للباطل، يعبدون خرافاته، ويمجدون أساطيره، ويزعمون أنهم أئمة الدين وأعلامه!؟

لقد تزعمت يا سماحة الشيخ هذه الجماعة التي دَوَّخها الباطل، فَهَلَّا ذَكَّرْتهم بهدى الله، وجاهدتهم؛ لتحملهم عليه، فيؤمنوا به، وتخبث له قلوبهم!؟

كل شيء من نور محمد

بهذا يدين الصوفية، وفيه يتغزلون، ولقد عبر الدبَّاع^[١] عن هذه الأسطورة إذ يقول: «اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسماوات وأرضين وجنات وحجب، وما فوقها، وما تحتها إذا جمعت كلها، وجدت بعضها من نور النبي، وأن مجموع نوره، لو وضع على العرش، لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش، لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها، ووضع ذلك النور العظيم عليها، لتهافتت، وتساقطت»^(٢).

ويقول تيجاني: «لما خُلِقَ النور المحمدي، جمع في هذا النور المحمدي جميع أرواح الأنبياء والأولياء جميعاً جمعاً أَحَدِيّاً، قبل التفصيل في الوجود العيني، وذلك في مرتبة العقل الأول»^(٣).

ويقول الحلواني في قصيدته «المستجيرة» يخاطب رسول الله:

أنشاك نوراً ساطعاً قبل الورى فرداً لفرد، والبرية في العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته من نورك السامي، فياعظم الكرم

[١] هو أبو ريد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري القيرواني، المولود سنة ٦٠٥ هـ والمتوفي سنة ٦٩٩ هـ، والمعروف بـ «ابن الدبَّاع»، انظر: «الموسوعة الصوفية»، ص (٢٠٢).

(٢) ص ٨٤ ج ٢ «الإبريز».

(٣) ص ١٤ ج ١ «الرماح» لعمر بن سعيد.

فلذا إليك الخلق تفزع كلهم في هذه الدنيا، وفي اليوم الأهم
وإذا دهتهم كربة فرجتها حتى سوى العقلاء في ذاك انتظم
جُدْ لي، فإن خزائن الرحمن في يدك اليمين وأنت أكرم من قسم^(١) [٢]

والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [١٦] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي
قَرَارٍ مَكِينٍ [١٧] [المؤمنون: ١٢، ١٣]، ومحمد ﷺ إنسان. وإلا فليأتوا له
بصفة أخرى! والرسول نفسه ﷺ يقول: «خلقت الملائكة من نور، وخلق
الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(٢).

تحدث الرسول ﷺ عن النور، وعن خلق منه، فلم يذكر عن نفسه أنه
خلق من نور، كما ذكر عن الملائكة، وتحدث عن آدم الاب الأول للبشرية،
وعن خلقه، وأنه خلق مما ذكر الله في القرآن، يعني من طين لازب، ومحمد
ﷺ ابن آدم!، فلمن تنتسب الحقيقة المحمدية الصوفية!؟

وفي كتاب الله آية واحدة تدك وحدها كل ما يوفض^[٤] إليه الصوفية من
نصب^[٥] أقاموها لهذه الأسطورة، تلك هي قوله سبحانه لنبيه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ
الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] وكلمة شيء أوسع كلمة في العربية دلالة
على العموم والشمول، حتى أطلقها بعضهم على الموجود والمعدوم، بل يعمم
ابن عربي دلالتها، حتى يجعلها تتناول الصور الذهنية! وفوق هذا جاءت كلمة
«شيء» نكرة في سياق النفي فزاد عمومها وشمولها.

(١) ص ١٤ وما بعدها من رسالة لأحمد عبد المنعم الحلواني.

[٢] ومن قبله قال شرف الدين البوصيري في برده المشهورة:

يا أكرم الخلق مالي من ألود به	سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي	إذا الكريم تحلى باسم منتقم
فإن من جودك الدنيا وضرتها	ومن علومك علم اللوح والقلم

انظر البردة، ص ٢٤

(٣) مسلم وأحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها.

[٤] «أوفض»: أسرع.

[٥] «النصب»: ما نصب وعُبد من دون الله.

وتدبر قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الاحقاف: ٩].

فهل يدين الصوفية في الرسل جميعاً بما يدينون به في محمد ﷺ، إذ ليس هو «بدعاً من الرسل» ١٩.

وتدبر قوله سبحانه لنبيه: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا (٢٢) [الجن: ٢١، ٢٢].

هذا هو هَدْي القرآن، فقارن بينه، وبين ما افترته الصوفية من إفك حول النور الحمدي الذي خلق منه كل شيء! وثُمَّتَ توقن أنه ليس في الإمكان - حتى في النادر المعجز منه - إيجاد نسب ما بين هدى الله إليه وبه من الحق، وبين ما ضل به الصوفية، وأضلوا خلقاً كثيراً.

تدبر قول الله تجد الهدى في إشراقه، والحق في جلاله والحكمة في نورها الإلهي، وتأمل إفك الصوفية، تجده قيماً من الكفر المتقيح!!

أكلن محمد يعرف القرآن قبل نزوله؟

مما تأفكه الصوفية أن جبريل عجب حين رأى محمداً يتلو القرآن قبل أن يُعلِّمه إياه!! فسأل جبريل، فأجابه النبي: ارفع الستر مرةً حين يُلقني إليك الوحي، ففعل جبريل، فرأى محمداً هو الذي يوحى إليه، فصاح مُسَبِّحاً: منك، وإليك يا محمد!!٢٠

وما زال يهذي^[١] بهذه الأسطورة في الرحاب الفساح من الأزهر رجل لاعمل له سوى إثارة الحرب مؤرثة^[٢] الأحقاد على الكتاب والسنة!!

ويتناقل هذه الأسطورة صوفي عن صوفي في كل حماة وثنية، أو حانة صوفية. ولم لا؟ وقد فُحَّ بهذه الفرية أفعوان^[٣] الصوفية الأكبر ابن عربي؛ إذ يقول مفسراً قول الله سبحانه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾

[١] «هذي»: فلان: تكلم بغير معقول.

[٢] «مؤرثة»: هي من «أرث» النار؛ أي أوقدها.

[٣] «أفعوان»: ذكر الأفاعي، وجمعه (أفاع).

[طه: ١١٤]: «اعلم أن رسول الله ﷺ أُعْطِيَ الْقُرْآنَ مُجْمَلًا قَبْلَ جَبْرِيلَ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ، فَقِيلَ لَهُ: [و] لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ الَّذِي عِنْدَكَ قَبْلَ جَبْرِيلَ، فَتُلْقِيَهُ عَلَى الْأُمَّةِ مُجْمَلًا، فَلَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ عَنْكَ لِعَدَمِ تَفْصِيلِهِ»^(١).

رد هذه الفرية

وبطلان هذه الفرية بذهي يحكم به مَنْ فِي قَلْبِهِ بَارِقَةٌ مِنْ إِيمَانٍ، بَيِّدُ أَنْ غِشَاوَةَ الصَّوْفِيَّةِ عَلَى بَصَائِرِ مُعْتَنِّقِيهَا حَالَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ إِدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ الْإِيمَانِيَّةِ الْأُولَى، وَهِيَ أَنَّ رَبَّ الْوُجُودِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَمْ لَا تَحُولَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ إِدْرَاكِ بَطْلَانِ تِلْكَ الْفَرِيَّةِ؟! لِهَذَا نَذْكُرُكَ بِهَدْيِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧)﴾ [النجم: ٥ - ٧]. آيَاتُ بَيِّنَاتٍ تَهْدِيكَ إِلَى أَنَّ الَّذِي عِلِمَ رَسُولَ اللَّهِ الْقُرْآنَ هُوَ جَبْرِيلُ، وَإِلَى أَنَّهُ ﷺ: لَمْ يَكُنْ عَلَى عِلْمٍ بِشَيْءٍ مَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ جَبْرِيلُ بِهِ عَلَيْهِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٢٦) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٢٧)﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

ويقول ابن عربي أنه نزل عليه جملة واحدة، فقلوه قول الكافرين!! ومن قوله سبحانه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)﴾ [سورة القدر: ١]، نؤمن بأن محمداً ﷺ لم يعلم بآية ما من كتاب ربه إلا في ليلة القدر، فمتى علم الرسول القرآن مجملاً؟ أقبل ليلة القدر^[٢]، أم بعدها؟ ومن علّمه إياه مجملاً؟ أجبريل، أم غيره؟ اثتوني بأثارة من علم، إن كنتم صادقين. ويهب الله للحق برهاناً تنجاب^[٣] به كل ريبة: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] أفهم الصوفية، أم هي اللجاجة^[٤] في

(١) ص ٦ «الكبريت الاحمر» للشعراني على هامش اليواقيت والجواهر ط ١٣٠٧ هـ.

(٢) [قال ابن كثير: «قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ»]، انظر تفسير

ابن كثير (٨ / ٢٥٣) والقرطبي (٢٠ / ١٣٠).

(٣) «تنجاب»: تنقطع.

(٤) «الجماجة»: التماذي.

العناد؟ ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥، ١٦].

وفرية الصوفية تناقض هذه الحجة الإلهية على صدق محمد ﷺ.

أولاً يذكر الصوفية أن رسول الله حين فجأه الوحي، كان يقول - وجبريل يغطه: «ما أنا بقاريء» ١٩

وأنه عاد إلى زوجه الطيبة الطهور في خوف وقلق، وأن هذه المؤمنة العظيمة قالت له قَوْلَتَهَا التي طَيَّبَهَا الإيمانُ بروحانيته «والله لا يخزيك الله أبداً» [١].

أفكان يحدث هذا، أو بعضه، لو أنه ﷺ، كان على بينة من القرآن، قبل نزوله عليه؟ لم قال: ما أنا بقاريء؟ يكررها ثلاثاً؟ لم عاد خائفاً حتى زملوه ودثروه؟ لم بث ذات نفسه إلى زوجه خديجة، ولم ذهب معها إلى ورقة ابن نوفل؟! كل هذا حدث منه ﷺ حتى بعد نزول الوحي عليه!! أهذه دلائل علم سابق بالقرآن، ويقين جازم به قبل نزول جبريل عليه به في ليلة القدر؟، أم دلائل مشاعر نفس مؤمنة تقية، فجأها من الله - سبحانه -، ما لم تكن تدريه من قبل؟

وأها للصوفية!! تبصر نور الشمس يتوهج، فتقول يا للظلام الدامس [٢]!!
كبعض الطير يعيشه النهار [٣]!!

ولقد كان أعداء الرسول يسألونه مُحَرِّجِينَ مُتَعَنِّتِينَ، يبتغون تكذيبه،

[١] حديث «بدء الوحي» مشهور معروف؛ وهو في البخاري (٣، ٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧،

٦٩٨٢)، وفي مسلم (١٦٠، ١٦١).

[٢] «فَمَنْ الظَّلام: اشتد».

[٣] «العشاء»: هو عدم البصر بالليل والبصر بالنهار.

والتجديف^[١] عليه، فلم يكن يجيبهم بشيء - لأنه لا يعرف الجواب - عما سألوه عنه، إلا بعد أن ينزل جبريل عليه به؛ سألوه عن الروح، وعن فتية الكهف، وعن ذي القرنين، فقال ﷺ: غداً أجيبكم!! وأنساه حرصه النبيل على إقامة الحجة عليهم وهدايتهم، فلم يقل: إن شاء الله، ففتر عنه الوحي حتى حَزَبَهُ الأَمْرُ، وبلغت به الشدة مبلغها، ولم لا؟ وعدوه مُتَرَبِّصٌ به، حريص على تكذيبه، وعلى أن يثير الشبهات حول رسالته، ورغم هذا يفتر عنه الوحي!! ثم مَنَّ الله عليه به، فعلم عن الله جواب ما سألوه عنه فقال الرسول ﷺ لجبريل: «لقد رَأَيْتَ عَلِيَّ، حتى ظن المشركون كل ظن» فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (٢) [مريم: ٦٤] أفكان يحدث هذا، لو أن رسول الله ﷺ، كان على بينة من القرآن قبل نزوله؟ لماذا لم يجب مَنْ سألوه؟ لأنه لم يكن يعرف الجواب، ولكن ابن عربي يكفر بكل تلك الدلائل، ويفتري أسطورته، فتَوُجَّجُ^[٣] في الصوفية كالنار في الهشيم، وتنتشر كالبواء الفتاك، وتظل ديناً يكتبه الشعرا ويهرف به حمقى الصوفية!!

وعذرنا في إطالة الرد على هذه الفرية أنها دين قوم يحسبون على الإسلام، ومن أئمتته، وما زال عدُوُّ ربه «فلان» ينعب بها حتى اليوم في رحاب الأزهر، يضح بها نعيبه، والمؤذن يقول: الله أكبر!!

[١] «التجديف»: التحليل والتشنيع.

[٢] قال المؤلف: انظر تفسير ابن كثير في هذه الآية، قال المعلق: «عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا» قال: فنزلت ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية، رواه البخاري، وقال مجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي: احتبس جبريل عن النبي ﷺ حين سألوه قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه؛ قال عكرمة: فلبطاً عليه أربعين يوماً، وقال مجاهد: اثنتي عشرة ليلة، وقيل غير ذلك، فقال النبي ﷺ: «أبطأت عليّ حتى ساء ظني واشتقت إليك»، فقال جبريل - عليه السلام -: «إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست فنزلت الآية: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، انظر

تفسير القرطبي (١١ / ١٣٤)، وابن كثير (٥ / ١٥٣).

[٣] «أَجَّجَ» النار: ألهبها، و«أَجَّجَ» بينهم الشر: أوقده وأثاره.

تعالوا إلى كلمة سواء

فما رأي صاحب السماحة في تلك الوثنيات؟ لا يذكي في نفسك الحسرة، وفي أعماق قلبك السعير، أن ترى الصوفية تبتهت الحق بما لم يَبْهَتْهُ به إلحاد من قبل، وتجدد به جحوداً، ليس كعناده عناد، ولا كبغيه بغي. لا تدع رُعبَ القلق يعصف بك، فيقلب على السهد^[١] جنببك بحثاً عن كيد تأكيد لنا به، بل ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦١].

نحب أن نحتكم إلى الكتاب والسنة. لا تقولوا: قال فلان، فما أذكركم إلا بقول الله. اذكروا ابن عباس حبر هذه الأمة، وهو يقول لمن جادله بقول نسبة إلى العمرين: «يوشك أن ينزل الله عليكم ناراً من السماء، فتحرقكم» أقول لكم: قال الله. وتقولون لي: قال أبو بكر، وقال عمر؟ «فاحذروا أن يقع بكم ما أشفق عنه ابن عباس على مجادليه، واختريا سماحة الشيخ للمحاجة أي مكان تشاء، ولن أقول لك قبلها: أنا المصيب، وإنما أقول لك ما علمه الله لنبيه - وهو الذي ملا الله قلبه باليقين الثابت والهدى والحق - ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

أما أن تشكو منا إلى النيابة - ولها احترامها - فهو فرار جبان من صدمة الحق، وعجز ذليل في الدفاع عن الرأي، ولا نرتضي - رغم ما صنعت بنا - أن تَمَسَّكَ رِيبَةً من تلك النقائص، وأنت العالم الكبير الذي تولى من قبل الخطير الكبير من مناصب الأزهر!



الفصل الرابع وحدة الأديان

آمنت الصوفية بأن الله - سبحانه - هو عين خلقه، هذه الأسطورة - أسطورة وحدة الوجود - استلزمت عند الصوفية الإيمان بوحدة الأديان سواء منها ما نسجته عنكب الأوهام، وافتترته أساطير الخيال، وفارت به الشهوات، أو ما أوحاه الله إلى رسله، ولهذا آمن الصوفية سلفهم وخلفهم بأن الإيمان والتوحيد عين الكفر والشرك، وبأن الإسلام على هداه وقدس، عين الدين المجوسي في ضلاله ورجسه.

دين ابن عربي

وكعهدك بي أذكرك بما اختلقوه من إفك حول تلك الأسطورة؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

يقول ابن عربي:

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما عقده^(١)
ويقول:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان، ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف والواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه، فالدين ديني وإيماني^(٢)

ويحذر ابن عربي أتباعه أن يؤمنوا بدين خاص، ويكفروا بما سواه،

(١) انظر: شرح الفصوص، لعبد الرحمن جامي شرح القصص الهودي.

(٢) ص ٣٩ ذخير الاعلاق شرح ترجمان الأشواق، لابن عربي.

فيقول: «فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص، وتكفر [ما] سواه، فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك «هَيُولِي»^(١)»
لصور المعتقدات كلها، فإن [الإله - تبارك وتعالى -] أوسع وأعظم من أن
يحصره عقد دون عقد، فالكل مُصِيبٌ، وكل مُصِيبٌ مَاجورٌ، وكل مَاجورٌ
سعيدٌ، وكل سعيدٌ مَرَضِيٌّ عنه»^(٢).

وهذا الدين الأسطوري يستلزم حتما نفي عذاب الآخرة، فَرَبُّ الصوفية في دينهم كل مشرك وكل موحد، ويستحيل أن يعذب الرب نفسه، ولهذا يقول ابن عربي:

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده وما لوعيد الحق^(٣) عينٌ تُعَايِنُ
 وإن دخلوا دارَ الشقاء، فإنهم على لذةٍ فيها نعيمٌ مُبَايِنُ
 نعيمُ جنان الخُلْدِ [والأمر] واحد وبينهما عند التَّجَلِّي تبايُنُ
 يُسَمَّى عَذَاباً من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر، والقشر صائن^(٤)

وهكذا يوغل ابن عربي إغفالاً سحيقاً في الغُلُو العجيب من التناقض، ويكده شيطانيته؛ لتبتدع من البدع ما يقضي به على بقية الخير اليتيمة من إيمان المسلمين! لقد آمن بأن الرب عين العبد، وأن الإيمان صِنُوك^[٥] الكفر حقيقة وغاية، فما الذي يمنعه من الإيمان بأن الوعد عين الوعيد؟ وأن نعيم الجنة وكوثرها عين عذاب السعير وغسلينها؟ لم يمنعه شيء، فصرح كما ترى به! فأبي قضاء على الدين والأخلاق، أشد طغياناً من ذلك، إذا كان العمل الصالح يستوي والعمل الخبيث، وإذا كانت الفضيلة عين الرذيلة، وإذا كان الخير قرين

(١) «الهولي» لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة، وفي الاصطلاح الفلسفي هي «ما به الشيء بالقوة، أو جوهر في الجسم قبل ما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال»، وقد استعملها ابن عربي هـا بمعنى القابل، أي الذي تنطبع فيه صور المعتقدات كلها، وينفعل بها، وتصدر عنه أفعاله طبقاً لمعتقداته المتنوعة.

(٢) ص ١٩١ وما بعدها فصوص الحكم بشرح بالي ط ١٣٠٩ هـ.

(٣) يعني بالوعد النعيم في الآخرة، ويعني بالوعيد عذاب الآخرة. يريد من هذا نفي العذاب مطلقاً في الآخرة حتى للمشركين.

(٤) «الصنوء»: النظر والمثل.

(٥) ص ٩٤ فصوص ج ١ بتحقيق الدكتور عفيفي.

الشعر، وما مصير الإنسانية لو أنها آمنت بهذه الصوفية؟!

الحكم بنجاة فرعون

ولهذا يحكم ابن عربي بنجاة فرعون موسى، يقول معقباً على قوله تعالى ﴿قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]: «فيه قُرْتُ عَيْنُهَا بالكمال الذي حصل لها، وكان قرة عين لفرعون بالإيمان الذي أعطاه الله عند الغرق، فقبضه طاهراً مطهراً، ليس فيه شيء من الخبث»^(١) ويقول عن فرعون أيضاً: «فنجاه الله من عذاب الآخرة في نفسه، ونجى بدنه، [كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ ٩٢] لأنه لو غاب بصورته ربما قال قومه احتجب، فظهر بالصورة المعهودة ميتاً ليعلم أنه هو] فقد عمته النجاة حساً ومعنى»^{(٢)(٣)}.

واقراً بقية ما افتراه في «الفص الموسوي» من كتابه الفصوص، ففيه يفضل فرعون على موسى!.

دين الجيلي

الجيلي يؤمن بوحدة الوجود، كما بينت لك، وأنقل لك هنا نصاً يدينه، ويكشف عن معتقده هذا، وهو إيمانه بأن الله عين خلقه.

وما الخلق في التمثال إلا كثلجة وأنت بهما الماء الذي هو [نابح]
وما الثلج في [تحقيقنا] غير مائه وغيران في حكم دعت الشرائع^(٤)

(١) ص ٢٠١ «المصدر السابق».

(٢) ص ٢١٢ «المصدر السابق».

(٣) قال ابن عربي بعد هذا الكلام: «ومن حقت عليه العذاب الاخروي لا يؤس ولو جاءته كل آية حتى يروا العذاب الاليم: أي يذوقوا العذاب الاخروي، فخرج فرعون من هذا الصنف، هذا هو الظاهر الذي ورد به نص القرآن، ثم إنا نقول بعد ذلك – والأمر فيه إلى الله – لما استقر في نفوس عامة الخلق من شقائه، وما لهم نص في ذلك يستندون الشقاء إليه» «الفصوص» ص (٢٢٣) شرح قاشاني.

(٤) تأمل سخريته بالشرائع، لا شيء سوى أنها تحكم بالمغايرة بين الخلق والخالق في الذات والصفات. والجيلي يشبه الوحدة بين الله وحلقه بالوحدة بين الثلج والماء، فكلاهما عين الآخر، فالثلج ماء متجمد، والماء ثلج ذائب، فالمغايرة بينهما في الاسم، لا في الحقيقة، كذلك الله وخلقه، إذ المغايرة بينهما في الاسم فقط، كالمغايرة بين الماء في حال تجمده، وبينه في حال ذوبانه.

ولكن بِذَوْبِ الثَّلَجِ يُرْفَعُ حُكْمُهُ وَيُوضَعُ حُكْمُ الْمَاءِ، وَالْأَمْرُ وَاقِعٌ
تَجَمَّعَتِ الْأَضْدَادُ فِي وَاحِدٍ الْبَهَا وَفِيهِ تَلَاشَتْ، وَهُوَ عَنْهُمْ سَاطِعٌ^(١)

وَلَا يُبَاحُ الْجِيلِيُّ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ، آمَنَ بِوَحْدَةِ الْأَدِيَانِ.

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي حَيْثُ أَسْلَمَنِي الْهَوَى وَمَالِي عَنْ حُكْمِ الْحَسِبِ تَنَازُعُ
فَطَوَّرًا تَرَانِي فِي الْمَسَاجِدِ رَاكِعًا وَإِنِّي طَوَّرًا فِي الْكُنَائِسِ رَاتِعٌ^(٢)
إِذَا كُنْتُ فِي حُكْمِ الشَّرِيعَةِ عَاصِيَا فَإِنِّي فِي عِلْمِ الْحَقِيقَةِ طَائِعٌ^(٣)

وَيَقُولُ مَفْسَرًا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: «[يَعْنِي] الْإِلَهِيَّةُ الْمَعْبُودَةُ لَيْسَتْ إِلَّا أَنَا، فَأَنَا
الظَّاهِرُ فِي تِلْكَ الْأَوْثَانِ، وَالْأَفْلَاقِ وَالطَّبَائِعِ، وَفِي كُلِّ مَا يَعْبُدُهُ أَهْلُ كُلِّ مِلَّةٍ
وَنَحْلَةٍ، فَمَا تِلْكَ الْآلِهَةُ كُلُّهَا إِلَّا أَنَا؛ وَلِهَذَا أَثْبَتَ لَهُمْ لَفْظَ الْآلِهَةِ، وَتَسَمَّيْتُهُ
لَهُمْ [بِهَذَا] اللَّفْظَ مِنْ جِهَةٍ مَا هُمْ عَلَيْهِ فِي الْحَقِيقَةِ تَسْمِيَةً حَقِيقِيَّةً لَا مَجَازِيَّةً
... [إِنَّمَا] أَرَادَ [الْحَقُّ] أَنْ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ تِلْكَ الْآلِهَةَ مَظَاهِرُ، وَأَنَّ حُكْمَ الْإِلَهِيَّةِ
فِيهِمْ حَقِيقَةٌ، وَأَنَّهُمْ مَا عَبَدُوا فِي جَمِيعِ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا»،
أَيُّ مَا تُمُّ، [مَا] يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِلَهِ إِلَّا وَهُوَ أَنَا .. «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا؛ أَيُّ مَا تُمُّ
إِلَّا أَنَا، وَكُلِّ مَا أَطْلَقُوا عَلَيْهِ اسْمَ الْإِلَهِ، فَهُوَ أَنَا»^(٤).

هَذِهِ الْوُثْنِيَّةُ الطَّاعِيَّةُ الْجَامِدَةُ تُبَشِّرُ بِهَا الصُّوفِيَّةُ عَلَى أَنَّهَا التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ،
وَرَفِيفُ الرُّوحَانِيَّةِ مِنْ قُدُسِ السَّمَاءِ!

إِبْلِيسُ عِنْدَ الْجِيلِيِّ

وَعَجِبَ يَدْهَشُ مِنْهُ الْعَجَبُ، أَنْ تَرَى الصُّوفِيَّةَ حَفِيَّةً دَائِمًا بِتَقْدِيسِ عَدُوِّ

(١) ص ٢٣ ج ١ «الإنسان الكامل للجيلي» ط ١٢٩٣ هـ.

(٢) «بَيْنَ هَذَا الْبَيْتِ وَالْبَيْتِ الَّذِي يَلِيهِ عَشْرَةُ آيَاتٍ كَمَا فِي «الْإِيقَاطِ»، فَالْبَيْتُ الَّذِي يَلِيهِ هُوَ:
أَرَانِي كَالْآلَاتِ وَهُوَ مُحَرَّكِي

أَنَا قَلَمٌ وَالْإِقْتِدَارُ أَصَابِعُ

(٣) ص ١٤٣ ج ١ «إِيقَاطُ الْهَمِّ» فِي شَرْحِ الْحُكْمِ «لَابِنٌ عَجِيبَةٌ» ط ١٢٣١ هـ.

(٤) ص ٦٩ ج ١ «الإنسان الكامل» لِلْجِيلِيِّ، وَتَرَاهُ يَصُوبُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَعِبَادَةَ الْأَفْلَاقِ، وَعِبَادَةَ الطَّبِيعَةِ،
لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي عَبَدَتْ لَيْسَتْ إِلَّا قُلُوبُ اللَّهِ مُتَعِينَةٌ فِي تِلْكَ الصُّورِ، وَمُسَمَّاةٌ بِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ !!

الله، كفرعون، وإبليس، ثم تزعم للناس أن أقطابها أحبُّاء الله وأودَّأؤه، وأنهم مشارق ألوهية وربوبية، وأن لهم القدرة الخلاقة القهارة التي تُسَخِّرُ الوجود كله لقبضتها الظلوم! لقد مجَّد ابنُ عربي فرعونَ، حتى فضله على موسى كليم الله، وها هو الجيلي يمجِّد إبليس العدو الأول لله وللبشرية!

يقص الله علينا إباء إبليس عن السجود لآدم، وقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] فيقول الجيلي: «وهذا الجواب يدل على أن إبليس من أعلم الخلق بآداب الحضرة، وأعرفهم بالسؤال، وما يقتضيه من الجواب» وقرأ بقية خطباياه في كتابه «الإنسان الكامل»؛ لتراه في إعجابه الرائع بإبليس، وتقديسه له، وحكمه بأنه في الفردوس يوم القيامة، يقول الجيلي ص ٤٢ ج ٢ من الإنسان الكامل «[فلا] يُلْعَن إبليس أي لا [يطرده] عن الحضرة الإلهية إلا قبل يوم الدين؛ لأجل ما يقتضيه أصله، وهي الموانع الطبيعية التي تمنع الروح عن التحقق بالحقائق الإلهية، وأما بعد ذلك فإن الطبائع تكون لها من جملة الكمالات، فلا لعنة، بل قرب محض، فحيثُ يرجع إبليس إلى ما كان عليه عند الله من القرب الإلهي.. قيل إن إبليس لما لعن هاج وهام لشدة الفرح حتى ملا العالم بنفسه، فقيل له: أتصنع هكذا، وقد طردت من الحضرة؟ فقال: هي خلعة أفردني الحبيب بها لا يلبسها مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل» هذا نص الجيلي بلفظه!

دين ابن الفارض

يقول في تائيته الكبرى:

فسي مجلسُ الأذكارِ سَمْعُ مُطْلِعِ	ولي حانةُ الخمارِ عينُ طليعة
وما عَقَدَ الزُّنارُ (١) حُكْمًا سوى يدي	وإن حُلَّ بالإقرارِ بي، فَهِيَ حَلَّتْ
وإن نزلتْ زيلُ محرابُ مسجدٍ	فما بار بالإنجيل هيكُلُ بَيْعَةٍ (٢)
واسفلُ تورةٍ لكليم لقومه	يناجي بها الأحبارُ في كل ليلة

(١) ما يشده النصارى على أوساطهم.

(٢) معبد النصارى.

وإن خَرَّ للأحجر^(١) في بُدِّ عاكفٌ فلا [وَجْهَ للإنكار]^[٢] بالعصبية
وما زلغت الأبصارُ من كلِّ ملةٍ [لا] راغت الأفكارُ من كلِّ نحلةٍ
وما احتلر من الشمس عن غِرَّةِ صبا^(٣) وإشراقها من نور إسفار غُرَّتِي
وإن عبد لنار المجوس، وما انطففت كما جاء في الأخبار في ألف حجة^(٤)
فما قصدوا غيري، وإن كان قصدهم سواي، وإن لم يظهروا عَقْدَ نية^[٥]

حانات الخمر، ومواخير الخطايا، وصلوات^(٦) اليهود، وبيع النصارى
وهياكل المجوس والصابئة، وبيوت الأصنام، ومجالس الذكر، ومساجد الله،
كلها عند ابن الفارض ساح فساح يُعبد فيها الله عبادة يحبها ويرضاها^(٧)؛
لأنه المعبود فيها والعابد!! وهذا المشرك العاكف على الأصنام يسجد لصخورها
الصُّم، وهذا الصابئي الساجد في معبد الكوكب، وهذا المجوسي يتبتل
بضراعته إلى النار، وهذا اليهودي التائه يريق الدموع على مَبْكَاهُ، ويؤجج سعير
الحقد على الله، كل هؤلاء عند ابن الفارض على بينة من الهدى والفرقان، فما
هم في دينه إلا الذات الإلهية متعينة في صور بشرية!!



(١) الصنم أو بيت الأصنام.

(٢) في نسخة الديوان، ط. دار المعارف [تعد في الإنكار]، وهذه الأبيات رقم (٧٣١ - ٧٣٥).

(٣) مال قلبه.

(٤) يشير إلى ما يقال من أن نار المجوس التي ظلت تشتعل ألف عام خمدت ليلة مولد النبي.

(٥) الأبيات رقم (٧٣٨ - ٧٤١).

(٦) أمكنة عبادتهم.

(٧) يقول جولد زيهير: «مهما تظاهر الصوفيون بتقديرهم للإسلام، فلغالبيتهم نزعة مشتركة إلى محو الحدود التي تفصل بين العقائد والأديان، وعندهم أن هذه العقائد كلها لها نفس القيمة السببية إزاء الغاية المثلى التي ينبغي الوصول إليها» ص ١٥١ «العقيدة والشرعة».

الفصل الخامس

شيوخ الصوفية وكراماتهم (١)

عبادة الأنبار والحكماء

ما ألحقت (٢) الصوفية في شيء إلحافها في الدعوة إلى اتخاذ شيوخها أرباباً من دون الله، ففرضت على الدرويش أن يكون وطأً ذليلاً لشيخه مُسْتَعْبِدَ الفكر سلب الإرادة كجثة الميت في يد الغاسل، وجعلت هذه العبودية الممتحنة أولى الدلائل على طاعة المريد لشيخه، وعلى حبه له، وعلى أنه يرقى معارج الوصول إلى حظائر القدس. اسمع إلى طيفور البسطامي يقول: «من لم يكن له أستاذ، فإمامه الشيطان» (٣) «وإلى صاحب لطائف المنن» (٤) يزعم: «من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له، دعي لا نسب له» (٥) «وإلى محمد عثمان يقرر آداب المريد مع شيخه: «ومشاهدتك له في كل حال ورَدَ عليك أنه بواسطته إليك يا فتى، ومنها أن تجلس جلوس الصلاة عنده، وأن تفنى فيه، وألا تجلس فوق سجادته، وألا تتوضأ بإبريقه ولا تَتَكَيَّ على عكازه، واسمع ما قال بعض الأصفياء: من قال لشيخه: لِمَ لا يفlech، ولتكن محضره في قلبك

(١) لا ينكر مسلم إكرام الله لأوليائه بما وعدهم به من أن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونستطيع أن نعرف من القرآن ما يكرم الله به أوليائه فقد وصفهم الله بأنهم المؤمنون المتقون، فافقروا في القرآن ما أعده الله للمؤمنين المتقين، تعرف ما يكرمهم الله به، ولكنك لن تجد فيه ما يزعمه الصوفية.

(٢) «الحلف»: ألح واستمر.

(٣) ص ١٤٧ كتاب «الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية» ط ١٩١٣ م.

(٤) كتاب «لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق» ويسمى أيضاً: المنن الكبير الجالية للسور والبشرى» ومؤلفه أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني؛ نسبة إلى قرية ساقية أبي شعرة بالمنوفية بـ «مصر»، ولد بها سنة ٨٩٨ هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٩٧٣ هـ الموسوعة الصوفية ص (٣٤٢).

(٥) ص ١٤٦ «المصدر السابق».

وخيالك، فإن غفلت عنه وقتاً، فهذا من مقتك، واجتهد في أن تنال مقام الفناء فيه، فَمِنْ ثَمَّ ترقى إلى مقام البقاء به^(١) وقد نظمها مصطفى البكري، فقال:

وسلم الامر له، لا تعترض ولو بعصيان أتى أذي فرض
وكن لديه مثل مَيِّتٍ فاني لدى مُغْسَلٍ؛ لتمسي داني
ولا تطأ له على سجادة ولا تنم له على وسادة^(٢)
وقد سبقه الجيلي بهذا:

وكنْ عنده كالميت عند مُغْسَلٍ يُقَلِّبه كيف يشاء، وهو مطاوع^(٣)

وتحتم الصوفية على المريد ألا يعصي شيخه في أمر أو نهى، وإن رآه يخالف السنة المحمدية^(٤) ولكي يظل الدرويش تحت قبضة الشيخ يستذل كرامته، ويغضبه ماله وعرضه، قررت الصوفية على لسان الشعرائي أن من أشرك بشيخه شيخاً آخر وقع في الشرك بالله^(٥)، وأن من أخذ الطريق على غير شيخه، كان على غير دين^(٦). وكتب الصوفية طافحة بمثل تلك المنكرات التي تهدر الكرامة والقيم الإنسانية النبيلة، وتجعل من الإنسان لقي طريح الذل والهوان والصغار، وموطئاً مستعبداً لكل نعل نجسة باغية الوطء، تنزو بالرجس الحقيقير، وهذا سر ما ترى عليه الصوفية من انشطارها شطرين، شطر معبود، وآخر عابد، وسر ما يروعك إذ تبصر شيخاً كبيراً كبيراً يلحق نعل طفل صغير مازال يتعثّر في خراءته، ويتلطح بنجاسة بوله!! لا لشيء سوى أنه حفيد مولاه

(١) الهبات المقتبسة لمحمد عثمان ط ١٩٣٩ م.

(٢) بلغة المريد للبكري.

(٣) منحة الأصحاب للرطبي ص ٧٥

(٤) انظر ص ١٣١ قواعد الصوفية.

(٥) ص ١٥٤ المصدر السابق.

(٦) ص ١٠٣ ج ٢ لطائف المنن، وقد شاكفوا الإسماعيلية في ذلك إذ يزعمون أن من أشرك مع إمامه سلطة أخرى أو أرتاب في وجوب الطاعة له، كان كمن أضاف للنبي نبياً آخر، وكمن شك في نبوته، وبذا صار كمن وضع مع الله إلهاً آخر. انظر ص ٢١٨ العقيدة والشرعة لجولد زيهير.

شيخ الطريقة، ففيه سره، وفيه ربانته^(١)!!، وسر مخالفة الصوفية جميعاً عن أمر الله؛ لما يدينون به من أن شيوخهم لا يهمسون بهمسة إلا عن وحي من الله، فقلوبهم العروش التي استوى عليها برحمانيته، وسماوات كبرياته وجلاله وجماله، وأقداس وحيه التي يفيض منها هداه!! يقول القشيري: «[فمن] صاحب شيخاً من الشيوخ، ثم اعترض عليه بقلبه، فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التوبة!! على أن الشيوخ قالوا: حقوق الاستاذين لا توبة [عنها]»^(٢).

لماذا يتوسل الصوفية بالقبور

لن أجادلك هنا يا سماحة الشيخ في توسل الصوفية بالمقبور، وبالقبور^(٣) فإنه أهون ما تقترب الصوفية وضحاياها من وثنية، وأخبارها لا يتراءون بالولاء الخاشع لأصنام القبور حبا في المقبور، بل لما يُجمَع لأوثان الموتى من ندور!!

آراء المستشرقين في التوسل

يقول جولد زيهر: «بقي كثير من عناصر الديانات السابقة للإسلام، واستأنفت حياتها في المظاهر العديدة الخاصة بتقديس الأولياء. وفي الحق ليس من شيء أشد خروجاً على السنة القديمة من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الإسلام والماسخ لحقيقته، وإن السني الصادق الحريص على اتباع السنة لابد أن يعده من قبيل الشرك الذي يستثير كراهيته واشمئزازه»، ويتحدث عن تقديس العامة للأولياء، فيقول: «وأضرحة الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى هي موضع عبادتهم التي يرتبط بها أحياناً ما يظهره العامة من تقديس وثني غليظ لبعض الآثار والمخلفات، بل إن العامة تخص الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحضة»، ويتحدث عن الولي المحلي: «ويخشى الواحد منهم أن يحث

(١) نصبت مشيخة الطرق طفلاً سنة خمس سنوات شيخاً لسجادة كبرى في مصر انظر ص ١٥٤ «المجموعة الدرر».

(٢) ص ١٥١ «الرسالة» للقشيري.

(٣) قال الجنيد عن قبر معروف الكرخي: «قبر معروف تزيق مجرب يستشفي به ويترك» انظر ترجمة معروف في الرسالة للقشيري والطبقات للسلمي، وهكذا عبت الصوفية القبور منذ نشأتها!!.

في يمين حلف فيه باسم الولي أكثر مما يحمر خجلاً عندما يحلف بالله باطلاً^(١). ويقول رونلدرسن: «بالرغم من التوحيد المصرّح به في القرآن فإن الام الإسلامية، لازالت تحتفظ بكثير من العادات الوثنية؛ فإن من أهم الصفحات في الحياة الدينية للعوام في جميع الام الإسلامية، هو تقديسهم لقبور الصالحين، وفي هاتين القضيتين ساير العلماء المحدثون^(٢) اندفاع الرأي العام، وقد أصبح لكل قوم أئمة محليون يزورون قبورهم وآثارهم؛ فيفرح ذلك الإمام، ويشفع لهم، وينجيهم من الفقر والمرض^(٣)!!».

وهكذا يدع الصوفية الفرصة سانحة لعدو الإسلام، ليجدف عليه بما يقترف الصوفية!! تأمل فيما قاله، تجده صوفية مُصَوَّرة بكل خبثها!!

لن أجادلك في التوسل، وفي أنه شرك أصم، إذ التوسل خَبَثُ شرك آخر أشد خبثاً منه، فالصوفية يعتقدون أن أولياءهم ليسوا بشرأ، وإنما هم آلهة تخلق ما تشاء وتختار، أو هم - كما نقلنا لك من قبل - ذات الله - سبحانه وتعالى - تجسدت مرة فكانت تيجانية، وأخرى، كانت نقشبندية، وأخرى فكانت رفاعية، أو شاذلية، أو بُرهامية!!

صوفي يخطب الجمعة علياً

الشعراني كاهن الخطايا الصوفية، يبشر بها، ويكافح في سبيل الدعوة إليها، وعجيب أن ترى الشعراني يعقب على ذكر كل اسم صوفي يتزّى جسده فاحشة بقوله: «رضي الله عنه»! اسمع إلى الكاهن يبشر بهتك العورة كرامة! «ومنهم الشيخ إبراهيم العريان، كان يطلع المنبر، ويخطبهم عرياناً، فيقول: السلطان، ودمياط، وباب اللوق، بين الصوريين، وجامع طولون، الحمد لله رب العالمين فيحصل للناس بسط عظيم»^(٤).

(١) النصوص السابقة عن ص ٢٢٢، ٢٢٤ «العقيدة والشريعة».

(٢) التعميم خطأ، فالمحدثون بحق يرون هذه البدعة من الشرك، ولعله يقصد من وضعوا الأحاديث التي نسبت زوراً إلى رسول الله ﷺ، وترشح لقبول هذه البدعة.

(٣) ص ٢٦٦ «عقيدة الشيعة».

(٤) ص ١٢٩ ج ٢ «الطبقات» للشعراني ط ابن شقرون.

أَمِنْ رَفِيفِ الروحانية بعبير القدسية مَنْ الْوَلِيِّ عَلَى حَشْدٍ مَحْشُودٍ بِعَوْرَةٍ
مَكْشُوفَةٍ، وَهَذِيانِ مَخْيُولِ ١٩

تصور، واجعل خيالك رحيباً رحيباً مُجَنِّحاً بتهاوليل الشاعرية، حتي يمكن
أن يتصور مشهد ولي يبارك المصلين بهتك عورته ١١

تصور ذلك المعبود يصعد إلى المرقاة^[١] الأخيرة من المنبر في يوم الجمعة،
حتى إذا أنعم الشهود فيه الأبصار، وحدّقوا إليه بالأفكار، ورتّوا إليه القلوب،
ابتغاء ترشّف العظة الهادية. حتى إذا هوّمت عليه النواظر، وطافت به المشاعر،
وحوّمت حوله الأحلام والعواطف، هتك الستر عن عورته فضلاً منه ونعمة ١٩
ذلك المعبود على منبره، في جامعته، في جمعته يجمع الناس حوله؛ ليعظهم
عظة تصلهم بأسباب السماء، فيسمعهم ذلك الهراء المخبول، وهو مُنْهَتِكُ
السوءة: «باب اللوق. الخ».

تلك الصورة الوثنية التي يراها الخيال الفسيح الذي قد يستشرف غيب
الأبد، وقُفَّة^[٢] الأزل في تصوراتهِ، ويهب للمستحيل أحياناً وجوداً في
تهويماته - يراها أشد استعصاء عليه من تصور وجود المستحيل، بيد أن
الشعراني يؤكد لنا أنها حقيقة صوفية، فيدين بها، ويبشر بها، ويدعو الله أن
يَعْمُرَ مُقَرَّرَها برضاه، ولا يأخذنك العجب؛ فإنه صوفي!.

إننا نعرف من كتاب الله أن الآدمية عوقبت على ذنبها الأول بكشف
السوءة! ﴿فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الاعراف: ٢٢]

صوفي يبهت البريء بذنبه

ويعضني الشعراني في تمجيد شيخه العريان فيقول: «وكان يخرج الريح
بحضرة الأكابر، ثم يقول: هذه ضرطة فلان، ويحلف على ذلك، فيخجل
ذلك الكبير منه»^(٣).

[٢] «القُفَّة»: أعلى الجبل.

[١] «المرقاة»: الدرجة.

(٣) نفس الصفحة والمصدر السابق.

ولشد ما يشدخ العجب رأسه من العجب من صوفي يقدر الصوفية خطاياهم، ويجعلون من معجزات قطبانيته بهت البريء بذنب افترى هو جريته، أو بخطيئة «ذوقية» يمجها حتى ذوق الخنفساء! [١].

هذا مع استحلال الكذب المفضوح العريان، مقسماً بالله على صدقه! أرايت إلى الصوفية كيف تعبد خاطئاً ينث مثل هذه اليحاميم المنتنة، الخانقة في مجالس العظماء، ثم لا يمنع فساد ذوقه، وسوء أدبه من أن يقذف سواه بذنبه، ويحلف بالله على صدق بهتانه!؟

الصوفي يؤجر على كشف عورته

وإليك ما يافكه الدباغ: إن غير الولي إذا انكشفت عورته، نفرت منه الملائكة الكرام، والمراد بالعمرة: العمرة الحسية، والعمرة المعنوية التي تكون بذكر المحزون والفاظ السفه، وأما الولي، فإنها لا تنفر منه، وإذا وقع له ذلك؛ لانه إنما يفعله لغرض صحيح، فيترك ستر عورته لما هو أولى منه [٢].

لقد جعلها الشعراني كرامة خاصة بالعريان، أما الدباغ؛ فيجعل من كشف العمرة دستوراً في الولاية الصوفية!، أما الكمشخانلي، فيحدثنا عن أنواع الأولياء المتصرفين، فيقول: «والرحمانيون وهم ثلاثة أيضاً، وهم عند الوحي يجلسون عرايا، ويسمعون الوحي ويفهمون المراد منه» [٣].

فتأمل الصوفية تزعم أن أولياءها يسمعون الوحي! ومن هم؟ سفهاء عرابيد، تخذتهم [٤] الخطايا دعاة مجونها وسفها! والسنه تعبر عن سوءاتها! جرد يا سماحة الشيخ كتيبة من علمك، وسلطان منصبك؛ لتؤدب هؤلاء الأقطاب الذين يهتكون عوراتكم، ولعل هذه العورات المتكشفة في فجور أجدر بأن تشكوها إلى النيابة ممن يدعوكم إلى سترها، ورتق فتوقها المفتضحة!

[١] يقصد المؤلف أن هذه الخطايا لا يستسيغها أحد ذوقاً، حتى ولو عرضت على خنفساء.

[٢] ص ٤٣ ج ٢ الإبريز للدباغ ط ١٢٩٢ هـ. (٣) ص ١٣٣ جامع الأصول في الأولياء.

[٤] كذا بالأصل «تخذتهم» وهو من «تخذ» ومعناها: أخذ.

تطور الصوفيين إلى وحوش وغيرها

يقول الشعراني عن الغمري: «ودخل عليه سيدي محمد بن شعيب [الخيبي]، فرآه جالساً في الهواء، وله سبع عيون». يقول عن الشيخ أبي علي: «تدخل عليه [بعض الأوقات] تجده جندياً، ثم تدخل عليه، فتجده سبباً، ثم تدخل عليه فتجده فيلاً»^[١]، وكان يقبض من الأرض، ويناول الناس الذهب والفضة»^(٢).

ترى لو أن مسلماً قتل صوفياً وهو «فيل، أو سبع» أتلمزه الدية، أم يلزمه القصاص؟ يزعم الشعراني أن ذلك الشيخ المتطور إلى فيل وسبع قد قطعه بعض الناس بسيفهم، وأخذوه في تليس، ثم أصبحوا، فوجدوا الشيخ حياً جالساً^(٣)! **خطايا** ثم ذكر الشعراني من جرائم شيوخه ما يفسد الصبي على أمه الطهور بأسلوب تستحي حتى البغي أن تهمس به في حانتها المعريدة، فأقرأه، تجد ثورة الخطيئة من جسد أوجعه الشبق!«^[٤].

اقرأ ما سجله عن كرامات علي وحيش وأبو خودة^(٥)، وغيرهما، ثم اذكر ما كان يقتصره المجرمون من قوم لوط، وبأية جريرة منكرة أخذهم الله أخذة رابية^[٦]! وثمت ترى الشعراني يجعل من هذه الفاحشة الموبقة كرامة لسادته

[١] يوجد بين هذه الجملة وما بعدها قوله: «ثم تدخل عليه فتجده صبياً وهكذا، ومكث نحو أربعين سنة في خلوة مسدود بابها ليس لها طاقة بدخل منها الهواء وكان يقبض انظر «الطبقات» ترجمة الشيخ حسين أبو علي، الجزء الثاني.

(٣) ص ٨٠ المصدر السابق. يقول الشعراني: عن قوم أرادوا قتل الشيخ حسين أبو علي: «فدخلوا على الشيخ فقطعوه بالسيف وأخذوه في تليس ورموه على الكوم، وأخذوا على قتله ألف دينار ثم زصبحو فوجدوا الشيخ حياً رضي الله عنه» جالساً، فقال لهم: غركم القمر». انظر المصدر المشار إليه نفس الصفحة.

[٤] «الشبق»: شدة الشهوة.

(٥) ص ١٢٢٢، ١٣٢ ج ٢ طبقات ط صبيح ويقول الشعراني عن أبي خودة: «وكان رضي الله عنه إذا رأي امرأة، أو أمراً راوده عن نفسه، وحسس على مقعدته سواء كان ابن أمير أو ابن وزير ولو كان بحضرة والده أو غيره، ولا يلتفت إلى الناس».

[٦] قال الله تعالى على فرعون وقومه: «فَاخْذُمُوهْ أَخْذَةَ رَبَّيْهِ» [الحاقة: ١٠]، ومعناها: رائدة في الشدة عن غيرها.

هؤلاء! معقباً على ذكر كل جريمة يقتربها فاسق منهم بقوله: «رضي الله عنه!» ولا تعجب، فتلصق الجريمة دين الصوفية من قديم. قال يوسف بين الحسين الرازي: «نظرت في آفات الخلق، فعرفت من أين أتوا، ورأيت آفة الصوفية في صحبة الأحداث، ومعاشرة الأضداد، وأرفاق النسوان»^(١). وإنه ليعترف بعدها بما يدينه بتلك الخطايا فيقول: «كل ما رأيتموني أفعله، فافعلوه إلا صحبة الأحداث، فإنه أفتن الفتن»^(٢) ويقول: «عاهدت ربي أكثر من مائة مرة، ألا أصحب حدثاً، ففسخها على حسن الحدود، وقوام القدود، وغنج العيون، وما سألني الله - تعالى - معهم عن معصية»^(٣) ويقص الخراز أنه رأي إبليس في النوم، فقال له: «تركت لي فيكم لطيفة. قلت: ما هي؟ قال: صحبة الأحداث، قال أبو سعيد: «قل من يتخلص من هذا من الصوفية»^(٤).

ولقد وبخ الله سبحانه قوم لوط بقوله: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥] ولعنهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، فما بالك بالصوفية؟! وقد اقتربت هذه الجريمة في صورة نكراء منكرة مسفة في الخزي والضعفة والحقارة، اقتربتها مع الذكران ومع العجماوات من الدواب! وأين؟ على قارعة الطريق، وعلى مشهد من كل رائح إلى السوق، أو غاد منه! ذلك ما ذكره الشعراني، وجعله كرامة ربانية لأوليائه، ويزيدها تفصيلاً، فيزعم أن «وحيشاً» كان يرغب صاحب الدابة على أن يستذلها له عند اقتراف الجريمة^(٥)! وينازعني الحياء؛ لكيلا أسطر لك جرائم الصوفية بأسلوب الشعراني، فخذ بكتابه، وطالع فيه أية ترجمة لصوفي، وثمت تطالعك الجريمة بوجهها الدميم الصفيق الغليظ المنكرا!

(١) ص ١٩٠ «طبقات الصوفية» للسلمي.

(٢) ص ١٨٩ «نفس المصدر».

(٣) ص ١٩١ «نفس المصدر».

(٤) ص ٢٣٢ «نفس المصدر».

(٥) طالعها في «الطبقات» ج ٢ ص ١٣٥ ط صبيح.

رمة تتصرف في الوجود

يقول الشعراني: «إن شيعي [العارف بالله - تعالى - محمد الشناوي - رضي الله عنه - أحد أعيان بيته - رحمه الله - قد كان] أخذ على العهد في القبة تجاه وجه سيدي أحمد البدوي [رضي الله عنه]، وسلمني إليه بيده، فخرجت اليد الشريفة من القبر^(١)، وقبضت على يدي، [و] قال سيدي^[٢]: يكون خاطرك عليه، واجعله تحت نظرك، فسمعت سيدي أحمد [رضي الله عنه] يقول من القبر: نعم».

[وقال]^[٣]: «ولما دخلت بزوجتي [فاطمة أم عبد الرحمن]، وهي بكر، مكثت خمسة أشهر لم أقرب منها، [فجاءني]، وأخذني، وهي معي، وفرش [لي] فرشاً فوق ركن [القبة التي على يسار الداخل]، وطبخ لي حلوى، ودعا الأحياء والأموات إليه، وقال: أزل بكارتها هنا، فكان الأمر تلك الليلة، وتخلفت عن [ميعاد] حضوري للمولد [سنة ثمان وأربعين وتسعمائة]، وكان هناك بعض الأولياء، فأخبرني أن سيدي أحمد البدوي [رضي الله عنه] كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح، ويقول: أبطأ عبد الوهاب، ما جاء!».

ثم يزعم أن البدوي يدعو العرب والعجم ويسوقهم إلى مولده، وأنه أرى الشعراني كثيراً من الأحياء والأموات من الشيوخ والزمنى باكفانهم يمشون ويزحفون معه يحضرون المولد^(٤)! ويقول عن الحريشي: «قصده في حاجة،

(١) يذكر الصاوي في حاشيته على شرح الخريدة للدردير، أن الرفاعي وقف تجاه قبر الرسول، ونجاه بهذين البيتين:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني، وهي نائبي
وهذه دولة الأشباح، قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي!!

قالوا: فخرجت اليد من القبر. ويظهر أن الشعراني أبي إلا أن تكون له ولسيده البدوي تلك الكرامة!!
[٢] في الأصل بعد «سيدي» كلمة «الشناوي» وهي غير موجودة في الطبقات، ولعل المؤلف رادها لأنه حذف الاسم في بداية النقل.

[٣] في الأصل كانت هذه القطعة ملتحمة مع سابقتها، ولكن نظراً لأنه يوجد كلاماً محدوداً فصلناها.

(٤) اقرأ ترجمة السيد البدوي في «طبقات الشعراني».

وأنا فوق سطوح مدرسة أم خوند بمصر، فرأيتُه خرج من قبره يمشي من دمياط [وأنا أنظره] إلى أن صار بيني وبينه نحو خمسة أذرع، فقال: عليك بالصبر، ثم اختفى! (١).

هنا يكاد الإنسان يفقد عقله!؛ إذ لا يتصور حتى ممن به مسكة ولهى من عقل أن يهرف، ويخرف بمثل ذلك الخبال ولكن لا عجب، فكل صوفي عدو للعقل فوق عداواته للشرع. كل صوفي يؤمن بأن «الذوق» وحده هو وسيلة المعرفة، أما العقل عندهم؛ فطاغوت أخرق، وأما الشرع؛ فمادّية تنشب مخالبتها في الصخر، دون أن ترمق السماء بنظرة واحدة! أو هو نوع من عبادة التاريخ الميت؛ ولهذا تتباين عندهم قيم الأشياء، تبعاً لتباين الأذواق!، وقد يرى الصوفي الباطل، فيما يرى غيره فيه الحق!، ولا يضيرهم أن يتوتر التناقض بين ما يؤمن به صوفي، ويكفر به آخر غيره، فكلاهما في الدين الصوفي على حق.

ولعل هذا سرّ فرقتهم «من اعترض، انطرد!»؛ إذ ربما حكمت بالشرع أو بالعقل على شيء ما بأنه باطل، وهو في «ذوق» (٢) شيخك حق! فتعرض نفسك للطرد من حظيرته.

على هذا يحمل الشيوخ الدراويش، ويستعبدونهم، فما يفعل الشيخ من شيء، إلا ويوحى إلى درويشه أنه فعله عن أمر إلهي، وإن يكن ما فعله خاطئة خاطئة. ولا يملك الدراويش إلا أن يؤمن! ألا ترى الجنيد يجيب - حين سئل: أيّني العارف؟ - بقوله: «نعم! وكان أمر الله قدراً مقدوراً!»! حقّ لوّنه بباطل.

(١) ج ٢ ص ١٥٤ المصدر السابق ويروون أن رجلاً قصد إلى ضريح صوفي «مشتكها فمد له من القبر يعود الريحان خطاباً مكتوباً فيه بيت من الشعر لم يجف مداده» انظر ص ٣١٨ ج ٢ شرح الحكم لا بن عجيبة.

(٢) يعرف القيصري الذوق بقوله: «ما يجدّه العالم على سبيل الوجدان والكشف لا البرهان والكسب، ولا على طريق الأخذ بالإيمان والتقليد» ص ١٩٣ مطلع خصوص الكلم، أو هو «أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية عند أدنى لبث من التجلي البرقي» ص ١٠١ جامع الأصول للكمشحاني، ويقول ابن عربي: «أعلم أن العلوم الذوقية الحاصلة لأهل الله مختلفة باختلاف القوى الحاصلة مع كونها ترجع إلى عين واحدة» ص ١٠٧ «فصوص الحكم» ط الحلبي، ويعني بالعين الواحدة: الذات الإلهية!!.

ذلك الجنيد! زانٍ ويسميه عارفاً! أي مؤمناً بلغ ذروة الإيمان، لأنه رأي القضاء في لوح الغيب فنفذه! (١).

والرسول ﷺ يقول: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» [٢].

تنكر الصوفية على العقل أنه وسيلة إلى المعرفة، ويرهقها حقاً منه أن يحكم بالمغايرة بين الضدين، أو بين النقيضين، وتنكر على الشرع تفرقه بين الإيمان والكفر، أو الخير والشر؛ إذ لا تؤمن بغير «الذوق» سماءً وحي، وقدس إلهاماً!

ولهذا كان من اصطلاحاتهم المشهورة: «من ذاق عرف» أي من جعل «الذوق» وحده الوسيلة إلى المعرفة، كان حقاً من العارفين بكنهه الحقائق الربانية!

أرأيت إلى الشعراني يؤكد أن سيده البدوي حَيٌّ رغم تعفن البلي في رتمه!؟ وأنه يطبخ ويغسل، ويدعو الأحياء والموتى إلى مولده؟، أرأيت إليه يؤكد أنه حين أخطر «الحريشي» في باله، قام من قبره، وهرول إلى مصر على قدميه من دمياط!؟.

حجة من الحق

أسألك - وما تُضنّيني [٣] كثرة التساؤل - ألهذه الوثنية صلة بالقرآن، أو فكر!؟ هذا رسول الله ﷺ، وقد وُوري في قبره، فيعز على ابنته فاطمة أن يهيل أصحاب أبيها العظيم التراب على وجهه الكريم، فتقول ملتاعة القلب بالأسى والحزن: «أَوْ هَانَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَهِيلُوا التُّرَابَ عَلَى وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ؟».

ويجيبها أنسٌ بالحق، يأسو في قلبها الحزين لوعة العاطفة، ويُجَلِّي عنه راناً [٤] الهموم: «لَوْلَا أَنَّنَا أُمِرْنَا بِذَلِكَ، مَا فَعَلْنَاهُ».

(١) يقول الدباغ: «إن الولي الكبير فيما يظهر للناس بعصي، وهو ليس بعاص، وإنما روحه حجبت ذاته، فظهرت في صورتها، فإذا أخذت في المعصية فليست بمعصية» ص ٤٣ ج ٢ الإبريز. ويقول: «يتصور في طور الولاية أن يقعد الولي مع قوم يشربون الخمر، وهو يشرب معهم، فيظنونه أنه شارب الخمر، وإنما تصورت روحه في صورة من الصور وأظهرت ما أظهرت» ص ٤١ «المصدر السابق». وهكذا يقررون أن الرذيلة فضيلة.

[٢] رواه البخاري (٣٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠) ومسلم (٥٧).

[٣] «أضنى» المرض الإنسان: أثقله.

[٤] «ران»: غلب؛ أي يجلى غلبة الهموم التي على قلبه.

فَرْقِي الضَّوْفِيَّةَ

ترى لِمَ لَمْ يَقْصِلْ رسولُ الله بعد موته في الخصومة التي احتدمت بين وزيره الأول أبي بكر، وبين ابنته الحبيبة فاطمة؟ ولِمَ لَمْ يحل بين عائشة وبين يوم الجمل؟ ولِمَ لَمْ يُنْذِرْ عمرَ بالمكيدة التي دبرت له حتى قُتِلَ بها؟ ولماذا لم يحل بين خنجر المجوسي وبين صدر عمر الغامر^(١) الإيمان؟ ولماذا لم يحم عثمان ذا النورين من قاتله؟! وعلياً من السكين الحاتلة القاتلة؟

وهذا ريحانته سيد شباب الجنة الحسين عليه السلام يحيط به عدوه كاليأس الظلوم بالأمل الكريم، وها هو يرفع على يديه طفله في عمر الزهرة النديّة، ثم يناشد عدوه حَسَوَةً من ماءٍ يبيل بها غليل عصفوره الظمآن!

فلم ينل إلا سهماً غادراً ينفذ إلى صدر الصغير الرقيق!

فلماذا لم يمدد رسول الله عليه السلام يديه بكأس من سلسبيل؟ أو ليمنع السهم الغادر عن هَتَكِ الشُّغَافِ من الطفل الصغير، ومن قتل أبيه البطل الأبيّ الكريم؟
جواب ذلك كله: لأنه عليه السلام كان لا يملك شيئاً يمدّهم به، أو يعين، إذ هو ميت، ولم يَرَوْعْ عنه في حديث صحيح أو ضعيف، ولا في تاريخ يعني بالحقائق أو الاساطير، أنه أمدّ بشيء، أو أعان بعونٍ ما، بعد أن توفاه مَلَكُ الموت الذي وُكِّلَ به.

فلو أن الله - سبحانه - أعطى خصائص الحياة الدنيا في القبر لميت يعين بها الأحبة، أو يمدّهم بتدرة منه، لوهبها لمحمد عليه السلام! بيد أنك ترى هذه الأحداث الجسام تدهم خيار الصحابة، والبَرَّةَ الرياحين من آل بيته، فلا نسمع أنه عليه السلام أمدّهم بشيء!؛ لأنه لا يقدر على ذلك!

أما البدوي رغم موته، فينعم بالحياة الزاخرة القادرة في الدنيا، ويهبها لمن يشاء من الموتى، ويقضي حوائج الخلق، ويعطي العهود، ويكلم الطائفين حول صنمه، وهو رمة عفنة!

(١) أما الشعراني، فيحدث عن كرامة سيده الشريف المذدوب، فيقول: «ولما طعن أصحاب التوبة سيدي علياً الخواص جاءه الشريف، ورد عنه الطعنة» ص ١٣٥ ج ٢ «الطبقات»!

ألا ترى الشعراني يحب أن يؤكد لك أن هذا البدوي الأسطوري العجيب، أفضل وأكرم عند الله من سيد الخلق؟!.

صوفي يحبر الأمر

يقول الدباغ: «رأيت ولياً بلغ مقاماً عظيماً، وهو أنه يشاهد المخلوقات الناطقة والصامتة، والوحوش، والحشرات، والسموات، ونجومها، والأرضين وكرة العالم بأسرها تستمد منه، ويسمع أصواتها وكلامها في لحظة واحدة، ويمد كل واحد بما يحتاجه، ويعطيه ما يصلحه من غير أن يشغله هذا عن ذاك»^(١).

يصف عبداً بصفات الربوبية والإلهية!! ويقول أحمد التيجاني^(٢) عن نفسه: «روحي» روحه ﷺ تمد الرسل والأنبياء، وروحي تمد الاقطاب والعارفين من الأزل إلى الأبد^(٣)، وإذا جمع الله تعالى خلقه في الموقف ينادي مناد بأعلى صوته يسمعه كل من في الموقف: يأهل المحشر، هذا إمامكم الذي كان مددكم منه، كل ما فاض من ذوات الأنبياء تتلقاه ذاتي: ومني يتفرق على جميع الخلائق»^(٤) ويصفه تابع له بقوله: «إذا توجه أعنى وأقنى، وبلغ المنى»^(٥) ويصفه آخر بقوله: «لا يتلقن واحد من الأولياء فيضاً من حضرة نبي إلا بواسطته»^(٦) وآخر بقوله: «نفوذ بصيرته الربانية التي ظهر مقتضاها من إظهار مضمرات، وإخبار بمغيبات، وعلم بعواقب الحاجات، وما يترتب عليها في المصالح والآفات»^(٧).

ويقول البسطامي: «رفعني - أي الله - فأقامني بين يديه وقال لي: يا أبا يزيد: إن خلقي يحبون أن يروك، فقلت: ربني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديتك، حتى إذا رأيته خلقك، قالوا: رأيناك لتكون أنت ذاك،

(١) ص ٧٣ ج ٢ الإبريز للدباغ.

(٢) أحمد بن محمد أبو العباس ولد سنة ١١٥٠ هـ.

(٣) نفس ما ادعاه لنفسه الطاغوت ميرزا حسين علي الملقب بالبهاء!!

(٤، ٥، ٦، ٧) ص ٥ ج ٢ «رماح حزب الرحيم» وما بعدها، ص ٣ «جواهر المعاني» ص ٤٦، ٤٧ ج ١

لعلي حرازم.

ولا أكون أنا هناك»^(١). وَنَعْتُ «حرازم» للتيجاني، بأنه يُغْنِي وَيُقْنِي، ويعلم الغيب، نَعْتُ له بصفات الله، فالله سبحانه يصف نفسه بقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ [النجم: ٤٨] ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [٢٦] إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

الكلاب أولياء الصوفية

إن البشرية في الأغوار السحيقة من تاريخها المظلم، وفي تيهها الوثني، لم تؤله كلباً، بيد أن الصوفية أرادت التجديد في صور الشرك، وأن تبتدع أصناماً جديدة، فألهمت ما لم تؤله أخطأ الوثنيات في التاريخ!

نقلت لك عن التلمساني اعتقاده أن رمة الكلب، هي ذات الرب الصوفي!، وعن محمد بهاء الدين ما نقله عن مشائخه من تاليه الكلاب والخنازير، فاسمع إلى الشعراني يحدثنا عن كرامات سيده العجمي:

«وقع بصره»^[٢] على كلب، فانقادت إليه جميع الكلاب، وصار الناس يهرعون إليه في قضاء حوائجهم، فلما مرض ذلك الكلب، اجتمع حوله الكلاب يَبْكُون، [ويظهرون الحزن عليه]^[٣]، فلما مات، أظهروا البكاء والعويل، وألهم الله - تعالى - بعض الناس، فدفنوه، فكانت الكلاب تزور قبره، حتى ماتوا، فهذه نظرة إلى كلب، فعلت ما فعلت فكيف لو وقعت على إنسان؟^(٣) ويقص الشعراني عن هذا العجمي: إنه كان يخرج من خلوته، فكل من وقع عليه نظره، انقلبت عينه ذهباً خالصاً^[٤]!!

إنك وحق

ترى ينافحك الرضى يا سماحة الشيخ عما افتراه الشعراني؟! إني أصبح

(١) اللع للطوسي ص ٣٨٣ مطبعة بريل بليدين. (٢) ص ٦١ ج ٢ الطبقات ترجمة العجمي.

(٣) نفس المصدر السابق وهذا معناه أنه رجل شديد الخطورة على الإنسانية، فكيف يكون ولياً من يكون سبياً في حرمان الناس من نعمة البصر؟ كيف يكون ولياً وهو نكية على المجتمع؟

[٤] نقل المؤلف هذا القول بالمعنى وهو في «الطبقات»: وكان - رضي الله عنه - إذا خرج من الخلوة يخرج وعيناه كأنهما قطعة جمر تتوقد فكل من وقع نظره عليه انقلبت عينه ذهباً خالصاً «الطبقات» ترجمة يوسف العجمي الكوراني، الجزء الثاني.

صيحة مدوية بالحق لعلها تهز ضميرك الديني، وأسألك: أسائل ما تعلمته في الأزهر، حتى وصل بك إلى منصب القوامه المقدسة عند الصوفية على دينهم، هذا الدين الذي يفترى له كهنته وأحباره أنه ربيع الحياة الروحية الرَّقَّافُ بالخير والحب!!، ومعين الهداية الفياض بالحق والحكمة!!، وأقباس من النور الأزلي، على أشعته يصل إلى هدفه الأبد والخلود!!، ومجالى الفردوس حيث الحور مَجْلَوَاتُ الجمال، وحيث الملائك في سجود التسابيح!!، أما هذا الدين في نظر الحق؛ فَنَفَايَات مَجْتَهَا مجوسية الفرس، والهند، وزندقة الغنوصيين، وإلحاد الفلاسفة، ووثنية الصابئة وعبداء الأصنام!، إنه حماة الشر والفساد من دين أولئك جميعاً، بيد أن لطواغيته أسماء إسلامية، ففتنوك بهذا الشَّفِّ الرقيق، فلم ترهم، وهم يدسون السم لك في الرحيق!!، إنه أخس دين عُبيد به الشيطان، إذ أَفْتَنَ في افتراءٍ بِدْعِهِ!!، إنه السم الزعاف يقسم لك: إنه سُلَاقَةُ الخلود!!، والأفوان الحقود يزعم: أنه ملاك رحمة ومحبة!!، والليلة السوداء في قبر المشرك تؤكد لك أنها وضاعة صبح الجنة!!، والدمامة الشوهاء تتراءى في الماخور الدنس بَرَزَةً تَنَقَّلْ أنوثتها الطاغية!!، إنه الصوفية تزعم أنها إسلام!!.

خزى صوفي

ولقد سجل هذا الخزى والعار مستشرق إنجليزي صاحب الصوفية في مصر فأعطته العهد ثم مضى - بعد ابتلائهم - يسجل عليهم مخازيها، ويرمي بها المصريين جميعاً في كتابه: «يزور المصريون الأضرحة معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات، وإما بقصد التماس البرء من مرض، أو طلب النسل، ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله، ويقدمون لهم النذور»^(١).

ويقول: «وقد جرت العادة أن يقوم المسلمون^(٢) كما كان يفعل اليهود بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها وتغطية التركيبة أو التابوت

(١) ص ١٦٧ وما بعدها كتاب «المصريون المحدثون» للمستشرق «لين» والمسلمون أبرياء من هذا الشرك الذي يفتريه الصوفيون، ويرمي به الرجل جميع المسلمين.

(٢) يحمل على المسلمين وأوزار الصوفية، فما يفعل هذا مسلم، ولكنها الصوفية.

أحياناً بغطاء جديد، وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعل اليهود». ويقول جولد زيهر - وهو يتحدث عن بدعة الموالد: «وكان علماء المسلمين لا يزالون حتى القرن الثامن الهجري يعدونه - أي الاحتفال بمولد النبي - مخالفاً للسنة، ونهت عنه غالبيتهم على اعتبار أنه بدعة مستحدثة في الإسلام.. وتنطبق هذه الحالة أيضاً على أعياد دينية أخرى، نشأت في القرون المتأخرة، واضطرت أن تجاهد؛ لكي يقرها العلماء بعد أن وصموها دهرًا طويلاً: بأنها من البدع الدخيلة»^(١).

ويقول جوتييه: «وتقديس الأولياء إلى درجة قد تقرب من العبادة الذي نراه انتشر بعد في جميع الأقطار الإسلامية، يشير في الحقيقة إلى رد فعل من الأمم والشعوب التي فتحها الإسلام ضد العقلية الإسلامية التي لا تسلم بوسطاء أو شفعاء لدى الله. إنه لم يشر ضد إجلال الأولياء والرسول إلى ما يقرب من العبادة أي ضد هذا التغيير الخطير في العقلية الإسلامية الأولى إلا الطائفة الوهابية»^(٢).

لا يسوءنا أن يسجل هذه المخازي أولئك المستشرقون، ويحملونها على المسلمين جميعاً، ولكن الذي يجب أن نخزي به، هو أن ندع هؤلاء الصوفية يقتربون هذه الجرائر، وينفثون سمومها، فيكيد للإسلام بها عدوه، ويرمي المسلمين جميعاً بالحماقة والغباوة وعبادة الأساطير، ويقول في كل كتاب: هذا هو الإسلام!! وهم يوقنون أنه دين الصوفية، لا دين الله، ولكنهم عدو يهتبل الفرصة؛ ليمحق بها عدواً له، ربما أخذتنا العزة ضد هؤلاء المستشرقين وحدهم، بيد أن الواجب هو أن تأخذنا العزة بالحق، فنجتث الصوفية من أصولها، وكفهاها أن جعلت عدو الإسلام يحمل كل خزي لها عليه!! ليس أولئك المستشرقون هم عدونا الأول، وإنما عدونا من ملئهم هذا السلاح يقاتلوننا به، وليس غير الصوفية!!

(١) ص ٢٢٧ «العقيدة والشريعة».

(٢) ص ١٥٨ «المدخل» تأليف جوتييه ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى، أما الوهابية فكلما ابتدئها أعداء الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب مقابل نقده الحق للعصبة المذهبية المقتية.

أنواع الكرامات

يزعم المناوي أن للصوفيين أنواعاً من الكرامات .

« النوع الأول : إحياء الموتى ، وهو أعلاها ، فمن ذلك أن أبا عبيد اليسري غزا ، ومعه دابة ، فماتت ، فسال الله أن يحييها ، فقامت تنفض أذنيها ، وأن مفرجا الدماميني أحضر له فراخ مشوية فقال : طيري بإذن الله تعالى ، فطارت . ووضع الكيلاني يده على عظم دجاجة أكلها ، وقال لها : قومي بإذن الله ، فقامت ومات لتلميذ أبي يوسف الدهماني ولد ، فجزع عليه ، فقال له الشيخ : قم بإذن الله ، فقام ، وعاش طويلاً ، وسقط من سطح الفارقي طفل ، فمات فدعا الله ، فأحياه » (١) .

نفس المعجزات التي من الله بها على إبراهيم وعيسى ، وعلى الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها !! ، ويقول الكلاباذي : « أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء ، كالمشي على الماء ، وكلام البهائم ، وطَيُّ الأرض ، وظهور الشيء في غير موضعه » (٢) .

وقد نظمها حسن رضوان :

وإن تجلّى جلُّ شسئله على	وليّه بقدرة تجمّلا
وشاهد الأشياء تحت قبضته	وانهاتكونت عن قدرته
شهود غيب ، غير أنه ظهر	عليه منه في الشهادة الأثر
ومن هنا أحوال أرباب ألهمم	كمشيهم فوق الليله بلقّدم
أو الهواء ، أو على السحاب	أو طيُّ أو خبر من لترباب
أو غير هذا من أمور خارقة	لعادة ، والشرط أن توافقه (٣)

(١) ص ١١ « الكواكب الدرية » لعبد الرؤف المناوي ط ١٩٣٨ م .

(٢) ص ٤٤ « التعرف لمذهب أهل التصوف » للكلاباذي ط ١٩٣٣ م .

(٣) ص ٢٣٩ « روض القلوب المستطاب » .

ومن هنا دانت الصوفية بأولياء لهم « التصرف العام والحكم الشامل العام في جميع المملكة الإلهية، وله بحسب ذلك الأمر والنهي والتقرير والتوبيخ والحمد والذم »^(١).

ويتحدث الكوهني عن معجزات سلامة الراضي: « حملت إحدى زوجات الإخوان، وفي التاسع مات الجنين، وبقي عشرة أيام ميتاً يبطن أمه، وعند الوضع ذكر هذا الأخ شيخنا، فقال: كذلك يا فلان؟! وبتمامه تم الوضع طبيعياً كأن لم يكن هناك وليد مات منذ عشرة أيام. وأحد الإخوان كُفَّ بصره، فذاكر حضرة الأستاذ، فقال له: إن كتبت الأمر، أبصرت، فرضي بالشرط فمسح على عينه، فأبصر، وكان لبعض وجهاء بندير الجيزة ابنة وحيدة أصابتها حمى، وبعد شفائها، خرس، فلم تتكلم أبداً، فعرضوها على الأطباء سنوات، فلم تُشَفَّ، فأحضرها لشيخنا، ونظر إليها نظرة، فسألها عن اسمها، فنطقت به، وذهب خرسها في الحال »^(٢).

نفس المعجزات التي من الله بها على عيسى عليه السلام.

وهكذا تدين الصوفية بأن من أوليائها من يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وكثير من هؤلاء الذين نسبت إليهم تلك القدر الإلهية طائفة تمردت على الله تمرد الشيطان!

الصوفية يملكون كلمة التكوين

تزعم الصوفية أن شيوخها يقولون للشيء: كن، فيكون، فيتحدث أحدهم عن الولي الذي استخلفه الله، فيقول: « إنه خليفة يملكه الله كلمة التكوين متى قال للشيء: كن، كان من حينه »^(٣).

(١) ص ٧٩ ج ٢ « جواهر المعاني » لحرازم.

(٢) ص ٢٥٨ « طبقات الشاذلية الكبرى » للحسن بن محمد الكوهني الفاسي، وقد ألف كتابه في حياة شيخه الذي مات من عهد قريب جداً.

(٣) ص ٨ ج ٢ « جواهر المعاني » لعلي بن حرازم.

ويقول أبو السعود: «إن الله أعطاني التصرف منذ خمس عشرة سنة، وتركناه نظرفاً، ويعلق ابن عربي على هذا بقوله: «وأما نحن، فما تركناه نظرفاً [وهو تركه إيثار] وإنما تركناه لكمال المعرفة»^(١) ترى ماذا كان يعمل الله، وأبو السعود يتصرف في الوجود؟. هكذا يجعل الصوفية أولياءهم شركاء لله.

معجزات الرسل من قهرة الله

أما رسل الله، فما كانت معجزاتهم طوع أيديهم، كما تزعم الصوفية لشيوخها، ولا بأمرهم، وإنما كانت بيد الله وحده، وبأمره، يكرم بها نبيه متى شاء سبحانه، لا متى شاء الرسول. ما ضرب موسى بعصاه الحجر، أو البحر بأمره، وما انقلب البحر بقدرته، وإلا ففيم كان خوف موسى من أن يدركه فرعون وجنوده، لو أنه كان حتى على ظن من قدرة عصاه على فلق البحر؟!

بل لماذا مسته رعدة الخوف حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، حتى ثبته الله بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨] أهذه آية قدرة على صنع المعجزات؟ أم هو العجز البشري يضرع في صدق إلى قدرة الله المنقذة؟ وما نزل جبريل بالقرآن على محمد بأمره، أو إرادته، بل بأمر الله وحده وإرادته ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وتدبر، يتجل لك الهدى بينا من قوله سبحانه: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ما قالها إبراهيم، وإنما القائل لها - لأنه القادر عليها - رب إبراهيم. فأين من هذا زعم الصوفية، أن شيوخها يُصَرِّفون أقدار الوجود بنزغات الهوى، وعواء الشهوات؟! ويقولون للشيء كن، فيكون؟! تعالى الله عما يافك الخراصون^[٢] علواً كبيراً!

ثم ماذا يستفيد الخلق من دجاجة يردّها الكيلاني إلى الحياة؟، ومن دابة، يحيي اليسري منها العظام، وهي رميم؟!، ومن كرامات الحريشي ووحيش يقترفان بغى الجريمة على مدرجة الطريق؟!

إن الصوفية - كما رأيت - قد حكمت بأن معجزات أولي العزم من الرسل طُوع الهوى من ألبله الخرقى المشعبد^[١] من أوليائهم! فماذا يمنع أدعياء الصوفية من الزعم بأن الله - سبحانه - أوحى إليهم قرآناً، كما أوحى إلى محمد^(٢)، مادامت الصوفية تحكم بأن معجزات الرسل أثارة من قدرة المعتوهين، ومقترفي الإثم والخطايا؟ بل مادمتم يا كهنة الصوفية قد حكمتم بأن لأوليائكم حياة كحياة الله، وقدرة قهارة شاملة، كقدرته، فالله - سبحانه -، يقول: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾ [يس: ٧٨] ولقد زعمتم أن إحياء العظام، وهي رميم من قدرة أوليائكم؟، ولا ريب في أن من يقدر على أن يهب لغيره الحياة، قادر على أن يهب الديمومة لنفسه، والخلود الأبدي لحياته. وإلا، فكيف يهب لغيره، ما لا يهب، أو يستطيع أن يهبه لنفسه؟!.

أرأيت إلى الصوفية، كيف يصفون الحمقى الشاردين في تيه الضلالة بما يوصف به الخلاق العلي الكبير وحده؟

رجاء آخر

بودي أيها الصوفي - وإنه لود الإخلاص الصادق - أن ترفع على راحتك^[٣] كتاب الله، ثم تتدبر بعض آياته بالفكر البصير، والقلب الخشوع، والنفس المستعبدة، ويقيني أنك حيثذ، ستثور ثورة العاصفة على عاد، تدمر أصنام الصوفية وأوثانها، وترجم باللعنات الغضاب طقوسها وكهنوتها، وستغمر نفسك القلقة سكينه الإيمان، ويقين التوحيد.

إننا في قرن حطم العلم فيه الذرة، الجوهر الفرد الذي دان به الأشاعرة ركناً سادساً من أركان الإسلام، فهل يمكن أن تعين - أعانني الله وإياك - على تحطيم تلك الطواغيت الصماء، تقف عقبة كثوداً في سبيل الوصول إلى الله، وتنشر الخرافات العفنة والأخلاق العفنة، وتجمع حول عفونتها ذباباً عفناً كثيراً!.

[١] «المشعبدين» و«المشعبدين» و«المشعودين»: كلها معانٍ مترادفة.

(٢) ادعاه ربيب الصوفية ميرزا محمد علي الملقب «بالباب» ومن بعده مسليمة ميرزا حسين علي الملقب «بالبهاء». وادعاه غلام أحمد القادياني^{١١}. [٣] مشى راحة: وهي الكف.

سماع نطق الجمادات

يعدد ابن عربي أنواع الكرامات، فيقول: «ومنها سماع نطق الجمادات على مراتب نطقها في العوائد وخرقها»^(١).

والله يقول: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فهل نصدق المفتري؛ لنكذب الله سبحانه؟!

[وقال]:

«ومنها مكالمته للملا الأعلى ومحدثته لهم»^(٢).

ترى اكلم الصديق وعمر الملا الأعلى؟ بل اكلمه الرسل قبل البعثة، أو في غير أوقات الوحي؟ ولكن مَنْ الرسل عند الصوفية؟ إن أي زنديق صوفي أفضل عندهم من خاتم النبيين، ألا ترى البسطامي يفتري: «تالله، إن لوائي أعظم من لواء محمد»^(٣) ويقول: «لأن تراني مرة، خير لك من أن ترى ربك ألف مرة»^(٤).

صوفي يطوف بالملكوت

يخاطب صوفي ربه بقوله: «إن قومًا طلبوك، فأعطيتهم طي الأرض، والمشي على الهواء، وكنوز الأرض، فانقلب لهم الأعيان» ثم يتحدث عما أنعم عليه به ربه، فيقول: «أدخلني في الفلك الأسفل، فدورني في الملكوت السفلي، فأراني الأرضين، وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي، فطوف بي في السماوات، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه، فقال لي: سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك، فقلت: يا سيدي ما رأيت شيئاً استحسنة، فأسألك إياه»^(٥).

حتى عرش الله، لم يستحسنة هذا الصوفي الوقح، ومع ذلك يزعم أن الله قال له: «أنت عبيدي حقاً».

(١) ص ٧٥ «مواقع النجوم» لابن عربي ط ١٣٢٥ هـ.

(٢) ص ٨١ «المصدر السابق»، وقد أخدها ابن عربي عن أستاذه الغزالي، وراد هذا فقال: إن الولي يُنادى من سرادقات العز، كما نوّدي موسى!!.

(٣) عن السهلي والشعراني في «لطائف اللغز»، ص ١٢٥، نقلاً عن «شطحات الصوفية» للدكتور بدوي.

(٤) «المصدر السابق».

(٥) ص ١٠٣ «قوت القلوب» لابي طالب المكي ط ١٣٥١ هـ.

أتراه، وهو يطوف بجوف الأرض، لم ير «البتروول»، فيدل على مكانه قومه ١٩.

والبيومي^(١) يزعم أنه رأى الشيخ دمرداش في السماء، وأنه قال له: لا تخف في الدنيا ولا في الآخرة، وأنه كان يرى النبي في الخلوة، وأنه سمعه يقول لأبي بكر: اسع بنا نطل على زاوية دمرداش، وأنه دخل على السيد البدوي، ورأى النبي عنده، وأنه خشي أن يكون واهماً في رؤية النبي، فرأى الدمرداش عند ضريحه يقول له: مد يدك إلى النبي فهو حاضر عندي^(٢) [٣]!

صوفي يضمن الجنة لمن يطعم

يزعم طاغوت التيجانية الأول ما يأتي: «أخبرني سيد الوجود يقظة، لا مناماً: كل من أحسن إليك بخدمة، أو غيرها، وكل من أطعمك يدخلون الجنة، بلا حساب، ولا عقاب، فسألته لكل من أحبني، ولكل من أحسن لي بشيء من مثقال ذرة، ومن أطعمني طعامه، كلهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب وسألته لكل من أخذ عني ذكراً، أن تغفر لهم جميع ذنوبهم، ما تقدم منها، وما تأخر، وأن يرفع الله عنهم محاسبته على كل شيء، وأن يكونوا آمنين من عذاب الله من الموت إلى دخول الجنة، وأن يكونوا كلهم معي في عليين في جوار النبي، فقال لي ﷺ: ضمنت لهم هذه ضماناً، لا تنقطع، حتى تجاوزني أنت وهم في عليين!»^(٤).

(١) علي بن حجازي بن محمد البيومي توفي سنة ١١٨٣ هـ.

(٢) ص ٣٢٠ ج ١ «عجائب الآثار» للجبرتي.

[٣] قال البيومي: «فمن من الله عليّ وكرمه، أنني رأيت الشيخ دمرداش في السماء، وقال لي: لا تخف في الدنيا ولا في الآخرة»، وكنت أرى النبي ﷺ في الخلوة في المولد، فقال لي في بعض السنين: «لا تخف في الدنيا ولا في الآخرة»، ورأيت يقول لأبي بكر - ﷺ: «اسع بنا نطل على زاوية الشيخ دمرداش، وجاءنا حتى دخلنا لي في الخلوة، ووقفنا عندي، وأنا أقول: «الله الله»، وحصل لي وهم في رؤية النبي ﷺ، فرأيت الشيخ الكبير، يقول لي عند ضريحه: «مد يدك إلى النبي ﷺ، فهو حاضر عندي». وقال البيومي عن شيخ له يدعى الكردي: «وأخذني الشيخ الكردي، وأوصلني إلى مكة، وأرانيها عياناً، ودخلت على السيد أحمد البدوي، وعنده النبي ﷺ، فحكم في وأنا أستغيث بالنبي ﷺ». انظر: «تاريخ الجبرتي»، (٣/ ٥٣٠ - ٥٣١).

(٤) ص ٩٧ وما بعدها ج ١ «جواهر المعاني في فيض التيجاني» لعلي حرازم.

والله سبحانه يقول لحمد: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]
ويقول محمد ﷺ لابنته فاطمة: «اعلمي فإنني لن أغني عنك من الله شيئاً»^[١]
وتشهد امرأة جلييلة لصحابي عند موته بقولها: أشهد أن الله قد أكرمك،
فيقول لها رسول الله ﷺ معاتباً، يضع الصواب مكان الخطأ: «وما يدريك أن الله
قد أكرمك؟ وإنني لأرجو له الخير والله إنني لرسول الله، ولكنني لا أدري ما يفعل
بي غداً؟»^[٢] أما التيجاني؟ لقد قرأت قوله، فبم تحكم عليه؟، غير أنني أضع
إصبعك على قوله: «وكل من أطعمك» لأريك مبلغ حرص الصوفية على
انتهاج أقوات الناس!؟

قلب الصوفي أوسع من عرش الله

يقول البسطامي: «لو أن العرش، وما حواه مائة [ألف ألف مرة] في زاوية
من زوايا قلب العارف، [ما] أحس [بها]، فقلب العبد الخصوصي بيت الله،
وموضع نظره، ومعدن علومه، وحضرة أسرار، ومهبط ملائكته، وخزانة
أنواره، وكعبته المقصودة، وعرفاته المشهودة»^(٣).

الملوكوت في بطن صوفي

والدبّاغ الفاطمي الهدف يقول: «إنني أرى السموات السبع والأرضين
السبع، والعرش داخلة وسط ذاتي، وكذا ما فوق العرش من السبعين
حجاباً»^(٤).

كرامات شتى

واقراً في طبقات المناوي زعمه أن الصوفية يخاطبون الموتى، وأن جده

[١] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله - عز وجل - : «وانذر عشيرتلك الأقربين» قال:
يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشترُوا أنفسكم من النار لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد
مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً... وفيه «ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني
عنك من الله شيئاً». رواه البخاري (٢٧٥٣، ٣٢٥٧، ٤٧٧١) ومسلم (٢٠٤، ٢٠٦).

[٢] رواه البخاري (١٢٤٣، ٣٩٢٩).

(٣) ص ١٢٠ ج ٢ فصوص الحكم لابن عربي ط الحلبي، ص ١٤١ مواقع النجوم.

(٤) ص ٧٣ ج ٢ الإبريز للدبّاغ.

خاطب الشافعي رحمته في قبره، وأن روح « ذا النون المصري »^(١) كانت تُدبر أجساماً عدة^(٢)، وأن الخوَّاص، كانت تنزل عليه الموائد من السماء، وأن الخضر كان يسقيه، وأقرأ فيه تفضيل البسطامي^(٣) الأولياء على الأنبياء^(٤) وأن طارقاً طرق بابه، فقال البسطامي: من تطلب؟ فقال: أبا يزيد، فأجابه: ما في البيت غير الله^(٥)، وأقرأ للسلمي زعمه أن داود والخضر، لقيا إبراهيم بن أدهم - وهو « بوذا » الصوفية - وخطباه، وأكلا معه، وعلماه اسم الله الأعظم^(٦).

الجنة والنار بيد من؟

يزعم الدسوقي أنهما بيديه، فيفتري: « أنا بيدي أبواب النار [غلقتها]، وبيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني أسكتته جنة الفردوس^(٧)، وما كان ولي متصلاً بالله، إلا وهو يناجي ربه، كما كان موسى عليه السلام يناجي ربه^(٨) ».

معجزات الرسل بعض كرامات الصوفية

يفتري الدباغ هذا البهتان المجوسي، فيقول: « كل ما أعطيه سليمان في ملكه وما سخر لداود، وما أكرم به عيسى، أعطاه الله وزيادة لأهل التصرف من أمة النبي، ومكنهم من القدرة على إبراء الأكمه والأبرص. وإحياء الموتى^(٩) ».

النشل كرامة صوفية

وأبي الدباغ إلا أن يفضح أقطابهم بهذه الكرامة، كرامة السرقة خلصة،

(١) هو ثوبان بن إبراهيم النوبي توفي سنة ٢٤٥ هـ.

(٢) سيأتيك زعم الدباغ أن روح القطب تدير ٣٦٦ جسداً.

(٣) هو طيفور بن عيسى أبو يزيد البسطامي توفي سنة ٣٦١ هـ.

(٤) هذا دين الصوفية، فابن عربي يقول:

مقام النبوة في برزخ فوق الرسول، ودون الولي

(٥) اقرأ كل هذا في « الكواكب الدرية » للمناوي في تراجم من ذكرت أسماءهم.

(٦) ص ٣٠، ٣٤ « الطبقات » للسلمي، ص ٨ « الرسالة » للقيصري.

[٧] بين هذا الكلام وما بعدها قوله: « وأعلم يا ولدي أن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، متصلون بالله، وما كان ولي متصلاً بالله... » الطبقات (١ / ١٨١).

(٨) اقرأ ترجمة الدسوقي في « الطبقات » للشعراني.

(٩) ص ١٢ « الإبريز » للدباغ ج ٢.

فيقول: «إن الولي صاحب التصرف، يمد يده إلى جيب من شاء، فيأخذ منه ما شاء من الدراهم، وذو الجيب لا يشعر»^(١) والدباغ قطب صوفي معبود.

أذلك على ردغة الوثنية في تلك الشُرَكِيَّات، أم تراها في غير حاجة إلى دلالة؟ وكذلك الظلام، وكذلك النتن، وكذلك الأيحموم الخائق!

الله - وتعالى علواً كبيراً - وعرشه وكرسيه، ملكة وملكوته، والعالم كله إنسه وجنه، حيوانه وجماده، علوه وسفليه، مبشاعر الناس وخواطهم وإرادتهم وعواطفهم وقلوبهم ونفوسهم، كل أولئك في دين الصوفية الآثم تحت قبضة طواغيتها، وبطشهم، وطوع سعار غرائزهم الضارية، وجنون شهواتهم المهومة الآبقة!

القطب وأصوله

أسطورة خرافية، تنزع إلى تجريد الله من الربوبية والإلهية، وخلعهما على وهم باطل سُمي في الفلسفة: «العقل الأول» وفي المسيحية: «الكلمة» وفي الصوفية: «القطب»!

والقطب: هو أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية، أو الواحد الذي هو موضع نظر الله في الأرض في كل زمان، عليه تدور أحوال الخلق، وهو يسري في الكون، وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، ويفيض الروح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وقد يسمى «الغوث» باعتبار النجاء الملهوف إليه^(٢).

القطب القديم والقطب الحادث

والقطب عند الصوفية نوعان؛ أحدهما: حادث أو حسي، وهو ما سبق الحديث عنه، والآخر قديم، أو معنوي، وهو الحقيقة المحمدية. يقول القاشاني:

(١) ص ١٤ المصدر السابق.

(٢) انظر «جامع الأصول» للكشمخانلي و«التعريفات» للجرجاني تحت مادة «قطب».

« وهو - أي القطب - إما قطب بالنسبة إلى ما في عالم الشهادة من المخلوقات يَسْتَخْلَفُ بدلاً منه عند موته من أقرب الأبدال منه، أو قطب بالنسبة إلى جميع المخلوقات في عالم الغيب والشهادة، ولا يَسْتَخْلَفُ بدلاً من الأبدال، ولا يقوم مقامه أحدٌ من الخلائق، وهو قطب الأقطاب المتعاقبة في عالم الشهادة لا يسبقه قطب، ولا يخلفه آخر، وهو الروح المصطفوي المخاطب بلولاك، لما خلقتُ الكون »^(١).

حقيقة القطبانية

يقول كاهن التيجانية الأكبر أحمد: « إن حقيقة القطبانية، هي الخلافة العظمى عن الحق مطلقاً في جميع الوجود جملة وتفصيلاً، حيثما كان الربُّ إلهاً، كان هو خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه في كل مَنْ له عليه ألوهية لله تعالى، فلا يصل إلى الخلق شيء كائناً ما كان من الحق إلا بحكم القطب، ثم قيامه في الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرات الوجود، فترى الكون كله أشباحاً لا حركة لها، وإنما هو الروح القائم فيها جملة وتفصيلاً، ثم تصرفه في مراتب الأولياء، فلا تكون مرتبة في الوجود للعارفين والأولياء خارجة عن ذوقه، فهو المتصرف في جميعها، وَالْمُمِدُّ لآربابها، به يُرْحَمُ الوجود، وبه يبقى الوجود في بقاء الوجود رحمة لكل العباد، وجوده في الوجود حياة لروحه الكلية وتنفس نفسه يُمدُّ الله به العلوية والسلفية. ذاته مرآة مجردة، يشهد فيها كل قاصد مقصده »^(٢).

علم القطب

يتحدث تيجاني عنه بقوله: « ومما أكرم الله به قطب الأقطاب، أن يعلمه

(١) ص ١٠٣ ج ٢ « كشف الوجوه الغر » للقاشاني، وقد ادعى ابن الفارض لنفسه أنه القطب القديم وقطب الأقطاب.

محيط، والقطب مركز نقطة
وقطبسية الأوتاد عن بدلية

في دارت الألاك، فاعجب لقطبها ال
ولا قطب قبلي عن ثلاث خلفته

(٢) ص ٨١ وما بعدها « جواهر المعاني ».

علم ما قبل وجود الكون، وما وراءه، وما لا نهاية له، وأن يعلمه علم جميع
الاسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات، وأن يخصصه بأسرار
دائرة الإحاطة، وجميع فيوضه، وما احتوى عليه^(١).

خصوصية القطب

«قطب الأقطاب في كل وقت لا تقع بينه وبين الرسول حجابية أصلاً،
وحيثما جال رسول الله من حضرة الغيب، ومن حضرة الشهادة، إلا وعين قطب
الأقطاب متمكنة من النظر إليه، لا يحتاج عنه في كل لحظة من
اللحظات^(٢) وحسبك هذا من تلك الأسطورة^(٣) التي ألقتها الصوفية،
وجعلت منها رباً أكبر يُعبد، ويخشى، ويُرهب^(٤)!!»

أعوان القطب

أولاً: الإمامان، وهما بمنزلة الوزيرين له، أحدهما لعالم الملك، والآخر
لعالم الملكوت.

ثانياً: الأوتاد الأربعة، وقيل هم ثلاثة، كلما مات قطب الوقت أقيم مكانه
واحد منهم، وعلمهم فيض من قطب الأقطاب، وإن ماتوا، فسدت الأرض.

ثالثاً: الأبدال، والبدل حقيقة روحانية تجتمع إليها أرواح أهل ذلك الموطن
الذي رحل عنه وليه. وعددهم أربعون، اثنان وعشرون منهم بالشام، وثمانية
عشر بالعراق.

رابعاً: النجباء، وهم دون الأبدال ومسكنهم مصر! وعملهم أن يحملوا
عن الخلق أثقالهم وعددهم سبعون.

(١) ص ٧٩ ج ٢ المصدر السابق.

(٢) ص ٦٣ المصدر السابق.

(٣) كتبت عنه مقالاً ضافياً في مجلة «الهدى النبوي».

(٤) العجيب أن ابن الحاج - وله سابقة في فضل في محاربة البدعة - يؤمن بهذه الأسطورة ويقول عن
القطب «إن الله تعالى يديره في الآفاق الأربعة من أركان الدنيا كدوران الفلك في أفق السماء» انظر ص
(٣٢٨) (مستهل الخراف) محمد بن الحضر الشنقيطي. وهكذا تقتل الصوفية بسمومها كل من يظن بها
ظناً واحداً من خير!!

خامساً: النقباء، وعددهم ثلاثمائة، وقيل خمسمائة، وهم الذين يستخرجون خبايا الأرض^(١).

تلك هي مملكة الاساطير التي ابتدعتها خرافات الصوفية الحمقى، وخيالاتهم المخبولة^(٢)؛ ليستعبدوا الخلق لما يشتهون، وليجعلوا منهم أحلاس^(٣) رهبة منهم، وخوف مذعور.

تلك هي المملكة التي ابتدعتها أوهام الصوفية إزاء ملكوت الله؛ ليغصبوا بها من الأحياء أقواتهم وإيمانهم، ومن الموتى أكفانهم! ترى ماذا بقى لله وملائكته ورسله؟ الله أكبر، له الملك في الدنيا وفي الآخرة.

خاتم الأولياء

وكما جعل الله للنبيين خاتماً، جعل الصوفية للأولياء خاتماً، والعنكبوت الأول الذي سال لعبابه بهذه الاسطورة هو الحكيم الترمذي^(٤)، قال السلمي: «نفوه من ترمذ، وشهدوا عليه بالكفر بسبب تصنيفه كتاب «ختم الولاية»، وقال: إنه يقول: «إن للأولياء خاتماً، كما أن للأنبياء خاتماً، وأنه يفضل الولاية على النبوة»^(٥)، ويقول ابن تيمية عنه: «في كلامه من الخطأ ما يجب رده، ومن أشنعها ما ذكره في ختم الولاية، مثل دعواه فيه أن يكون في المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبي بكر وعمر وغيرهما، ومنها ما ادعاه من خاتم الأولياء الذي يكون في آخر الزمان، وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء، وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء»^(٦).

(١) «المصدر السابق»، ص ٩٣ «جامع الأصول» للكشخاني.

(٢) هل تزعم الصوفية أن كل صوفي يستطيع أن يكون قطبا يتصرف في الوجود. يقول أحدهم ويبشر الصوفية بنتيجة سلوك الطريق «وصرت أنت قطب الوجود تدوره بيدك كيف شئت» ص ١١٤ ج ١ «الفتوحات الإلهية» ط ١٩١٣ م.

(٣) «مفردها «حلس»؛ وهو ما يسط في البيت من حصر ونحوه تحت كرم المتاع.

(٤) هو غير صاحب السنن، فهو محمد بن علي بن الحسن بن بشير أو «بشر» الترمذي الملقب بالحكيم عاش إلى حدود ٣٢٠ هـ.

(٥) ص ١٧٠ ج ٢ «مفتاح السعادة» لطاش كبرى زادة طبع الهند.

(٦) ص ٧٩ وما بعدها رسالة «حقيقة مذهب الاتحاديين» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وتوالت عناكب الصوفية على هذه الأسطورة، حتى قتلت بها ذبأباً من الخلق كثيراً. قال ابن عربي - وهو يتحدث عن علم وحدة الوجود: «وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل، وخاتم الأولياء!، وما يراه أحد من الأنبياء [و] الرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى إن الرسل لا يرونه - متى رأوه - إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإن الرسالة والنبوة - أعني نبوة التشريع [ورسالته] - تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبداً، فالمرسلون من كونهم أولياء، لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء» (١).

تفضيل خاتم الأولياء على خاتم النبيين

زعم ابن عربي في النص الذي نقلته عنه أنفاً أن الرسل لا يستمدون أشرف علومهم إلا من خاتم الأولياء، وهذا يستلزم تفضيل الولي الخاتم على الرسل بعامة وعلى النبي الخاتم بخاصة، يقول ابن عربي: «ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن، وقد كمل سوى موضع لبنة، فكان ﷺ تلك اللبنة، غير أنه ﷺ لا يراها إلا كما قال لبنة واحدة، وأما خاتم الأولياء، فلا بد له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثله به رسول الله ﷺ، ويرى في الحائط موضع لبنتين، [واللبن من ذهب وفضة]، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللبنتين، [فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين]، فيكمل الحائط .. كما هو آخذ عن الله في السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه؛ لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، [فلا بد أن يراه هكذا وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن] فإنه آخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول» ويقول: «وفينا من يأخذه عن الله، فيكون خليفة عن الله بعين ذلك الحكم» (٢) فضل خاتم الأولياء بأمرين، أولهما: أخذه عن الله مباشرة، أما خاتم النبيين فيأخذ عن الله بواسطة

(١) ص ٦٢ ج ١ «فصوص الحكم» ط الحلبي.

(٢) ص ٦٣، ١٦٣ «المصدر السابق».

الملك. الأمر الآخر: هو أنه على يديه تم الدين، فابن عربي يشير بهرائه ذاك إلى الحديث الصحيح الذي مَثَّلَ فيه رسولُ الله ما بُعث به هو والأنبياء من قبله ببیت كانت تنقصه لَبَنَةٌ، وأنه ﷺ هو الذي جاء بتلك اللبنه، يعني أنه هو الذي أتم الله به على المسلمين دينهم.

ولكن ابن عربي يزعم أن الدين كان ناقصاً لبنتين، فأتى محمد ﷺ بواحدة، وأتى خاتم الأولياء بهذه، ولبنه أخرى، فلم يكمل دين الله إلا على يد خاتم الأولياء!

أين هذا الإفك من قول الحق - جل وعلا - : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

أحد كل شيخ أنه الخاتم

يقول ابن تيمية: «ثم إن هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة، لا حقيقة لها، وصار يدعيها لنفسه، أو لشيخه طوائف، وقد ادعاها غير واحد، ولم يدعها إلا مَنْ في كلامه من الباطل، ما لم تقله اليهود، ولا النصارى، كما ادعاها صاحب الفصوص»^(١).

وَحَقُّ ما يقول شيخ الإسلام - وعهدنا به الصدق والأمانة البالغة في النقل - فابن عربي يزعم في الفتوحات المكية أنه رأي رؤيا، ثم يقول: «ثم عبرت الرؤيا بانختام الولاية بي»^(٢) وادعتها التيجانية لشيخها أحمد، قال أحد أتباعه: «الفصل السادس والثلاثون في ذكر فضل شيخنا، وبيان أنه خاتم الأولياء، وإمام الصديقين، مُمِدُّ الأقطاب والأغواث...»^(٣).

لماذا فضل خاتم الأولياء

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ثم صاحب الفصوص وأمثاله، بنوا الأمر على أن الولي يأخذ عن الله بلا واسطة، والنبي يأخذ بواسطة الملك؛ فلهذا صار

(١) ص ٦٣ وما بعدها رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين.

(٢، ٣) ص ١٥ ج ٢، ص ٥٠ و ٥١ رماح حزب الرحيم.

خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة»^(١).

وابن تيمية في فهمه الدقيق، ووعيه الكامل، وأمانته التي تستعصي على التهم يقرر الحق في قوله، فقد نقلت لك عن ابن عربي ما يؤيد الحق الذي قرره ابن تيمية. وها هو البسطامي يقول لأهل الشريعة: «أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت»^(٢) ويقول: «خضنا بحراً، وقف الانبياء بساحله»^(٣) وقال ابن عربي: علماء الرسوم - يعني أهل الشريعة - يأخذون خلفاً عن سلف إلى يوم القيامة، فيبعد النسب، والأولياء يأخذون عن الله، ألقاه في صدورهم من لدنه رحمة منه، وعناية سبقت لهم عند ربهم»^(٤)، يعني أن أتباع الشريعة الإسلامية، إنما يأخذونها عن أناس طواهم الموت، أما الصوفية؛ فلهم الصلات المباشرة مع الله، يأخذون عنه من غير واسطة ملك أو نبي أو رسول!، وبهذا كفروا بشريعة محمد، ومهدوا لاتباعهم الكفر بشريعة محمد ﷺ.

الديوان الصوفي

للصوفية أسطورة تزعم أن في الوجود ديواناً باطنياً، يحكم فيه القطب الأكبر بما يشاء، ويُصَرَّف - هو من ومعه من أقطاب صغار - أقدار الوجود. إنه عند الصوفية محكمة عليا يحاكم فيها الأقطابُ أقدارَ الله، دون أن تستطيع أية قدرة إلهية نَسْخَ حكم لها، وقد وصف الدبّاغ هذا الديوان، وفصّل مهامه، فلنترك له الحديث عن هذه الخرافة.

مكان الديوان وقضاته

يقول الدبّاغ: «الديوان يكون بغار حراء، فيجلس الغوث خارج الغار»^(٥)

(١) ص ٦٤ رسالة «حقيقة مذهب الاتحاديين».

(٢) ص ٤٤٦ «الكواكب الدرية» للمناوي.

(٣) ص ٦٣ ج ٢ «جواهر المعاني».

(٥) سجل هذا على الصوفية الدرويش الصوفي الإنجليزي المستشرق ادوارد لين، فقال: «ويعتقد أن سطح الكعبة مركز القطب الرئيسي، ويفضل مركزاً آخر بباب القاهرة للسمى: باب زويلة، ويسمى العامة باب زويلة: «المتولي»؛ لا اعتقادهم أنه مركز هذا الكائن المجهول، ومن وراء مصراعي الباب العظيم الذي =

ومكة خلف كتفه الأيمن، والمدينة أمام ركبته اليسرى وأربعة أقطاب عن يمينه، وهم مالكية على مذهب مالك بن أنس، وثلاثة أقطاب عن يساره، واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة، والوكيل أمامه، ويسمى: قاضي الديوان ومع الوكيل يتكلم الغوث».

والدباغ مغربي، وللمذهب مالك السيطرة في المغرب، فكان لابد من هذه العصبية التي جعلت الدباغ يزعم أن أربعة الأقطاب كلهم مالكية، تُرى على أي مذهب كان أولئك الأقطاب قبل مالك؟، ولو أن المتكلم كان حنفياً، لقال: إنهم حنفيون!

أهل التصريف

«والتصريف للأقطاب السبعة على أمر الغوث، وكل واحد من الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته!».

الذين يحضرون الديوان لغتهم

«ويحضره النساء وصفوفهن ثلاثة، ويحضره بعض الكُمل من الأموات، ويكونون في الصفوف مع الأحياء، والأموات حاضرون في الديوان ينزلون إليه من البرزخ يطيطرون طيراً، بطيران الروح، وتحضره الملائكة والجن، وفي بعض الأحيان يحضره النبي، وكلامه مع الغوث، وأما ساعة الديوان، فهي الساعة التي ولد فيها النبي، والأنبياء يحضرونه في ليلة واحدة، هي ليلة القدر، فيحضره في تلك الليلة الأنبياء والمرسلون، ويحضره الملائكة الأعلى من الملائكة

= لا يقلل أبداً قضاء صغير، يقال: إنه مكان القطب، ويدق المصابون بالصداع مسماراً في الباب لفك السحر، كما أن المصابين بوجع الأسنان يخلعون سنّاً، ويولجونها في أحد شقوق الباب، وللقطب في مصر مراكز أخرى أقل شهرة، أحدها في قبر السيد البدوي، والآخر في مدينة المحلة، ويعتقد أن القطب ينتقل من مكة إلى القاهرة أو من مكان إلى آخر في لحظة، ويروي الكثير من المسلمين أن إلياس وبخلطه العامة بالخير كان قطب زمانه، وأنه يولي الأقطاب المتعاقبين؛ إذ يقررون أنه لم يمض. ويزعمون أنه شرب من عين الحياة، وبكلف بعض الأولياء القيام ببعض الأعمال الشاقة ويقال لهم: أصحاب الدرك» ص ١٦٣ «المصريون المحدثون» وقد جاء هذا الإنجليزي إلى مصر في القرن ١٩، وتصوف وأخذ العهد ثم راح يسجل الحزري الحرفي لا على الصوفيين بل على المصريين عامتهم، فانظر جنابة الصوفية على مصر والإسلام!!

المقربين ويحضره سيد الوجود معه أزواجه الطاهرات^(١)، ولغة أهل الديوان هي السريانية^(٢)؛ لاختصارها، ولأن الديوان يحضره الأرواح والملائكة، والسريانية هي لغتهم، والصغير من الأولياء يحضره بذاته^(٣).

عدد أجساد القطب الكبير

«وأما القطب الكبير، فلا تحجير عليه، فإنه يدبر على رأسه، فيحضره، ولا يغيب عن داره؛ لأن الكبير يقدر على التطور على ما شاء من الصور، ولكمال روحه، تُدبر له إن شاء ثلثمائة وستة وستين ذاتاً»^(٤).

نقاتل النقطاب

«وقد يغيب الغوث عن الديوان، فلا يحضره، فيحصل بين أولياء الله من أهل الديوان ما يوجب اختلافهم، فيقع منهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضاً»^(٥)، وإذا حضر سيد الوجود مع غيبة الغوث، فإنه يحضر معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وفاطمة، وتجلس فاطمة مع جماعة من النسوة اللاتي يحضرن الديوان.

فيم يتصرف النقطاب

«وأهل الديوان إذا اجتمعوا فيه، اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد، فهم يتكلمون في قضاء الله تعالى في اليوم المستقبل والليلة التي تليه»^(٦)، ولهم التصرف في العوالم كلها السفلية، والعلوية، وحتى في الحجب

(١) هكذا في وسط الرجال؟ ومع عظم شأن ذلك الديوان، فإن الدباغ يقول عن نفسه: «إيش هذا الديوان؟ والأولياء الدين يقيمونه كلهم في صدري!! وإنما يقام الديوان في صدري والسماوات والأرض بالسبب إلى كالموزونة في فلاة من الأرض» ص ٨ ج ٢ الإبريز.

(٢) تدبر الكيد الخفي للعربية لغة القرآن!!

(٣) أي بعدد أيام السنة الكبيسة!! فله في كله يوم إذن جسد جديد!!

(٤) يسفكون الدم ظلماً، ومع هذا فهم أقطاب كبار يتصرفون في أقدار الوجود والله يقول: «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً» [المائدة: ٣٢].

(٥) والله يقول: «وما تدبري نفساً ماذا تكبّي فداً» [لقمان: ٣٤].

السبعين، فهم الذين يتصرفون فيه، وفي أهله، وفي خواطريهم، وما تهجس به ضمائرهم، فلا يهجس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصرف^(١)، وإذا كان هذا في عالم الرقا الذي هو فوق المحجب السبعين التي هي فوق العرش، فما بالك بغيره من العوالم^(٢)؟.

انعقاد الديوان في غير الغار

«ويكون الديوان في موضع آخر غير غار حراء مرة في العام في موضع يقال له: زاوية أسا! خارج أرض سوس، بينها وبين أرض غرب السودان، فيحضره أولياء السودان، ويجتمعون في غير هذين الموضعين السابقين؛ لأن الأرض لا تطيقهم»^(٣).

هذا هو الديوان الصوفي، كما وصفه كاهن صوفي كبير نقلته بلفظه نفسه، بل قل: هذه هي أسطورة الوثنية المخبولة الحمقاء^(٤)، وكم للصوفية مثلها من أساطير!! قتلة سفاحون سفاكون للدماء، ينعتهم الدباغ بأنهم يتصرفون في أقدار الله وملكوته؟! فماذا بقي للرب الصوفي، وهذا ملكه كله في قبضة السفاكين^(٥)؟.

بين الجاهلية وبين الصوفية

كانت الجاهلية في إسفافها الوثني أقل حماقة من الصوفية، وتدبر ما قصه

(١) وصف الله نفسه بأنه عليم بذات الصدور، وقد وصف الصوفية أقطابهم بهذا وأكثر منه، فماذا تقول فيهم؟

(٢) انتهى مختصراً بلفظه من «الإبريز» للدباغ ج ٢ من ص ٢ إلى ص ٩ ط ١٢٩٢.

(٣) دمغهم بهذا الخيال مستشرق مسيحي، فقال: «وللأولياء حكومة باطنة يرون أن عليها يتوقف نظام العالم، ورأس هذه الحكومة الأعلى يسمى: القطب، وهو أرفع صوفية عصره، وإليه رئاسة الاجتماعات التي يعقدها في انتظام مجلس شوره الموقر!! وأعضاء هذا المجلس لا يعوقهم عن الحضور حواجز الزمان والمكان وإنما يأتون من أرجاء الأرض في ناحية طرف، يعبرون البحار والجبال والصحاري في يسر بالغ، ودون القطب درجات مختلفة من الأولياء، وقد عدّها الهجويري في ترتيب تصاعدي كما يلي: الأحيار الـ ٣٠٠، فالأبدال الـ ٤٠، فالأبرار الـ ٧، فالأوتاد الـ ٤، فالنقباء الـ ٣، وهؤلاء جميعاً يعرف الواحد منهم الآخر، ولا يعمل الواحد منهم إلا برضى الباقين، وعمل الأوتاد الطواف حول الأرض جميعاً في كل ليلة، فإن كان هناك مكان لم تقع أعينهم عليه، بدت فيه في اليوم الثاني شائبة نقص، فيخبرون القطب حتى يجعل همه إلى ذلك المكان المشوب، فيبرأ عما أصابه بفضل القطب» ص ١١٩ «الصوفية في الإسلام، لنهكلسون ترجمة نور الدين شريعة».

الله عن الجاهلية وشركها، تجدهم كانوا يوحدون الله في ربوبيته توحيداً حرمت حتى من مثله قلوب الصوفية، إن كانت لهم قلوب!، يقول تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَائِكَتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴿[المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

هذا دين الجاهلية ولكن الله لعنهم لعناً كبيراً بشركهم، لأنهم أشركوا بالله في إلهيته، فتضرعوا إلى غيره بالدعاء.

أما الصوفية؛ فتدين بالقتلة، والمجرمين، وأوغاد الفاحشة أقطاباً يتصرفون في الوجود، ويسيطرون بقهرهم على سنن الله الكونية ونواميس الوجود التي فطرها الله وحده، وهو الذي يصرفها وحده، ويتحكمون في أقدار الله، فلا ينفذ منها إلا ما يشتهون، فأي الشركين أطغي بغياً، وأخبث رجساً؟. لقد وحدت الجاهلية الله في ربوبيته، وأشركت به في الوهيته، أما الصوفية؛ فنفتها عنه، وأثبتتها للمفاليك^[١] الصعاليك، بل انحدرت حتى نفت وجود الله الحق، ونعتته بالعدم الصرف، أفيمكن أن يقاس إلحاد الصوفية، بشرك الجاهلية؟، أم ترى هذا ليلاً غاسقاً^[٢]، وترى الإلحاد الصوفي دياجير تطغى، وتتراكم، وتطول، حتى لا يعرف الأبد فيها بدايته، أو منتهاه؟!، أجيبيوا يا كهنة الصوفية! ولكن، لا: فحسبي أن الجواب مُسْفِر الصُّبْح، وضيء البيان، قوي الدلائل!



[١] المفاليك: جمع مفلوك وهو: الفقير.

[٢] غسق: الليل غسقاً: أظلم.

الفصل السادس

التصوف العملي

لقد افترضوا لك أن التصوف نوعان: نظري أو إشراقي، والغاية منه معرفة الله «الأذواق» واكتناه أسرار ربوبيته بالمواجيد، فكانت نتيجته أن دان مؤتفكوه بالوحدة التامة بين الخلق والخالق، والنوع الآخر منه هو العملي، وهو قائم على الرياضات والمجاهدات أي على الذكر والزهد والعبادة.

ومحاولة التفرقة بينهما، كالتفرقة بين الخبث وريحه المنتن، فالنظري من التصوف وليد العملي؛ لأن النظرية وليدة التطبيق! وقد بينا لك دين الإشراقيين، فلنأتك بنبا الآخرين!

دعوى الزهد

زعمت الأوهام أن الصوفية برزهادة، وقداسة روحانية، يعرجان بالروح إلى الملا الأعلى، فدعني إذن أسائل كل صوفي: أليس في الإسلام ما تبلغ به النفس كمالها وسعادتها النضرة، وما تتألق به الروح، وتسمو إلى سماء الإيمان الحق، والتورانية الصافية، وما ينبغ به الفكر، فيدرك الحق إدراكاً لا يشوبه ريب وهم، ولا يريبه ظن، وما يصفو به القلب، فيفيض بالخير والرحمة والمحبة؟ أحسبت الإسلام غير مجد في تزكية الإنسان والتسامي به، حتى تفر منحدرًا إلى الصوفية؟ إن في إخلاص التوحيد، وصدق الإيمان، وطيب الإحسان فيما أنعم الله به لواحة وريفة الظل^[١]، فناء الحميل^[٢]، ثرة^[٣] النبع في صحراء الحياة، تنزع^[٤] من سلسها العذب ما يجعل الحياة حوليك مجالي خير وسلام وصفاء، ومجاني^[٥] نعيم روحي وسعادة نفسية. عبادتك الله كأنك تراه، تجريد لك من نوازغ الشر ونوازعه، وتزكية لك مما يضل به الفكر، أو تطيش

[٢] «الحميل» من الثياب: ما كان ذا ملمساً ناعماً.

[٤] «فناء» الإناء قرعاً: امتلا.

[١] «ورق» الظل: اتسع وطال.

[٣] «ثرة»: غزيرة.

[٥] جمع «مجنى» من جنى الشجرة: اقتطفها من منبتها.

الغريزة، أو تزل العاطفة، أو يخمد الشعور بحق الحياة الطيبة. إنها تطلقك في رحاب الوجود جهاداً دائماً في سبيل الحق، وعملاً صالحاً تنشد به رضا الله وحده، وتحقيق الخير العام للإنسانية، وتسبيحاً وتقديساً لله وحده، لا امتزاجاً، أو اتحاداً، كما تزعم الصوفية!

ذلك بعض ما في الإسلام، فماذا في الصوفية؟! فيما ذكرت لك من قبل الجواب الصادق.

إن الزهد الذي تبشر به الصوفية - حين تريد اغتصاب اليتيم والمسكين^(١) - ليس من شعائر الإسلام، ولا من شرعته في شيء، مهما حاولت الصوفية تَوَشِيَّتَهُ^[٢]؛ لبيدوا لضحاياها شعيرة دينية سامية!

فمعنى الزهد تحقير الشيء، والتهوين من شأنه في اللغة التي شرفها الله، فنزل بها كتابه - وبهذا المعنى وردت في القرآن، ولم ترد مادتها فيه إلا مرة واحدة - قال تعالى يقص شأن السيارة الذين باعوا يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِحَمْنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] تأمل هذه الكلمات «بخس، ودراهم، ومعدودة» ثم تأمل ورود كلمة «الزاهدين» بعدها؛ لتدرك جيداً حقيقة معناها.

فهو إذن - وهذا معناه - مما يمجته الله ورسوله، ويبرأ منه كل مؤمن بالله ورحمته وحكمته؛ إذ معناه تحقير نعم الله، والتهوين من شأنها الأعظم.

إن في الزهد الذي تزعمونه القضاء على الفرد، وعلى قوى الجماعة الإسلامية، فيه صرف للهمم عن الجد والسعي في سبيل الخير للفرد وللجماعة. والاستعمار القديم والحديث يعمل لنشر هذه الخرافة في الشرق وحمل أهله على الإيمان بها؛ ليعيش أهله أذلاء النفس مهزولي القوى، يرضون باللقمة الساغية^[٣] من فئات المستعمرين؛ عالة على مستعبدتهم، يجرعونهم المسكنة والصغار! أشباحاً هزيلة، وظلالاً كابية^[٤] لركام من الجيف!! وقد صدق

(١) من أعجب ما نرى؛ أن يدعو الشيوخ إلى الزهد، وهم يتكالبون على كل شيء خبيث، يدعون سواهم إلى الزهد؛ ليكون لهم هم وحدهم كل شيء. أفلا يدعون أنفسهم إلى التقوى!؟

[٢] «وَضَى الثوب: نقشه وزينه. [٣] «سَبَّأَ: جاع مع تعب. [٤] «كَبَأَ: الحيوان: انكب على وجهه.

الشرق في أحقاب من تاريخه خرافة الاستعمار الصوفي، فهوى من قمة المجد والقوة والحرية إلى حضيض المهانة والعبودية!

نبشوني، ماذا يحدث لو اتخذ كل مسلم من الزهد الصوفي شريعة له؟؛ سيكون المسلمون - وقد حدث - فريسة هينة سهلة، لكل ناب باغية، ومضغة محتقرة يمجها كل مشفر^[١]! وهذا هو هدف الاستعمار، وربيبته الصوفية التعسة! في الإسلام الذي آتم الله به على عباده النعمة، وأكمل الدين، كلمة لو أخذ بها المسلمون، لكانوا مع الله وحده قلوباً عابدة، ومع إخوانهم قلوباً محبة تنزع دائماً إلى الإيثار والفداء والتضحية: إنها «التقوى» تتقي الله، فتطيعه طاعة قدسية، وتتبع رسوله. تتقي الله، فلا تغصب ما ليس لك. تتقي الله، فتعمل لنفسك ما يزيكها، ولغيرك ما يسعده، ويحفظ عليك وعليه الحياة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١] ولجلال هذه الشعيرة الإيمانية كان لها من الله هذا الجزاء الأعظم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يُمْسِنُ مِنَ الْمَحْيَضِ مِنَ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَسْنَ فَعُدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةٌ أَشْهُرٌ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) [الطلاق: ٢، ٤]

﴿فَمَنْ آتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٥) [الأعراف: ٣٥]
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٦) [آل عمران: ٧٦] ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (٧) [النحل: ١٢٨].

فلماذا رغبتم عن «التقوى» إلى «الزهد»^[٢] وهو تراث «المانوية»؟، وقد

[١] المشفرة: شفة البعير الغليظة.

[٢] يعني به «الزهد الصوفي» المدموم، الموصوف سالفاً، أما الزهد الحق؛ هو أن تترك الدنيا الحقيرة الغانية لأجل آخرة عظيمة باقية، لأجل رضوان الله - عز وجل - على طريقة رسول الله ﷺ، فقد كان النبي ﷺ أزهد الناس فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يتلوى لا يجد من الدقل ما يملأ بطنه. (رواه مسلم ٢٩٧٧)، والدقل: ردئ التمر، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد من حبر شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ. (رواه مسلم ٢٩٧٠) على أن هذا لم يسمعه رضي الله عنه أن يكون في أحسن مظهر كما وصفه البراء قائلًا: «رأيت في حلة حمراء لم أر شيئاً قط أحسن =

هولتم به، كأنما هو وحده السبيل لهداية الإنسانية الحائرة؟ ترى هل ترون في القرآن للزهد ذكراً، أو أجراً؟!

أصل الزهد الصوفي

أندري عمن اقتترف الصوفية دعوى الزهد الذي يحقر نعم الله، ويعمل لتحطيم كل مَقُومَات الجماعة الإسلامية؟!

إنهم بَشَرُوا بفتنة غَيَّه عن المجوسية المانوية التي آمنت بالوهية الخير والشر، وبأن هذين المتقابلين في قِيم الاخلاق امتزجا بربها الأكبر امتزاجاً تاماً، وأن هذا الرب «المانوي»^(١) الثنائي الطبيعة، لن يستطيع التخلص من الشر الذي يُقَوِّم ذاته، أو النجاة منه إلا بفناء العالم، فوصى «ماني» مُسَيِّمَةً هذا الدين بالزهد وعدم الزواج؛ لينحدر مسرعاً إلى هوة العدم، استمدته من «الغنوصية»^(٢) التي زعمت أن غاية الإنسانية العظمى هي في الاتحاد بالرب!!، الرب «الغنوصي» الذي صنعه الهوى، وأمدته الأساطير بالوجود الأسطوري!

هذا هو أساس الزهد الصوفي وهدفه، عليه قام، ويقوم، وهو كما ترى غير التقوى الإسلامية، غيرها في كل شيء، غيرها في المعنى والروح والنسب

= منه (رواه البخاري ٣٥٥١، ومسلم ٢٣٣٧)، وهذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن التابعي يقول: فرأيت شعراً من شعره فإذا هو أحمر فسألت فقبل أحمر من الطيب، (رواه البخاري ٣٥٤٧)، هذا غير الأحاديث التي يامر فيها ﷺ بالاغتسال والحلق والاعتناء بالملبس، على عكس ما نراه من كثير من الصوفية؛ كما يحكي عن بعضهم أنه مكث أربعين سنة لا يفتسل ولا يبدل البردة التي كانت عليه وأمثاله كثير، ويعدونها من الكرامات، فمثل هذا لا يكون زهداً؛ إنما هو إسراف عن الهدى القويم.

(١) نسبة إلى ماني بن قانك متنبئ فارسي، وقد وصى أتباعه بالزهد المسرف في الغلو، وبعدم الزواج؛ ليفنى العالم، فيستطيع الرب التخلص من طبيعة الشر الكامنة فيه، وعنه استمد الصوفية ذلك. يقول أبو طالب المكي مفترياً على رسول الله هذين الحديثين: «إذا كان بعد المائتين، أبيحت العزبة لامتي» أي عدم الزواج. وقال: «لأن يربي أحدكم جمر كلب، خير من أن يربي ولداً نفس الدين، ونفس الهدف المانوي، انظر ص ١٥٠ ج ٤ «قوت القلوب» ط ١٣٥١، تجمد المانوية العسفرة، ويقول الجنيد: «أحب للمبتدئ ألا يشعل قلبه بهذه الثلاث، وألا تغير حاله، التكسب وطلب الحديث والتزوج، وأحب للصوفي ألا يقرأ ولا يكتب؛ لأنه أجمع لهم» إذا كان لا يتكسب وهو شاب، فمتى؟ وإذا كان لا يطلب حديث الرسول، فماذا؟ وإذا كان لا يتعلم، فأي شيء يكون هو؟ لو أننا نفدنا وصايا الجيد لم تبق للأمة الإسلامية باقية. انظر ص ١٣٥ ج ٣ «المصدر السابق».

(٢) معابها الاصطلاحي إدراك الأسرار الربانية بواسطة الكشف، والذي أعطاها هذا المعنى طائفة من المفكرين، عاشوا في القرون الأربعة الأولى من ميلاد المسيح، ومنهم يهود ومسيحيون ووثنيون. وأهم ما يديون به هو الثنائية بين المادة والذات الإلهية، ومحاولة اجتياز العاصل بينهما عن طريق سلسلة من الوسطاء، والمادة عندهم=

والغاية، فغاية الزهد الصوفي تدمير الجماعة الإسلامية^(١)، وغاية التقوى سُمُو بالفرد، وسمو بالجماعة، وتَشْيِيدٌ لصروح العدالة والحب والإيثار والإخاء الكامل، وبالرغم مما تأفك الصوفية من دعاوي الزهد، فإننا نرى كهانها عدواً خصيماً للقناعة، فتوجههم ضراوة الذئاب إلى الفتك بالحملان الوديدة البريئة، ويشيرهم الجشعُ إلى سلب ما على قمم اليتيم.

وإلا فاهدني إلى جواب ما أسألك عنه؛ أَيُحَسَبُ قانعاً من يغضب قوت اليتيم؛ ليتخيم به بطوناً تشكو البطنة؟!، من يهتك عن أَيَّامِي المسكنة، وأرامل الفقر أستاذَهْنُ؛ ليجعل منها للأصنام عمائم ضخمة كالداهية، منتفخة كبطون السُّحْتِ، سوداء كحقد المشرك، حمراء كالجريمة المسفوحة، خضراء كالعشب السام، بيضاء كالكفن؟!، من يغضب الْفُتَاتِ من الغارمين، ثم يأكله ناراً من الرُّبَا الجائر؟!، من تَحُبُّ^[٢] في الحرير، ويدب بتعليه على الطنافس^[٣]، ويزعج الهامدين بأبواق سياراته، وتضج حانات الليل من عريدته^(٤)، ودراويشُه من حوله يخبون في المآسي، ويدبون على الفواجع، ويقتاتون بالنكبات، ويتجرعون غصص الدموع، ويحتسون^[٥] دَمَ الجراح^(٦)؟!

= هي أصل الشر، والسبب الذي من أجله انحطت طبيعة الإنسان، ولكن الإنسان يستطيع عن طريق الخلاص «أي الزهد» أن يعود إلى الذات الإلهية والأصل الأول. انظر ص ٧ «التراث اليوناني» للدكتور بدوي.

(١) يتحدث جولد زهير عن أثر الزهد الصوفي في تغيير النظر إلى المثل العليا للمسلمين: «تغير النظر إلى المثل الأعلى للحياة الإسلامية، فاصبح ينظر إليه من وجهة تخالف تلك التي أقرتها تعاليم المذاهب السنية، وهكذا أثر الصوفيون على الجماهير الخاضعة لنفوذهم، فقل إعجاب الناس بتلك السمة العسكرية لأبطال الإسلام الشهداء الأقدمون ما كانوا إلا من فئة المجاهدين - فانصرفوا عنها، وولوا وجوههم نحو صور الزهاد الشاحبة وأجسام العباد الهزيلة والرهبان المنقطعين في الصوامع، بل إن الأبطال الأقدمين في عصور الإسلام الأولى الذين كانوا مثلاً يحتذى، صار لزاماً عليهم أن يحصلوا على صفات البطولة الجديدة، أي أنهم جردوا من سيوفهم، وألبسوا أردية الصوف^[١] ص ١٥٤ «العقيدة والشرعية».

[٢] «خب»: خدع وخش. [٣] «الطنافس»: جمع طُنْفَسَة وهي بفتح الفاء أيضاً: البساط.

(٤) قال أبو حمزة البغدادي، مما يراثي، ويخدع به عن حقيقة التصوف: «علامة الصوفي الصادق أن يفتر بعد الغني، ويدل بعد العز، ويحفي بعد الشهرة وعلامة الصوفي الكاذب أن يستغي بعد الفقر، ويعرب بعد الذل، ويشتهر بعد الخفاء» ص ٤ «شرح الحكم» لابن عجيبة وطبق هذا على السادة الصوفية!!.

[٥] «حساء الطائر الماء: مثل شرب للإنسان.

(٦) قال الأستاذ التابعي: «إنني أعرف طريقة اختار أحد بارات شارع شريف مقراً له، ويقصد إليه في البار المذكور أتباعه ومريدوه كلما أرادوا مقابلته في أمر ما، ويخرج هو إليهم ويمد يده بلمشونها، ورائحة الخمر تفوح من فمه، وقطرات الخمر على يده، وبها «المزة» على صدره وذفته وأكمامه... ويلتفت الشيخ إلى أصدقائه الجالسين في البار ويطلق نكتة ما. ويشترك معهم في الضحك من عيط المريرين والاتباع» صحيفة الاخبار ١١/٢/١٩٥٥.

أُحْسِبُ قناعة هذا النَّهْمِ الْمُسْتَشْرِى بالحرام، وذلك التكالُّب الضاري على سُحْتِ الأضرحة ١٩، انظر إلى مَنْ حَوْلَكَ من كهانها، وأرني فيهم من يَمَسُّه الزهد حتى خطرة ذاهلة في مضغة حَيْرَى على شَفَتَي يَتِيمٍ محروم، نالها بعد سَقَبٍ يائس ١١، ذلك هو الزهد الصوفي، فما ذكرهم ١٩.

الذكر الصوفي

في أعياد الوثنية التي يسمونها: موالد، وفي معابد الأضرحة التي يسمونها: مساجد، وفي كهوف الدراويش، وقد اتخموا بطون الطواغيت بالسحرة ١١ في تلك الحُمَاتِ ^[١] يقيم الصوفية حانات الرقص، أو ما يسمونه: الذكر، فيجلس الشيخ بين صفيين من دراويش تعشقهم الرذيلة، ودرويشات نفرت منهن الفضيلة ثم يصفق بيديه اللامعتين من دسم الحرام إيداناً بيدء الذكر، ثم يُخْرِج من شفثيه ومنخره اسم الله مُلْحِداً في حروفه وفي النطق به ١١ وغضون جبينه تَهْمِزُ الحياء وتَلْمِزُ التقوى، ومُنْشِدُ القوم يطربهم بِالْغَزَلِ الداعر في ليلى وسعاد، أو بالدُّفُوف يدق عليها الشيطان، وبالنايات تصفر فيها الشهوة، ثم يهب الشيخ، ويهب معه المريدون، وثُمَّتَ يميلون يَمَنَةً وَيَسْرَةً، متَأَوِّدَةً أعطافهم تَأَوِّدُ ^[٢] الراقصات يَلْمَحْنَ في أيدي الرُّوَادِ دَنَانَ الخمر وفتنة الذهب، وما هي إلا لحظة، حتى تُجَنُّ هذه الأجسادُ بما فيها من رغبات مكبوتة، مفصحة عن غليلها المحترق بالتأوه الخنث، والتمايل الخليع، وبالأصوات المنكرة المبحوحة من عويل الخطيئة والاستغاثة بزئنب، أو نفيسة. لا يريدون زئنب الطاهرة، ولا نفيسة العابدة؛ وإنما يريدون بهما شيئاً آخر ١١ فَكُلُّ يَغْنِي على أنشائه ١١، وهكذا يظلون في اقتراف هذا الزور المُلْحِد ساعة، أو ساعتين ^(٣)، كُلُّ يريد أن يثبت للعيون الرانية في لهفة، والزغاريد المغازلة في

[١] «الحُمَات» جمع حَمَاة وهو: الطين الأسود. [٢] «أود، الشيء: اعوج، وتأوَّد: تموَّح.

(٣) يظل الراقص الصوفي يتخلع ساعة في حانة الذكر، دون أن يحس بملل حتى إذا وقف للصلاة يحبط الصلوات الخمس في خمس دقائق ١١ هذا لأن الرقص الصوفي شهوة وخطيئة، أما الصلاة فطهر وعبادة.

تَوَجَّعَ مَشُوقٌ، أَنَّهُ حَيَوَانٌ قَوِيُّ الْجَسَدِ!!، وَبَعْدَ هَذَا يَزْعُمُونَ أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ سَاعَاتِ التَّجَلِّي!!، وَلَكُمْ مِنْ أُمَّ بَاعَتْ قُوْتَ يَتِيمِهَا، وَزَوْجَ سِتْرِ امْرَأَتِهِ، وَمَدِينٍ يَهْلِكُهُ الدِّينُ بَقِيَّةَ طَعَامِهِ فِي سَبِيلِ «شَيْشَةِ» الشَّيْخِ، وَ«حَشِيشِ» الشَّيْخِ، وَ«أَفْيُونِ» الدَّرَاوِيْشِ، وَهُمْ يَرْقُصُونَ فِي حَانَاتِ الذِّكْرِ!!

أَتُرَانِي بِالْغَتِ؟، أَمْ أَنِّي قَصَرْتُ؟، إِخَالُكَ تَنْزِعُ إِلَى اتِّهَامِي بِالتَّقْصِيرِ، فَكُلْ ذِي بَصَرٍ تَقَعُ عَيْنَاهُ عَلَى الصُّوفِيَّةِ يَعْرِيدُونَ فِي حَانَاتِ ذِكْرِهِمْ، تَقَعُ عَيْنَاهُ عَلَى مَشَاعِلِ الْمَجُوسِ، تَتَوَهَّجُ كَرَّغَبَاتِ الْفَاجِرِ!! وَعَلَى الدَّفُوفِ بِأَيْدِي فِتْيَةٍ، أُسْبِلُوا شَعُورَهُمْ، وَقَدْ لَمَسَهُمُ الشَّيْطَانُ بِلَهْيَبِهِ، فَرَاخُوا يَتَكَسَّرُونَ عَلَى النِّغَمِ الشَّرُّودِ، وَيَهْصِرُونَ غَصُونَهُمْ عَلَى النِّظَرَاتِ الْمُتَوَهِّجَةِ الرِّغَبَاتِ، وَشَيْخُ الطَّرِيقَةِ سَعِيدٌ؛ لِأَنَّ شِبَاكَ فِتْيَتِهِ تَوَقَّعُ فِي حَبَالِهَا الْهَائِمِينَ، هَذَا يَحْدُثُ، وَتَرَاهُ، وَنَرَاهُ، وَلَا نَسْمَعُ النِّكَيرَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحَدٍ!!، كَأَنَّمَا رَذِيلَةُ الْقَوْمِ فَضِيلَةُ مُقَدَّسَةٍ!!.

مَا هَكَذَا ذَكَرَ الرَّسُولُ رَبِّهِ، وَمَا هَكَذَا ذَكَرَ الصَّحَابَةُ مِنْ بَعْدِهِ رَبَّهُمْ، مَا ذَكَرَهُ بِاسْمِهِ الْمَفْرَدِ، وَلَا ذَكَرَهُ فِي مِيلٍ وَتَأَوَّدَ، مَا ذَكَرُوهُ بِقِيَادَةِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَنْطِقُ بِالْأَسْمِ مُصَفِّقًا، وَيَنْطِقُونَ بِهِ وَرَاءَهُ، مَا ذَكَرُوهُ، وَلَهُمْ مَنَشَدٌ يَغَاظِلُ لَيْلَى!!!، مَا ذَكَرَهُ وَأَصْوَاتُهُمْ مِنْ ضَجِيجِهَا تَفْزَعُ اللَّيْلَ، وَتَصْلُكُ جَنْبَاتِهِ، مَا ذَكَرُوهُ جِزَاءَ مُضْغَةٍ لَحْمٍ، أَوْ نَفْثَةِ «شَيْشَةِ»!!، مَا ذَكَرُوهُ بِالنَّايَاتِ وَالطُّبُولِ وَالْدَّفُوفِ؛ وَلَكِنَّهُمْ ذَكَرُوهُ، كَمَا عَلَّمَهُمْ رَسُولُهُ، أَمَا مِنْ ذَكَرَ اللَّهَ ذَكَرَ الصُّوفِيَّةَ فَهُمْ مُشْرِكُو الْجَاهِلِيَّةِ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدُّعًا﴾ [الأنفال: ٣٥] (١). وَكُفْرَةُ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ!!.

ذِكْرُ الصُّوفِيَّةِ بِحُجَّةٍ يَهُودِيَّةٍ

جَاءَ فِي الْمَزْمُورِ التَّاسِعِ وَالْأَرْبَعِينَ بَعْدَ الْمِائَةِ: «لِيَبْتَهِجَ بَنُو صِهْيُونِ بِمَلِكِهِمْ لِيُسَبِّحُوا اسْمَهُ بِرَقْصٍ، بِدَفٍّ، وَعُودٍ، لِيُرْتَّمُوا... هَلِّلُوا يَا، سَبِّحُوا اللَّهَ فِي

قدسه، سبحوه برباب وعود، سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار ومزمار سبحوه بصنوج الهتاف»^(١).

وهكذا يذكر الصوفية، وحسبك أن ترى حانة صوفية يذكرون بها؛ لتشهد الصلة الوثيقة بين الذكر الصوفي، والبدعة الجاهلية اليهودية!!، ولكن الدباغ يزعم: «أن الصوفية يهتزون يمينا وشمالاً؛ لأن الأقطاب رأوا الملائكة تفعل ذلك» ص ٧٢ ج ٢ الإبريز.

الشيخ جاسوس القلب

يوجب الصوفية علي الذاكر «أن يستحضر شيخه، وأن يستمد منه عند الشروع فيه، فيقول: مددك يا أستاذي، وأن يرى أن استمداده منه، عينُ استمداده منه ﷺ، فإنه الواسطة إليه، وأن يستأذن شيخه بقلبه، فيقول: دستور يا أستاذي! وأن يستأذن أصحاب الطريق والقَدَم، وهم أهل السلسلة، فيقول: دستور أصحاب الطريق والقَدَم»^(٢).

وهكذا توجب الصوفية على «الدرويش» أن يتلطح بهذه الوثنية قبل أن يذكر الله، وأن يستأذن كل هذه الأصنام؛ ليتقبل الله ذكره، ويغمره برضاه!، حُجُبٌ صَمَاءٌ تمور حولها الدياجير، وتقصف الأعاصير، تضعها الصوفية في طريق السالك، حتى لا يرى شعاعاً من نور!

كيفية الذكر

«أن يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه، وأن يبدأ بـ «لا» يمينا، ويرجع بـ «إله» فيتوسط، ويختتم «إلا الله» يساراً قبلة القلب، فإن ذكر اسماً مفرداً كـ «الله»، و «هو» ضرب بذقنه على صدره، وأن يذكر مع جماعة مع رفع الصوت، ويتنوع الكلمة من سرته إلى قلبه»^(٣) هذه «البهلوانية» الرعناء، هي صورة الذكر الصوفي.

(١) «العهد القديم»: المزامير ص ٦٤١.

(٢) انظر ص ٢٨ وما بعدها من رسالة لـ أحمد عبد المنعم الحلواني، ص ٨٦ - رسالة «منحة الأصحاب» لـ أحمد بن عبد الرحمن الشهير بالطيبي.

(٣) «المصدر السابق».

ترى هل كان رسول الله - وهو يذكر ربه - يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه؟، أو كان يضرب بذهنه صدره؟، أو كان يعيل يمنة ويسرة؟، لم يفعل شيئاً من ذلك؛ لأنه نبي؛ ولأنه رجل أبي الرجولية. أمّا رفع الصوت، فالله يقول: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُغَافِلُ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾! [الإسراء: ١١٠] وأصل الصلاة الدعاء، ولكن الصوفية بهدي ربهم يعدّلون! [١].

صيغ الذكر الصوفي

«من آداب المريد مع شيخه أن يذكر ما لقنه له أستاذه، فلا يتجاوزه إلى غيره» (١)؛ ولهذا تعددت صيغ الذكر الصوفي، تبعاً لتعدد الطرائق، وتباين الشيوخ، فمنهم من يذكر بالاسم المفرد، ومنهم من يذكر بـ «هو» ومنهم من يذكر بـ «آه آه»، وكل طاغوت صوفي يحرم على عبده أن يذكر ما بغير ما أذن لهم فيه، أو أن يذكر ما يترقص به الطرق الأخرى؛ لا اعتقادهم أن بعض أسماء الله قد يضر ذكرها هذا، وينفع ذاك، أو تضر في حال، وتنفع في حال أخرى، والخير بما ينفع الذّاكر، أو يضره، إنما هو الشيخ؛ لهذا لا يستطيع «الدرويش» أن يذكر «لا إله إلا الله» إلا إذا أمره بها شيخه، ولا ينادي ربه بـ «يا لطيف»، وإلا أصابه مسٌ أو خبال، أو كما يسمونه «لطف»!.

اسمع إلى القديس الصوفي ابن عطاء الله النبكي ندرى يفتري الإثم الأكبر: «اسمه تعالى «العَفْوُ» يليق بأذكار العوام؛ لأنه يصلحهم، وليس من شأن السالكين إلى الله ذكره! اسمه تعالى «الباعث» يذكره أهل الغفلة، ولا يذكره أهل طلب الفناء، اسمه تعالى «الغافر» يُلقّن لعوام التلاميذ، وهم الخائفون من عقوبة الذنب، وأما من يصلح للحضرة، فذكره مغفرة الذنب عندهم يورث الوحشة، اسمه تعالى «المتين» يضر أرباب الخلوة، وينفع أهل الاستهزاء بالدين» (٢).

(٢) من رسالة «الخلواني» ص ٣٠.

[١] «عَدَلٌ» عن الطريق: حاد عنه.

(٣) ص ٢٣ وما بعدها «مفتاح الفلاح» ط ١٣٣٢ هـ.

ويستمر ابن عطاء في سرد هذا البهتان حتى يستوفي أكثر أسماء الله. والله تعالى يقول: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] ويقول: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] اسمه الغافر لا يصلح إلا للعوام! كأنما أولئك الطواغيت معصومون من الذنب، أو آلهة! على حين كان يستغفر الرسول ربه في اليوم مائة مرة! فهل تجد رَحِمًا بين حق القرآن، وبين باطل الصوفية؟!.

دحر رسول الله

ومن عبير السنة المطهرة، يسطع عليك ما يشفي روحك، فقارن بينه وبين ذلك اليَحْمُومِ الصوفي. قال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، «متفق عليه»^[١]. وكان ﷺ يقول دهر كل صلاة حين يُسَلِّم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ولا حول، ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون»^[٢]، «رواه مسلم». وقال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، «رواه البخاري»^[٣].

وفي الصحيحين عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «اللهم لك الحمد؛ أنت نور السموات والأرض، ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت قيّام السموات والأرض، ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت ربُّ السموات والأرض، ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت الحق، ووعدك

[١] رواه البخاري (٦٤٠٦، ٦٦٨٢، ٧٥٦٣) ومسلم (٣٦٩٤). [٢] رواه مسلم (٥٩٤).

[٣] رواه البخاري (٦٠٣٦، ٦٣٢٣) والترمذي (٣٣٩٣) والنسائي (٥٥٢٢).

الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي؛ ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت، ولا حول، ولا قوة إلا بك .

أرأيت إلى هذا الذكر النبوي الجامع؟! إنها ضراعة النبوة والعبودية الخالصة تفتحت لها أبواب السماء، ما فيه ذكرٌ باسم مفرد، ولا ضربٌ صدر بذقن، ولا هزة الرأس إلى أخمص^[١] القدم، ما فيه التناؤح بالראس يَمْنَةً وَيَسْرَةً، ولا نَتَع^[٢] من سُرةٍ إلى قلب. ما فيه منشد، ولا دف، ولا شبابة، ما فيه دائرة يقف في مركزها نُصب يرقص الذاكرين بِتَصْدِيته^[٣]؛ إنما فيه قلب مؤمن ضارع ملاه حب الله خشية ورهبة وتقوى، يتوجه إلى خالقه الأعظم، مالك الملك كله في إيمان صادق، وتوحيد خالص، فصلوات الله وسلامه على محمد عبد الله ورسوله .

عبادة الصوفية

ذلك هو التصوف العملي في شعيرتيه الزهد والذكر، فما العبادة فيه؟ أهى تلك الركعات، أو السجادات التي لا يقر فيها قلب، ولا جسد، ولا تسلم فيها لله خاطرة واحدة، ولا يخشع شعور، ولا يضرع دعاء؟؛ فإنما هي لأصنام القبور سجود وتسابيح، ولجلاليتها الصم عبودية، تطفح بالخشية منها، والتقوى لها، واللياذ بها، والذهول المستغرق إلا عنها، ألا ترى مساجد الله خراباً، ومعابد القبور، تمرر بالحشود المحشودة فيها من كل صَوْب^[٤] وحَدَب^[٥]، ألا ترى مساجد الله التي طهرها الله من أوثان الأضرحة، خاويةً على عروشها، أما المعابد التي جثم^[٦] على صدرها قبرٌ ميت، وثوت فيها رَمْتُهُ، أو وَهْمُهُ، فتضيق — على رحابها الفساح — بالآمين لها رجاء بركات القبر، والرمة البالية، أو

[١] «أخمص» القدم: باطنها. [٢] «انتع»: عرق كثيراً. [٣] «صدى»: فلان يديه: صفق بهما.

[٤] «الصوب»: الجهة. [٥] «الحذب»: ما ارتفع وغلظ من الأرض.

[٦] «جثم»: الحيوان والإنسان، جنوماً: لزم مكانه فلم يبرح.

الوهم الخرافي المشيد عليه القبر، أو العظام المتنوعة من حيوانات شتى؛ لتتصب النذور على السدنة؟، ألا ترى تلك المعابد ينفق على فرشها وإضاءتها وتبخيرها الألوف؟، أما مساجد الله فتترك للغربان تسليح عليها، ولليوم ينعب فيها!

ما عبادة الصوفية؟ أهى تلك النذور يحفدون بها إلى الجيف؟، أهى هذا السجود على عتبات الأصنام دوخها وطء النعال؟، أهى هذا التقبيل الملهوف العاشق لأحجار الأوثان رجاء سلسبيل رحمة منها ومغفرة؟، أهى هذا التوسل إلى الله بعظام نخرة، وصفوان^[١] أملس، وخشب عافه السوس من طول ما طعم منه؟، أهى هذا الدعاء العريض بالهامدين^[٢] في القبور، ينشدون منهم مدد الحياة، وروح الخلود؟، أهى تلك الأوراد^(٣) الشركية ينق بها الصوفية تحت سجوات ليلهم المعريد، وشفوف السحر الراقص، فى هياكل الطواغيت؟، أهى هذا الحلف بالقبور والهامدين فيها، وجعل الحلف بالله عرضة للفرار من ذنب، أو جريرة؟

ذلك هو الجانب العملي من التصوف فى ذكره وزهده وعبادته، أترأه يصلح لهداية الإنسانية، وقيادتها إلى مثلها العليا؟، أم تراه يفتك بها فتك السل^[٤] الدفين بالصدر الرقيق الحزين؟، أما جانبه النظري؛ فقد دانوا فيه كما بينت لك بأن العبد عين الرب، وبأن الشرك عين التوحيد، ذلك هو التصوف بنوعيه، إن شئت أن تجعله نوعين، فهل تراه يودي بالمسلمين إلا إلى التهلكة بعد أن يحيلهم من عباد الرحمن إلى عبدة للطاغوت؟، من أمة قوية عزيزة كريمة موحدة الغايات والمباديء إلى أشتات واهنة، وأشباح هزيلة مستضعفة، تضرب بها الوثنية فى متاهات الباطل، ويقضي عليها الوهن والذل والصغار، فتصبح المطايا الذلل للاستعمار، وأحلاف الضعة، والمهانة والاستكانة؟

[٢] «هد، الرجل: مات.

[١] «صفوان: جمع صفوانة وهى: صحرة ملساء.

(٣) لكل طريقة ورد خاص بها تفضله على جميع الأوراد الأخرى، بل تفضله على القرآن، قال طاغوت التيجانية: «وسالته ﷺ عن صلاة الفاع، فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانياً أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع فى الكون، ومن كل ذكر، ومن كل دعاء كبير أو صغير، ومن القرآن ستة آلاف مرة» ص ١٠٣ ج ١ «جواهر المعاني» لابن حراز التيجاني طريقة. فتدبر كيف تجاهد الصوفية فى سبيل صرف المسلمين عن كتاب الله!!.

[٤] «السل: مرض يصيب الرئة يهزل صاحبه ويقتله.

دعوى الصوفية وأدعيتهم

غَشَّتْ الصوفيةُ بصائرَ عشاقها بما تَسْحَرُ به من فنون الخيال الغزليِّ، والشاعرية الحاملة في الصور البيانية المتأنقة الفتنة، المكحولة الروعة ذلك ما جعل بعضهم يجاد لنا في شأن الصوفية، فيأتينا بأدعية ونجاوي صوفية، فيها وشيُّ السحر الشاعر وفتنته، وبدعاوي فيها روحانية الحق وروعته، ثم يقول: أوَمَنْ يقولون هذا، تفتري عليهم أنهم غير مسلمين؟!

لهؤلاء الذين خَلَبَهُمُ عشقُ الصوفية أقول: ما من كُهانٍ نحلة ضالة، أو أحبار دين زائف، إلا وناجوا معبودهم، ودَعَوْه بما يُخَيِّلُ إليك من سحره أنه ضراعة نبوة في فجر الوحي، فهل نعدهم مسلمين بتلك النجاوي، وهذه الأدعية؟!

سلوهم قبل الفتنة: لِمَنْ هذه النجوى؟، ولمن تضرعون بهذا الدعاء؟، سلوهم عن صفات معبودهم، وأسمائه الحسنی، وعن شرعته التي كلفهم بها، وهناك حين يجيبونكم توقنون أنهم لا يناجون الله، ولا يدعونه، وإنما يفعلون ذلك لآلهة أخرى ابتدعوها؛ لَتُعْبَدَ من دون الله!.

ويذكرنا هؤلاء المسحورون بدعاوي الصوفية، إذ يفترون: «كلامنا هذا مُقَيَّدٌ بالكتاب والسنة!»، وكذلك زعمت كل فرقة نجمت^[١] في الجماعة الإسلامية؛ لتجد لها أنصاراً وأعواناً من الأغرار، الذين يخدعهم زيف القول الخلو عن رياء العمل المرأ، قالتها الشيعة^[٢] التي تُؤَلِّه أئمتها، وقالتها المعتزلة^[٣]، وقالتها المجسمة^[٤]، وتقولها القاديانية والبهائية!، وقد نقلت لك

[١] دهم الشيء، نجوماً: طلع وظهر.

[٢] الشيعة: طائفة من الطوائف الضالة، وهي مشهورة ومتشعبة؛ ظهرت في بادئ الأمر على كل من ناصر وشايخ علياً وأصحابه، ثم تطور الأمر بهم، حتى كان لهم عقائد ضالة مضلة مثل الرجعة والبداء، وانقسمت فرق كثيرة؛ منها الإسماعيلية والإثنى عشرية، والباطنية وغيرهم.

[٣] المعتزلة: هم من عطلوا صفات الله - تعالى - عن معناها الحقيقي، فيقولون أن الله سميع - بلا سمع، وبصير بلا بصر.

[٤] المجسمة: هم من شبهوا صفات الله - تعالى - بصفات عبده، فيقولون: سميعٌ كسمع البشر، بصير كبصر البشر.

عن النابلسي - وهو صنف صوفي كبير - دعواه أن وحدة الوجود مستمدة من الكتاب والسنة!

إنك لا تستطيع أن تمنع إنساناً من أن يدعي ما يشاء، ولكن الذي تستطيعه هو أن تبطل دعواه، وتزنها بميزان الحق من الكتاب، وثمت تستطيع أن تحكم عليه عن بَيِّنَةٍ بالصدق، أو الكذب فيما ادعاه. وقد اُبتليت معتقدات الصوفية وأربابها وأكهتها، فهل ترى لها أثارة من نسب إلى شرع، أو عقل؟

لقد جحدت الصوفية الحقيقة الأولى، تلك التي يقررها الشرع، ويحكم بها العقل؛ وهي أن الله - سبحانه وتعالى - مُغَايِرٌ لخلقهِ في ذاته وصفاته وأفعاله، فكيف نحكم عليها بأنها تؤمن بما يترتب على تلك الحقيقة العليا من حقائق مقدسة؟ ليس المهم أن تقول، بل الأهم أن تعمل بما تقول، فهل يعمل الصوفية بالكتاب والسنة، كما ينافق بعض زعمائهم؟! ومِمَّا يجادلنا به عشاقُ السحر الصوفي قول ابن الفارض:

وإن خطرت لي في سواك إرادة على خاطري يوماً حكمتُ بِرَدِّتي

وعلى ما في هذا البيت من غلو الإسراف في دعوى التجرد^(١)، وحقارة الكذب، فإن هؤلاء ينسون قول ابن الفارض في نفس القصيدة:

فلا حيٍّ إلا من حياتي حياته وطوع مُرَادِي كُلِّ نفسٍ مُريدَة

وينسون ما طفحت به تائيته الكبرى من زندقة باغية الجراءة، تؤكد لك أنه حين يناجي ربًّا؛ فإنما يعني به أنثى مستباحة العفة، أو رمة بالية أو نفسَه التي تَحَقَّقَ بها وجودُ ذلك الرب في مرتبته العَيْنِيَّة^١، ويجادلنا هؤلاء بقول رابعة: «ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، وإنما عبدتك لذاتك»، ثم

(١) الإرادة الإنسانية مجال فاسح من الخير الذاتي؛ كإرادة الزواج، وكسب العيش، وإرادة التمتع الروحي بما أبدع الله من جمال في جنات الأرض، وما على من يرهق ذلك جاح من الله ذي الرحمة. ألم يقل الرسول ﷺ:

«حبيب إلى من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة» (صحيح: رواه أحمد ١٢٣١٥، والسنائي في الكبرى ٨٨٨٧، وصححه الألباني، صحيح الجامع ٥٣١٢٤) وهل الحب إلا

إرادة مصممة قاهرة؟ فهل أشرك محمد؛ لأنه أراد ذلك؟

يهتفون لرابعة شهيدة العشق الإلهي، رابعة التي تزعم أنها تجردت من كل رغبة، أو رهبة، أو طمع، أو خوف^١.

هؤلاء ينسون أن رابعة بهذا السحر الصوفي الفاتن تستشرف عزة الألوهية^١، وتفتري لنفسها الشائنة^{١١} مقاماً يسمو عن مقام الرسل الذين جعل الله من صفاتهم أنهم يدعونه: رَغَبًا وَرَهَبًا، أو خوفاً وطمعاً، يقول الله عن زكريا وآله - : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠] ثم تأمل هذه الآيات التي تنجيك من سحر رابعة: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ٩١﴾ [الأعراف: ١٧] وَصَفَ اللَّهُ من يدعونه خوفاً وطمعاً بأنهم محسنون، والإحسان أسمى مراتب العبادة، وأكمل مقامات العبودية، والعبودية هي غاية الحب، مع غاية التذلل، فما الحب الذي تطفح به مشاعر رابعة^{١٢}!

﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السجدة: ١٦] أُرِيتَ في صور القديسين الناسكين أروع من صور هؤلاء الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع لذكر الله؟!، ومن أخص صفاتهم دعاء الله خوفاً وطمعاً^{١٣}، فما حب رابعة^{١٤}.

من أخص خصائص البشرية أنها ترغب وترهب، حتى بشرية الأنبياء والرسل، ترهب وهي أسمى مقاماتها، ومن أصدق الدلائل على الحب المسيطر القاهر، أن يمتليء القلب رغبة في المحبوب ورهبة منه؛ رغبة في رضاه، ورهبة من غضبه^٢ أو جفاه، فإذا لم تكن رغبة في نواله، فقد سئمته، وإذا لم تكن رغبة من عقابه فقد احتقرته، وكلما تسامى الحب، قويت الرغبة في نوال المحبوب، واشتدت الرهبة من حرمانه، الرغبة والرهبة جناحاً الحب للذان

[١] «شاه»: أبغضه وتجنبه.

(٢) وجراء رضوان الله في الآخرة الجنة، وجراء غضبه فيها النار، فإذا لم ترغب في جنته، فانت غير راغب في رضاه، وإذا لم ترهب ناره، فانت لا ترهب غضبه، وإذا لم ترغب الرضا، وترهب الغضب، فانت دعي حب كذوب.

يُحَلِّقُ بِهِمَا فَوْقَ الذَّرَى^[١]، فَإِذَا تَجَرَّدَتْ مِنْهُمَا كَانَ حَبْكُ كَاذِبًا، لَا يَقْهَرُ مِنْكَ شَعُورًا، وَلَا يُوجِّهُ إِرَادَةً.

ولكن رابعة تزعم أنها تجردت من تلك البشرية الطهور، بشرية القديسين بشرية أولي العزم من الرسل! فماذا وراء هذا الزعم؟ وراء أنها في قمتها العليا لا تدنو منها مكانة المصطفين الأخيار من أنبياء الله، وراء أنها ليست بشراً، بل إلهاً، فالملائكة أنفسهم يرغبون، ويرهبون!، وراء اتهام صريح لمن تَنَزَّلَ القرآن - وتعالى الله عن إفك رابعة - بأنه أخطأ حين أمرنا أن ندعوه خوفاً وطمعاً، وَدَاجِي حِينَ رَغَبْنَا فِي الْجَنَّةِ، وَخَوْفْنَا مِنَ النَّارِ.

دعواها التجرد شعوراً منها - وما أخبت هذا الشعور وأكذبه - بأنها ساوت من تحب! ثم مَنْ رابعة هذه؟ أليست هي التي تقول عن الكعبة: «هذا الصنم المعبود في الأرض»^(٢)؟.

ثم اقرأ هذه الآية: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١] هذه القديسة^[٣] العظيمة التي طيب الله ذكرها، وخلَّده في كتابه، وضربها مثلاً للذين آمنوا، إنها تضرع إلى الله؛ ليبني لها بيتاً في الجنة، أما رابعة التي لا تزن في القيمة خاطرة من امرأة فرعون، فتستعلي أن تطلب الجنة!، واقرأ النور في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [التوبة: ١١١] وَعَدُّ كَرِيمٍ عَظِيمٍ مِنَ الْكَرِيمِ الْقَادِرِ، يشتري به نفس المؤمن وماله، وما ذلك الوعد؟ أن تكون له الجنة، وقد وصف وعده في ختام الآية بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] ولكن رابعة في تعاليها الجاحد، لا تراه فوزاً عظيماً، فتطلب غيره!، أليس هذا اتهاماً للكریم بالبخل، أو بأنه لم يحسن الوعد، ولا شراء نفس المؤمن وماله بالجنة؟!.

[١] «الذرى» جمع ذُرَّةٌ، وذُرَّةٌ كل شيء: أعلاه.

(٢) ص ٣٨ وما بعدها كتاب «شهيدة العشق الإلهي» للدكتور بدوي.

[٣] «القديسة»: المطهرة.

وينتفض هؤلاء إعجاباً بمعروف الكرخي^(١)، إذ يروون عنه أنه بال على شاطيء نهر، وتيمم، فقيل: يا أبا محفوظ!! الماء منك قريب!! فقال: «لعلي لا أبلغه»^(٢) لقد كان رسول الله يطوف على نسائه، فيغتسل منهن جميعاً بغسل واحد^[٣]، فلماذا كان لا يغتسل عقيب كل واحدة؟، بل ثبت عنه أنه كان أحياناً يبيت جنباً، غير أنه كان يتوضأ!!^[٤]، أكان معروف أشد خوفاً من رسول الله؟، والله أرحم مما يظن معروف، لو أنه سبحانه قبض إليه عبده قبل أن يبلغ الماء القريب ليتوضأ. إنه هوس صوفي يغلو في الحب، حتى يتجرد من الرغبة والرغبة، ويغلو في الخوف، حتى يتيمم والماء منه قيد شبر واحد!!، فما ندري أنحب حتى لا نخاف، أم نخاف حتى لا نحب؟!، ويبهتون ابن حنبل^[٥] أنه سأل بشراً الحافي عن الزكاة، فقال بشر: أما عندكم فالعشر، وأما عندنا، فالعبد، وما ملكك يدها لسيدته!!، وتبرق عيون الصوفية بالسرور السكران، وتميد أعطافهم من نشوة الخمر الصوفي!!.

هؤلاء ينسون الإثم الكبير في قول الصوفي الحافي: «عندنا أم عندكم» فإنه نزعاً من الاسطورة الصوفية التي تزعم: أن الدين شريعة وحقيقة^(٦)، وأن الأولى دين الظاهرية، وأن الأخرى دين الباطنية، وقد سبق الحديث عن ذلك. ويتناسون أنه ينتسب إلى غير أهله حين يزعم أن هذا الحق الذي قاله: «العبد، وما ملكك يدها لسيدته» هو من دين الصوفية، أو من شرعة الباطن!.

(١) توفي سنة ٢٠٠ هـ وكان يقول: «إذا كانت لك حاجة إلى الله فاقسم عليه بي» انظر ص ٩ الرسالة للشيرازي مطبعة التقدم، فتأمل منذ متى كفرت الصوفية!.

(٢) ص ٨٣ «طبقات الصوفية» للسلمي، وقد نسب أبو طالب إلى الرسول. انظر ص ٢٩ ج ٣ «قوت القلوب» ط ١٣٥١ هـ. [٣] رواه مسلم (٣٠٩).

[٤] رواه أحمد (٥٤٧٤٥، ٢٦٢١٣) والنسائي في الكبرى (٢٩٩٢) وصححه الألباني.

[٥] هو الإمام أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله، إمام الدنيا، وهو أشهر من أن يعرف؛ ولد - رحمه الله - ببغداد سنة (١٦٤ هـ)، وطلب العلم وهو صغير، ولزحل حتى صار إماماً في الفقه والحديث، وبلغت شهرته الآفاق، بعد أن وقف في محبة خلق القرآن، وله مؤلفات أشهرها «المسند»، وقد توفي - رحمه الله - سنة (٢٤١ هـ). انظر: «السيرة» (١١ / ١٧٧).

(٦) يقول الدباغ: «إن الولي يسمع كلام الباطن، كما يسمع كلام الظاهر» ولهذا قد يعصي الولي الصوفي في نظر الشريعة، فيكون مطيعاً في نظر الحقيقة. يقول الدباغ: «إن الولي الكبير فيما يظهر للناس يعصي وهو ليس بعاص وإنما حجب روحه ذاته. فظهرت في صورتها، فإذا أخذت في المعصية فليست بمعصية» ص ٤٢ ج ٢ الإبريز. هكذا يطلب منا الصوفية اعتقاد أن معاصيهم طاعات!!.

ثم مَنْ سيد بشر^(١)؟ لقد عرفتم سيد الصوفية الذي يعبدونه، فاعرفوا إذن سيد بشر!

وذكرنا هؤلاء بالأدعية الصوفية التي تتبرَّج فيها أنوثة البيان الفاتنة، وتنهَّل منها دموع الحب، وتنوح جراحه، ولكني أذكر هؤلاء بأن البرهمية^(٢) أو البوذية^(٣) ناجت ربها بصلوات من الدعاء، يغازل الروح شعرها بالروعة الأسرة، شقافة الترانيم عن نفس دلَّها العشق، وقلب تبَّله^(٤) الغرام، كذلك صنعت الزُّرَادَشِيَّةُ^(٥) والمَانَوِيَّةُ، والفرعونية واليهودية، والمسيحية والبهائية^(٦) والقاديانية^(٧)!، وأنت إذ تتلو من أدعية هؤلاء – دون أن تكون على بينة من نسبتيها إليهم – لن تشك في أنها ضراعات القديسين، بشرتهم برضاها السماء!!، فهل نعدم بهذه الادعية دعاة حق، وجنود إسلام؟!، لا تسال الداعي: بماذا تدعورك؟ ولكن سله أولاً: من ربك الذي تدعوه، وما صفاته؟!.

(١) بشر بن الحارث أبو نصر الحافي مات سنة ٢٢٧ هـ.

(٢) نسبة إلى «برهما» الكائن الواحد كما سمي في «الفيدا» كتاب الهند القديم المقدس، وتؤمن هذه النحلة بثلاثة آلهة «براهمان» الرئيس الأعلى، و«فيشنو» إله الحياة، والثالث «سيفا» وهو إله التدمير والخراب. وتؤمن هذه الطائفة بقدسية كهنة الدين؛ لأنهم في نظرهم الذين يملكون لهم الشفاعة عند الآلهة والتأثير عليهم، وعنها أخذت الصوفية هذا التقديس.

(٣) نسبة إلى «بودا» متنبئ هندي ولد في القرن السادس قبل الميلاد، وقد تطورت البوذية حتى اعتقدت في بوذا أنه إله تجسد لينقذ البشرية؛ بأن تحمل عنها عبء خطاياها!!، ويظن بعض الساحثين أنه أسطورة لم توجد، وبصورة بودا صورت الصوفية إبراهيم بن آدم [وحاشا أن يكون إبراهيم بن آدم مثل بوذا] فهو من العباد الثقات المشهود لهم بالفضل.]

[٤] «تبلة»: اسقمه.

(٥) نسبة إلى «زرادشت» متنبئ فارسي ولد قبل المسيح، جاءهم بكتاب اسمه «أفيستا»، ثم أصيغت إليه شروح فسمي: «زند أفيستا» وتؤمن هذه النحلة بالهين أحدهما للخير، واسمه «رمزد» وآخر للشر، واسمه «أهرمن» إلا أن زرادشت يؤمن بانتصار الخير على الشر، فهو ذو نزعة تفاؤلية، لا تشاؤمية كما في ديانة ماني.

(٦) نسبة إلى ميرزا حسين علي الملقب بالبهاء، وخلاصة دينه أن الله سبحانه يظهر في دورات متعاقبة في صور الرسل، وأنه – أي ميرزا حسين علي – آتم وأكمل صورة للتجسد الإلهي، وأنه النبع الذي استمد منه الرسل جميعاً من لدن نوح إلى محمد ﷺ.

(٧) نسبة إلى ميرزا غلام أحمد القادياني نسبة قاديان توفي سنة ١٩٠٨ وقد ادعى أنه المسيح الموعود، أو المهدي المنتظر، وأن الله يوحى إليه، وقد انشطر أتباعه من بعده شطرين أحدهما الاحمدية، والآخرى القاديانية، والأولى أقل غلواً من الأخرى، وكلتاها تكفر من لا يؤمن بغلام أحمد علي أنه المسيح الموعود!!

وهاك أنماطاً من الأدعية، فاقرأها، وتدبرها، وثمت تشعر بقلبك، وقد غمره اليقين بأنها ضراعة عبودية خالصة تتبتل تحت السَّحَر في المحاريب، بيد أنك حين تعرف حقيقة مَنْ بَثَّ دموعَ الحب في تلك الأدعية، وإلى أي دين هو ينتسب، سِيرُود^[١] بك العجبُ كل مرادٍ له، وستأسى على هذا الحلم الجميل الذي نعم به خيالك لحظة، بل ستشعر، كأنما تهوي من قمة السماء إلى غُورِ جبٍ^[٢] سحيق عميق!، غير أن هذا سينجيك من السحر الصوفي الذي يفتنك عن الحق بما يسكرك به من سلاف الأدعية، فتظن بالصوفية في نشوتك ظن الخير، وتحسبها مع المسلمين في فجر ومحراب!.

فاقرأ معي هذا الدعاء: «اللَّهُمَّ لَتَكُنْ مشيئتك أن أسير في طريق شريعتك، وأن أرتبط ارتباطاً وثيقاً بوصياك، اللهم احمني من الذنوب والعصيان وإغراء الشيطان، ولا تجعلنَّ للشهوات سلطاناً عليّ، ولتَكُنْ إرادتي خاضعةً لك، أعني على التمسك بالخير، واشملني برعايتك اللهم آمين»^(٣) أترى في هذه النجوى أثارة من باطل؟ أم تجدها سالحة؛ لتدعو الله بها، وأنت حول بيته؟ وتأمل قوله: «اللهم اللهم» وقوله: «لتكن إرادتي خاضعة لإرادتك»^(٤). ولكن أتدري لمن هذا الدعاء؟ إنه ليهودي! والله تعالى يقول عن اليهود: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] فهل شفع هذا الدعاء وغيره عند الله لليهود؟ كلا. وإن راحوا يملأون به سمع الوجود؛ لأنهم لا يدعون به الله، وإنما يدعون رباً آخر، اختلقته أوهامهم المادية الصماء، لقد رفعوا أيديهم إلى السماء، وهي ملطخة بدم النبيين، وفي قلوبهم شتى أرباب وآلهة! وأطغى من هذا الشر، اقترفت الصوفية.

[١] «داوود على الأمر: طلبه.

[٢] «الحُب»: البئر الواسعة.

[٣] ص ٢٤٦ كتاب «الفكر اليهودي» جمع دكتور هرمس ترجمة الفريد يلوز.

[٤] قارن بهذا قول ابن الفارض «وطوع مرادي كل نفس مريدة».

وهاك آخر: «إلهي عليك توكلت، فلا أخزى إلى الابد، عرفني يارب طرقك، وسُبُلَكَ، علمني، أرشدني إلى حقك، وعلمني؛ لأنك أنت هو إلهي ومُخَلِّصِي، وإياك رجوت اليوم كله، إذا تَصَوَّرْتُ كثرة أفعالي الرَّدِيَّةِ أنا الشقي، فإني أرتعد من يوم الدَّيْنُونَةِ الرهيب^(١)، لكن إذ أنا واثق بِتَحَنُّنِ إشفافك، أهتف إليك مثل داود: ارحمني يا الله كعظيم رحمتك»^(٢) وهذه النجوى الحنون، ألا تجدها رَقَافَةً تروح الحب الآمل في رحمة المعبود؟، ألا ترى فيها الهتاف بدعاء: «يا الله».

ولكن أتدري ما هي؟ إنها صلاة رومية أرثوذكسية^١، والله - تعالى - يقول عن هؤلاء، ومن دان دينه: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ» [المائدة: ٧٣] فهل شفع، أو يشفع هذا الدعاء، ومثله لهم؟ أترأه ينسخ عنهم حكم الله بأنهم كافرون^{١٩}، كلا، وإن تجاوزت بأصدائه جنابات الوجود! فقد آمنوا برب هو ثالث ثلاثة، فلم يناجوا بها «الله» حقاً، وإنما ناجوا بها رباً، يزعمون أنه تجسد في ثلاثة مظاهر، وكُفِّرَ الصوفية أشدَّ شناعة؛ فقد آمنت برب هو عين كل شيء^١، أو كما يقولون في تسبيحتهم المقدَّستين: «المظاهر عين الظاهر» يعنون بالمظاهر أنواع الخلق، وبالظاهر الله تعالى وتقدس الأخرى: «ذات ما ترى، عين ما لا ترى» يعنون أن ما تراه بعينيك من مظاهر الوجود هو عين الإله الصوفي^١.

وهاك دعاء آخر: «السلام عليك أيها الإله العظيم، لقد أتيت إليك يا سيدي في سلام، فكن بي عطوفا فانت صاحب العطف، واستمع لندائي، لبَّ ما أقوله، فإني أنا واحد من عابديك^(٣)» أتتكبر من هذا الدعاء شركاً؟، ولسانك لعنة تنصب عليه؛ فإنه لَوَثْنِيَّة فرعونية عبدت ربَّها في صورة عجل، أو كوكب! وكذلك الصوفية! بل إنها مرَّغت تلك الوثنية الفرعونية في رَدْغتها ثم خرجت بها صوفية تعبد كل شيء^١.

(١) قارن بهذا زعم ابن عربي أن الوعد في الآخرة عين الوعيد، وأن النار عين الجنة ١١.

(٢) ص ٢٤١، ٢٦٨ كتاب «خلاص النفوس في الصلوات والطقوس».

(٣) ص ٣٤١ «مصر» تأليف أدولف إيمان ترجمة الدكتور عبد المصم بكر.

واستمع معي إلى هذا الدعاء: «ربنا إنا نتوجه إليك، ونتضرع بين يديك ونذكرك بالتهليل والتكبير، ونثني عليك بالتسبيح والتقديس. إلهي! وملاذي، وكهف صَوْنِي وَعَوْنِي في شدائدي وبلائي، إني أبسط إليك أكف الضراعة، وأمد إليك أيدي الابتغال، يارب المتعالي، وياذا الجلال والجمال، أن تنزل كل بركتك وموهبتك، وسابقة رحمتك، وسابقة نعمتك على أحببتك الذين شملتهم لحظات أعين رحمانيتك»^(١) فهذه النجوى المضمخة بالعبير سكران الرُّوح، غرامي النفحات، أتمس فيها شيئاً يرغب عنه إخلاص توحيد؟، ولكن أتدري لمن هي؟ إنها للزنديق القزم القوميء عباس بن ميرزا حسين أو «عبد البهاء» يناجي بها ربّه أفتجعل منه هذه الصلاة مسلماً ناسكاً في الفجر؟، كلا، فإنه لا يناجي بها الله، وإنما يناجي بها أباه ميرزا حسين علي الذي آمن به زنادقة البابية من الشيعة أنه أتم وأكمل مظهر تجسّدت فيه الذات الإلهية، فقد زعم لهم ذلك، فأمنوا بما زعم!، وقد زادت الصوفية هذا الكفر خطيئة، فعبدت رباً يتجسد بذاته ووجوده وصفاته وأفعاله في كل شيء!.

مقارنة

ثم قارن بين تلك الادعية التي آمنت ألفاظها، وكفرت قلوبها، وبين هذا الدعاء الصوفي الذي كفر لفظه ومعناه وقلب مفتريه! «إلهي استهلك كُلِّيَّتِي في كُلِّيَّتِكَ، وأمدْ أَوْلِيَّتِي بِأَوْلِيَّتِكَ، حتى أشهد أوليتك في أوليتي، وآخِرِيَّتِكَ في آخِرِيَّتِي، وظَاهِرِيَّتِكَ في ظَاهِرِيَّتِي، وباطنيتك في باطنيتي، وقابليتك في قابليتي، وأنت في إِنْشِيَّتِي، وهُوِيَّتِكَ في هُوِيَّتِي»^(٢)، ومعيتك في معيتي، حتى أكون عنوان ذلك السر كله بل شكله وصورته^(٣) «يدعو الله - سبحانه وتعالى - أن يجعله عينه وجوداً وذاتاً وحقيقة!!، وَمَنْ يجرؤ على هذه الزندقة غير ابن عربي؟!

(١) ص ٢٢٠، ٢٦٥ «مكاتيب عبد البهاء».

(٢) أي وجوده الظاهر.

(٣) الهوية باطن الذات الإلهية عند الصوفية، يطلب من الله أن يجعل وجوده الباطن والظاهر عين وجوده هو

في إنشئته وهويته!!.

واليك صلاته على نبيه: «اللهم صل وسلم وبارك على الطلعة الذات المَطْلَسَم، والغيث المَطْمَطَم، لاهوت الجمال، وناسوت الوصال»^(١)، وطلعة الحق، هوية إنسان الازل^(٢)، في نشر من لم يزل^(٣)، من أقمت به نواسيت الفرق إلى طريق الحق، فَصَلُّ اللهم به منه فيه»^(٤) يقول ابن عربي: اللهم صل على محمد الذي تَجَسَّدَ فيه الله، اللهم صل على نفسك التي ظهرت، وتظهر في صور الكائنات. ألا ترى مع الحق أن هذا الدعاء الصوفي يَحْمُومُ الكفر الأثيم، وخطيئة الوثنية الجاحدة؟.

وما إخالك بعد هذا ممَّن ستخدعه فتنة السراب الخلوب فيما تتغرَّل به الصوفية من أدعية شعرية أو نثرية، فإنها إذ تدعو، أو تصلي، فإنما تفتري ذلك لرب ليس هو ربك الحق أيها المسلم، قد يفتنك من الصوفي دعاؤه: «اللهم» غير أن هذا الدعاء يهتف به البوذي واليهودي والبهائي، وكُلُّ يعني به رب هواه، وإله أساطيره! وقد يخدعك من الصوفي قوله: «اللهم صل على محمد» ويقولها أيضاً البهائي! فمحمد الذي تصلي عليه الصوفية، ليس هو خاتم النبيين، وإنما هو ظن ابتدعوه، وسموه: «محمداً»؛ ليفتنوك به. محمد هم هو إله الآلهة الصوفية في تجسد بشري، بل إنك لترى الصوفية في كتبهم لا يسمونه إلا: بـ «الحقيقة المحمدية» يعنون بذلك أن الله حقيقة متعينة أو متجسدة في صورة محمد! ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [١١٦] [الأنعام: ١١٦] ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَفَّيْهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عِثَابَ غَشَاةٍ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢] هذا حكم الله، فبأي حكم بعده تؤمنون؟.

(١) ص ١٥ «مجموعة الأحزاب» ط استامبول سنة ١٢٩٨ هـ.

(٢) أي الإنسان الذي وصل بين الألوهية والإنسانية في ذاته، فباطنه لاهوت، وظاهره ناسوت.

(٣) أي حقيقة الله، فالله عند ابن عربي إنسان قديم.

(٤) أي هو الإله القديم الذي ظهر في صورة إنسان، وعن هذا الإنسان انتشرت جميع الأنواع الخلقية، وعنه ينتشر ما لا يزال في مكنون الغيب من أنواع الخلق.

ويافك الصوفية أنهم أحباء الله، وأحباء رسوله!، يفترون ذلك في صوت ناعم رقيق، فَيُرْعَشُ جسدك سكر الصوت المُفْعَم بانوثة الرياء، وخنوثة النفاق فيصرخ «الدرويش» في وجه من يذكره بالحق: «أومن يقولون ذلك تفترون عليهم أنهم عدو لله!؟» ولكن لا تنس يا صاح أن اليهودية والنصرانية زعمتا هذا، فكذبهما الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ٢٠] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨] والدليل على الحب الصادق لله طاعته وتقواه، ومتابعة رسوله فيما جاء به ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] .

ولقد ذكرت لك دين الصوفية كما هو في كتبهم المقدسة، فهل تجد فيه بارقة من ظن، تميل بك إلى توهم أنهم أحباء الله أوداء رسوله؟، إنهم دانوا بأخبارهم وكهانهم أرباباً من دون الله، فكيف تصدق أنهم أحباء الله ورسوله؟ .
ودعوي حبهم للرسول وآل بيته دعوى الرجس أنه قداسة، والإثم الكبير أنه روحانية فضيلة!!، وكتلك الفرية افتراء الشيعة أنهم أحباء آل بيت محمد!!، أترى الشيعة والصوفية: اتبعوا الرسول، وجعلوه وحده الأسوة والقُدوة الحسنة!؟، مائتم ما يحتجون به لدعواهم سوى العكوف على الأضرحة الزنيمة^[١] المفترة لآل البيت!، سوى تلك القباب التي شيدها معبودة على عظام نخرة، لا تدري أهى لحيوان أم إنسان^(٢)، أم هي أمشاج من عظام شتى، لا تدري أهى لصالح أما طالح، لمسلم أم يهودي، فقد شيدها الفاطمية^[٣] في مصر؛ لتصرف الناس عن حج بيت الله، ولتجعل قلوب المسلمين نفسها قبوراً خربة، ثم سميتها بأسماء آل البيت، وأقامت علي سدانها وعبادتها الصوفية!، ما لهم من دليل على حبهم لآل البيت سوى عبادة

[١] «الزنيه»: المستحل في قوم ليس منهم. (٢) ص ١٤ المصدر السابق.

[٣] «الفاطميون»: من الأسر الإسماعيلية الشيعية الباطنية، التي كانت حاكمة في شمال أفريقيا وبعد ذلك في مصر - في الفترة (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ)، (٩٠٩ - ١١٧١ م) وأسسها عبيد الله المهدي الشيعي (ت. ٣٢٢ هـ). انظر: «دائرة المعارف الإسلامية» (٢٥ / ٧٧٣٤).

تلك الأصنام بتقبيل أستارها وأحجارها ولثم نحاسها وخشبها، وتعطير أجوائها، والاستشفاع بأعتابها، واقتراف الأعياد الوثنية في كل موسم لها، وسل الآمين تلك «الموالد» عن عريدة الشيطان في باحاتها^[١]، وعن الإثم المهتك في حاناتها، وعن حمم الشهوات التي تتفجر تحت سود ليلاتها^[٢]، وهكذا تكذ الصوفية في سبيل أن تجعل دنيا المسلمين كلها مقبرة، قفراء إلا من الوحشة، جرداء إلا من الرهبة والفرع، خاوية إلا من الخطايا تُقْتَرَفُ باسم الإسلام، تكذ في سبيل أن تجعل نفوس المسلمين مقابر، وغاياتهم المقابر، وآلتههم العظام البوالي في المقابر، وتحت المسلمين؛ ليجعلوا الحياة كلها قرباناً إلى غيابات العدم، وجيف المقابر، فما ينقضي في مصر أسبوع إلا وتحشد الصوفية أساطير شركها، وعُبادَ أوثانها عند مقبرة يُسَبِّحُونَ بحمد جيفتها، ويسجدون أذلاء لرمتها، ويقتربون خطايا المجوسية في حَمَاتِها، ويحتسون آثام الخمر و«الحشيش» والأجساد التي طرحها الليل علي الإثم فجوراً ومعصية! ويسمون لها للناس: «موالد» أو مواسم عبر وذكريات خوالد!، وما تجتمع جماعة صوفية، أو تنفض، إلا ليبعثوا كيف يحتفلون بصنم قبر، أو رمة قبر؟! وما يَهْوَمُ ليل على صوفي، أو يُفَزَعُه بالنور نهار، إلا وقلبه مستعبد بهوى صنم قبر، أو رمة قبر، وما يقعد صوفي أو يقوم، أو يركب أو يمشي إلا وينعق مستغيثاً بصنم قبر، أو رمة قبر، قبور قبورا، هذه هي دنيا الصوفية، لها جهاد الصوفية، ولرممها عبادتها، لها تحيا، ولها تموت، وبها تعيش! وخير ما تتمناه الصوفية، هو أن يهلك المسلمون جميعاً، حتى يكون في كل ساعة «مولد» مقبرة، وعيد رمة، فليقتل المسلمون أنفسهم؛ ليمدوا الصوفية بأعياد كثيرة

[١] «الباحات» جمع باحة وهي: الساحة.

(١) يصف الجبرتي ما كان يحدث في مولد العفيفي - وكانما يصف موالد اليوم «ينصبون خياماً كثيرة وصوابين ومطابخ وقهاوي، ويجتمع العالم الأكبر من اخلاط الناس، وخواصهم وعوامهم، و[فلاحين] الأرياف وأرباب الملاهي والملاعب والغوازي والبغايا والقرادين والحواة، فيملكون الصحراء والبستان، فيطئون القبور [ويوقدون عليها النيران، ويصبون عليها القاذورات] ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمرور ليلاً ونهاراً، ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر] ويجتمع لذلك الفقهاء والعلماء، وينصبون لهم خياماً أيضاً ويقتدي بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار، بل يعتقدون أن ذلك قرينة وعبادة، ولو لم يكن ذلك، لأنكره العلماء، فضلاً عن كونهم يفعلونه، فإله يتولى هدانا أجمعين» ص ٢٢٥ ج ١ «تاريخ الجبرتي» ط ١٣٢٢ هـ.

للقبور، ونذور للجماجم، ما لهم من دليل على حبهم للرسول وآل بيته سوى تلك «التواشيح» التي يتغزلون بها في العيون الحوالم^[١] النُفس^[٢]، والشفاه الظواميء اللُفس^[٣]، والأهداب المسبلات في إغراء على لهب من الورد يتوهج في الخدود النُضر، تلك هي أدلتهم! وبالحياة من أدلة! حياة كلها خطايا، وقلوب أربابها رمم معبودة، ونفوس آلهتها جيف، وأفكار كلها للأساطير وحياة ميتة، ووجود يفزع منه العدم، ودنيا خمول خامد تعصف بها الذلة. فآين الكفاح في سبيل بناء الحياة؟.

إن الله - سبحانه - وصف لنا نفسه في كتابه الحق بصفاته المقدسة، وسمى نفسه بأسمائه الحسنى، فوصفه المسلمون، وسموه بما وصف، وسمى به نفسه، فلم يفتروا له صفة، ولم يبتدعوا له اسماً، ولم يختلقوا لصفاته، ولا لأسمائه [معان] غير التي وردت في اللغة التي نزل الله بها كتابه، هذا؛ لكيلا يفتروا عليه ما لم يتكلم به، أو يصفوه بما لا يحبه، أو يسموه بما لا يرضاه، وشرع سبحانه لنا شرعاً هادياً كريماً ختم به شرعته، بلغه رسوله الأمين، فلم يدخل المسلمون في شرعه سبحانه ما ليس منه، ولم يتهموا شرعه بالقصور أو التقصير؛ لأن ربه الحكيم الخبير خالق الزمان والمكان، يعلم ما يصلح لكل زمان ومكان، وقد أخبرهم سبحانه أن رسالة محمد، هي خاتمة الرسالات، فليس بعده من نبي ولا رسول، فما جاء به صالح للحياة، حتى تقوم الساعة، وإلا اتهمنا مَنْ نزل به بأنه غير عليم ولا خبير ولا حكيم، كذلك لم يتهم المسلمون شرع الله بالجمود، ولا بأنه عقبة كئود^[٤] تقف في طريق سُمُو حضارة الإنسانية، أو تقدمها.

[١] «الحوالم» جمع «حالم» و«حَلَمَ» الصبي: بلغ مبلغ الرجال.

[٢] «نُفس»: فترت حواسه فقارب النوم، وخص المؤلف العيون؛ لأنها أول ما تلاحظ في النوم ولوصفها بأنها ذابلتين كذبول الناعس.

[٣] «لُفس»: لون الشَّفة إذا كانت تضرب إلى السواد.

[٤] عقبة كُؤود: صعبة.

أما الصوفية، فتجحد بما وصف الله، أو سمي به نفسه، وتكفر بوحيه، وتؤمن برب تجزأت ذاته، فكانت كل شيء تراه العين، أو يطيف بالظن، فلتناج الصوفية بصلواتها ما تشاء، ولتدّر بالدعوات تحت أقبية الليل في هياكلها العبقة بالبخور الوثني، فإنما تناجي أصناماً، وإنما تضرع إلى رم.

دعوة الصوفية الأخلاقية

يزعم بعض الكاتبين أن الصوفية دعوة أخلاقية مثالية، ويستشهد لذلك بما يلمحه في كتبهم من دعوة إلى الاخلاق الفاضلة، وبما يفتنه من روعة الجمال في البيان الأدبي عن تلك الدعوة، وعلى ما في هذا الزعم الغافل من غشون^[١] سود من الكذب، وتجاويد^[٢] كابية من الباطل، فإنني أقول: إن الدعوة إلى الاخلاق الفاضلة كمّ مشترك بين الأديان جميعها، سواء منها ما نزل به وحى من الله، أو ما فترته الأهواء، وأفكته الأساطير، فتش في كتب البوذية والبرهمية، والزرادشتية والمناوية والغنوصية وإخوان الصفا^[٣]، بل فتش حتى في كتب اليهود الوضعية، وفي كتب أية نحلة^[٤] ضالة، تجد دعوة تلهب حماسة إلى التسامي بالخلق، وإلى تحقيق مثله العليا، فليست الصوفية - إن صدقنا زعمها - بدعاً في زعمومها، وإنما هي كغيرها من الدعوات الضالة، شرّ ينافق بأنه: برّ الخير، ورذيلة ترائي بأنها: روح الفضيلة، وكفر يختال بأنه: إيمان

[١] الغشون: جمع غش وهو: كل ثنّ وتكسر في ثوب أو درع ونحوه، ويقال: جاء في غشون كلامك كذا: في أثناقه وطياته.

[٢] جعد: الشعر وغيره: اجتمع وتقبّض والتوى.

[٣] «إخوان الصفا»: جماعة سرية باطنية مزجت الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية بالعقيدة الإسلامية، وكان أول ظهورها في النصف الثاني من القرن الرابع، وهي تستهدف القضاء على الإسلام ودولته لتأسيس دولتهم التي تضم شتى عقائد الوثنية والمجوسية والإباحية، قالوا بأن الإمام إلهي الذات وإنه معصوم، وقالوا بوحدة الأديان وإلغاء التعصب الديني. وأهم أعلامهم: محمد بن مشير البستي، وأبو الحسن علي بن هارون الرنجماني. انظر: «الموسوعة الميسرة» (٢ / ٩٥٠).

[٤] فالهائية مثلاً تزعم أنها تؤمن بكل الكتب السماوية، كالنوراة والإنجيل والقرآن، وتسجل هذا في كتبها، وترغم أنها تدعو إلى السلام العالمي، والإخاء البشري العام، فهل نحكم بأنها نحلة مؤمنة مسلمة؟ كلا. فإنها تدين برب تجسد في سيدنا ميرزا حسين علي. والصوفية شر منها في معتقداتها الباطلة.

النبوة، فليست الدعو الخلقية هي الفَيَصَل بين دين ودين، أو دعوة ودعوة - فإنها في كل دعوة، وفي كل دين - وإنما الفَيَصَل بين الأديان والدعوات، وكونها حقاً أو باطلاً، خيراً أو شراً هو العقيدة التي تنبعث عنها هذه الدعوة الخلقية، أو الباعث الذي يكمن وراء السلوك، والغاية التي توجهه إلى هدفه، وترجي منه. وقد ذكرت لك دين الصوفية، أو عقيدتها، فهل تجدّها حقاً؟، وهل نعتبر ما تدعو إليه من المثل الأخلاقية خيراً، وإن كانت رائعة البيان فاتنة الصُّور، خيرة المظهر؟، وهل نعتبر ما ينبعث عنها من عمل خيراً في ذاته، كبر يتيم، أو جهاد في سبيل مثل أعلى يعطف الإعجاب، ويلهم الفداءية؟، كلا. فالله يقول لنبيه: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] وإن كان عمله خيراً نبيلاً في أعراف السُّلوكيين. هذا؛ لأن الباعث، أو النية، أو العقيدة التي ينبعث عنها هذا العمل، ليست حقاً ولا خيراً، فكل ما ينتج عنها من سلوك، فهو مثلها باطل وشر. ألم تر إلى هذا البطل العربي الذي قاتل مع أصحاب النبي قتالاً ليس كمثله قتال في الصبر والجَلاد والبطولة التي تكافح الموت. لقد قال عنه رسول الله ﷺ: «إنه في النار»! [١] هذا؛ لأنه قاتل حَمِيَّة، لا في سبيل الله، أو بمعنى آخر: لم تكن لديه العقيدة المخالصة التي تجعل من هذا القتال خيراً، أو عملاً صالحاً له عند الله ثوابه. وعقيدة الصوفية إيمان برب يتجسد بذاته في حجر أو جيفة، فغاية الصوفي من عمله رضوان الإله المتجسد في الحجر والجيفة، وباعثه على العمل حب الحجر أو الجيفة!

أما عمل المسلم، ودعوة المسلم الخلقية، وجهاد المسلم؛ فوراء هذا كله

[١] روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون، فافتتلوا فلماً مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب النبي ﷺ رجل لا يدع لهم شاة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقال: ما أجزأنا أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه من أهل النار الحديث انظر: البخاري (٢٨٩٨، ٤٢٠٧، ٦٤٩٣، ٦٦٠٧) ومسلم (١١٢).

عقيدة خالصة، تُوحِّدُ اللهَ توحيداً خالصاً في ربوبيته وإلهيته، ويوجه ذلك كله غاية سامية مُطَهَّرة؛ هي رضوان الله وحده.

يقولون: اقرأوا ما كتب الصوفية من دعوة إلى التسامي والروحانية، والتأملات الشاعرة في أسرار الكون، وسرائر النفس والحياة، والاستسلام المطلق إلى مُبدع الوجود. وأقول لهم: بل اقرأوا ما كتب الصوفية عن الله ورسله، واقرأوا ما كتب الصوفية عن معتقدتهم. ابتلوا العقائد، قبل ابتلاء الأخلاق يا أسارى الصوفية!، فما الخُلُقُ إلا نتيجة، والصوفية نفسها تقرر أنها دين وعقيدة، قبل أن تكون دعوة خلقية، فلنحاسب على دينها واعتقادها قبل محاسبتها على دعوتها الأخلاقية!، وما أحكم وأحسن قول الفضيل بن عياض^[١]: «إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً، لم يُقَبَل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً لم يُقَبَل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما على السنة، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] (٢).

فعلى الذين يعصف بهم الإعجاب بدعوة الصوفية الخلقية، أن يولوا إعجابهم شِطْر كل فرقة حكم الله عليها بالكفر، ففيها أيضاً الدعوة إلى مثل تلك الأخلاق التي يسحركم البيان عنها في الصوفية!، بل في بعضها أروع مما في الصوفية اقرأوا هذه الدعوة: «خَفِ اللهَ إله آبائك، واخدمه بحب؛ لأن مخافة الله وحدها هي التي تَرَدِّع الإنسان عن الذنوب، وحبُّه تعالى هو الذي يحث المرء على الخير، دَرَبَ نَفْسِكَ على الخصال الحميدة، أحبُّ الحقيقة والاستقامة زينة النفس، وتعلّق بهما، كن حازماً في المحافظة على كلمتك. ترفع عن المواربة والتهرّب والمراوغة، أبغض الكسل والخمول».

[١] هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر بن ثقة عابد، ولد بخراسان، وتوفي بمكة سنة (١٨٧ هـ)، السير

(٨ / ٤٢١).

(٢) ص ٧٤ «تفسير ابن القيم».

دعوة حارة إلى أروع الأخلاق، وَحَقَّ يَرَفُ وقُدسية ولكن! ثم اقرأوا هذه: «إننا نبغي من العالم الحقيقة المجردة، ونجني الخير والطهر والجمال» دعوى رِيَانة الجمال، ولكن ليتها كانت صادقة! واقرأوا هذه: «إن لم تكن لنفسك، فَلِمَنْ تكون؟ ولكن إن كنت لنفسك فقط، فلم تكون؟!» دعوة إلى الإيثار النبيل والتكافل الرحيم الودود. واقرأوا هذه: فِكْر مَلِيًّا في ثلاثة أمور؛ تَنْجُ إلى الأبد من سيطرة الذنوب، اعلم: أن فوقك عينا ناظرة، وأذا سامعة، وأن جميع أعمالك مسجلة في كتاب^[١] قول تظنه إيماناً يتهجد بالصلاة المؤمنة، قول يوحى بالإيمان بأن الله بكل شيء محيط.

تلك الدعوات الرائعة في تساميتها الغائي^[٢] ليس في الصوفية مثلها، ومع هذا حكم الله سبحانه على أصحاب تلك الدعوات بأنهم عدوه، وأن عليهم غضبه ولعنته؛ لأنهم يهود، والعقيدة اليهودية ضلالة، وباطل، فكل ما انبعث عنها من عمل، أو قول، فهو مثلها ضلال وباطل، وحابطٌ عند الله، وإن كان يستهدف المثل العليا في أعراف الأخلاقيين.

فلو أن الدعوة الخلقية كانت وحدها، هي الميزان الذي نَزَنُ به إيمان الإنسان أو كفره، لحكمنا على أولئك اليهود الملعونين بأنهم بررة يَتَّبَتَلُونَ في المحاريب المقدسة!، لو كانت الدعوة الخلقية وحدها، هي أساس الحكم على الإنسان بأنه مسلم أو غير مسلم، لدخل تحت الحكم بالإسلام كل زنديق وملحد وكافر، فما منهم من أحد إلا ويدعو إلى الأخلاق الفاضلة.

العقيدة الصافية هي ملاك الأمر كله، وروح الدين كله، وهي التي تُقَوِّمُ العمل والخلق بالخيرية أو الشرية في نظر الإسلام، وهي التي لها المقام الأول والاعتبار الأسمى عند الله سبحانه، ثم تَمَثَّلُ ما تقتضيه تلك العقيدة الصافية في حياتنا أخلاقاً وسلوكاً ودعوة، واتباعاً صحيحاً لهدى الله وحده.

(١) تلك النصوص عن «الفكر اليهودي» ترجمة ألفريد بلوز من ص ٢٤، ٢٠٠، ٢٠٢ وما بعدها.

[٢] من الغاية: مدى الشيء.

ليس المهم ما تتخلق به، أو تقوله، أو تعمله، بل الأهم قبل كل شيء ما تعتقده، اذكروا مرة أخرى، بل اذكروها دائماً، تلك هي الآية التي يقول رب العالمين فيها محمد: ﴿قَبْنِ أَشْرَكَتْ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. والمَعْنَى طبعاً؛ هو العمل الذي يبدو خيراً في ذاته، وإلا لما كان للتوعد بحبوطه معنى. ولقد أشرك الصوفية إشراكاً خبيثاً، وأخبت ما فيه أنه يفتن الناس عن حقيقته، فيظنون توحيداً صافياً. لقد خدعتك الدعوة الخلقية في الصوفية عن عقيدتها، فوزنت قولها في الأخلاق بميزانك العاطفي الذي يهتز مع الخديعة، ويميل ظالماً مع الهوى، ولكن زنها بميزان الحق والعدل من كتاب الله، زنها بميزان التوحيد الخالص، وثمت ترى أنها الفتنة الخاتلة، وأن دعوتها الخلقية ليست إلا شَفْ رياء يحاول ستر عقيدتها الملحدة، اسمعوا ما يقول ابن عربي عن الله:

يا خالق الأشياء في نفسه أنت لما تخلقه جامع

تخلق ما لا ينتهي كونه فيه ك، فانت الضيق الواسع^(١)

يصف الله بأنه خالق مخلوق، وبأن ذاته هي جميع ذوات أنواع الخلق، وأنه ما زال يخلق في نفسه ما لا ينتهي من أنواع الخلق، فهو ضيق؛ باعتباره حقاً؛ أي مجرداً عن النعوت، وهو واسع باعتباره خلقاً متنوعاً كثيراً لا ينتهي. واسمع إليه يقول عن الله: «فذكر - أي الله - أن هويته هي عين الجوارح التي هي عين العبد، فالهوية واحدة، والجوارح مختلفة، ولكل جارحة علم من علوم الأذواق يخصها من عين واحدة تختلف باختلاف الجوارح».

يصف الله بأنه نفس جوارح العبيد، قيد السارق، ويد القتال، ويد المرتشي، ويد المقامر، ويد الخمور يتناول بها الإثم. كل هذه الأيدي، هي أيدي رب ابن عربي، والعين المختلسة والأذن السارقة، والقم المنتن من الحرام، كل أولئك من جوارح رب ابن عربي، والمعارف الحسية التي نستمدّها من اليد

والقدم والعين والسمع واللسان؛ إنما هي معارف رب ابن عربي؛ لأنه عين تلك الجوارح كلها، ويؤكد هذا بقوله: «فلا قُرْبَ أقرب من أن تكون هُوَيْتُهُ عين أعضاء العبد وقواه، وليس العبد سوى هذه الأعضاء والقوى، فهو - أي الله - حقٌّ مشهود في خَلْقٍ مُتَوَهَّمٍ، فالخلق معقول، والحق محسوس مشهود عند المؤمنين وأهل الكشف والوجود».

أرأيت إلى غلواء الزندقة في دين ابن عربي؟! إنه يزعم أن الخلق شيء معقول؟!، أما الله - سبحانه - فشيء محسوس؟! لأنه عين ما ترى عينك، وتسمع أذنك، أما «الخلق» فصفة، أو وَجْهٌ من وجوه الحق سبحانه!، ويؤكد ذلك مرة أخرى بقوله: «ثم تممها الجامع لكل محمد ﷺ؛ بما أخبر به عن الحق: بأنه عين السمع والبصر واليد، والرَّجُلُ واللسان، أي: هو عين الحواس» ويقول: «[تحققنا] بالمفهوم وبالإخبار الصحيح أنه عين الأشياء، والأشياء محدودة وإن اختلفت حدودها، فهو محدود بحد كل [ذي محدود]»^(١) رَبُّهُ عين كل شيء! ولكل شيء، حَدٌّ يُعَرَّفُ به، فكل تعريف هو تَعْرِيفٌ لِكُنْهِ الذات الإلهية، إذ كل شيء عند ابن عربي هو عين الله!!، فَلْيَطِرْ فِكْرُكَ عبر الآباد^[٢] والآت^[٣] والآزال^[٤]، وَلْيَجُلْ خيالك في شتى الصور، المستحيل منها والممكن، فكل شيء يراه فِكْرُكَ، ويلمحه خيالك، هو رب ابن عربي، فكر في المغول، والصليبيين، وكل مستعمر سام العرب والمسلمين خَسَفًا^[٥]، أو هوانًا، فكر في الجاهليين يُجَرِّعون صِحَابَ النبي العذاب، فكر في

(١) هذه النصوص كلها عن «فصوص الحكم» لابن عربي ص ٨٨، ١٠٧ وما بعدها واقرأ هذا النص: «إن الله لطيف، فمن لطفه ولطافته أنه في الشيء المسمى كذا المحدود بكذا عين ذلك الشيء، حتى لا يقال فيه إلا ما يدل عليه اسمه بالتواطؤ والاصطلاح فيقال: هذا سماء وأرض وصخرة وشجر وحيوان وملك ورزق وطعام والعين واحدة من كل شيء وفيه» ص ١٨٨ فصوص ط الحلبي، يعني أن الله هو عين كل هذه الأشياء وغيرها. فإذا عرفت شيئاً منها بتعريف، فهذا التعريف صادق على الله بالتواطؤ يعني أنه هو عين تعريف الله نفسه في جنسه وفصله، فتأمل.

[٢] والآباد جمع أبد وهو: الدهر.
[٣] والآت جمع الآن بمعنى: الحين.
[٤] والآزال جمع أزل وهو: القدم.
[٥] وخسف، الله به الأرض: غاب به عنها.

الصهيونيين^[١] اليوم، وفيما يكدون به للإسلام، فكّر في السفاحين الأوغاد، فكّر في أولئك جميعاً، وسل ابن عربي وأخلصه عنهم، وثمت تسمع منهم: إنهم جميعاً الذات الإلهية! أليسوا أشياء؟ وابن عربي يقول: إن الله هو عين الأشياء جميعها!، أليسوا خلقاً؟ وابن عربي يقول: إن الله هو عين الخلق؟، أليست لهم جوارحُ باغية مُلطَّخةٌ بالدم البريء؟، وابن عربي يقول: إن الله هو عين كل يد وقدم ولسان!، والصوفية المعاصرة تعبد ابن عربي، وتدين بقدسيته، واتحداهم أن ينبذوه، أو يعلنوا على الملأ كفره ومروقه؟، فإن فعلوا، كان آية على أنهم خرجوا من دينه.

هذه يَحَامِيْمٌ^[٢] من عقيدة الصوفية، فهل ينفعها أن تملأ الوجود بعد ذلك بالدعوة إلى الخلق الفاضل؟، إنها إذ تقول: اتق الله، فإنما تعني به ربها الذي هو الصخر الأصم والجيفة المنتنة، تعني ربها الذي هو عين كل شيء، وإذ تقول: جاهد في سبيل الله، فإنما تعني به وهما عَبْدَتُهُ رَبًّا يتعين بذاته في كل خلقٍ! اقرأوا ذلك جيداً، ثم نبعوني: أما زلت أسارى الإعجاب بدعوة الصوفية الخلقية؟.

على أن الدعوة الخلقية الصوفية، هي دعوة إلى الأخلاق السلبيّة^(٣)، فحسب، إذ هي قائمة على الزهد المائوي، فهي - على الزعم بأنها خير، ودون التفات إلى معتقدها - لا تصلح لأمة تريد أن تقود الحياة بقوة الحق والعدل إلى

[١] الصهيونية: حركة سياسية عنصرية متطرفة، ترمي إلى إقامة دولة لليهود تحكم من خلالها العالم كله، واشتقت من اسم (جبل صهيون)، ثم أصبح هذا الاسم علماً على اليهود أجمع، ومن أبرز الشخصيات المرتبطة بالحركة الصهيونية؛ اليهودي النمساوي هرتزل. «الموسوعة» (١ / ٥١٨).

[٢] «البحاميم» جمع: محموم وهو: الدخان.

(٣) يمتاز الإسلام في دعوته الخلقية بأنه يدعو إلى أقوى وأعز الأخلاق الإيجابية وإلى أقدس الأخلاق السلبية، فهو لا يطلب منك ألا تفعل الشر فحسب، بل يأمرك أن تفعل الخير، فهو يأمر مثلاً بالجهاد والسعي في سبيل الرزق، وينهي عن الرهبانية والسرقة يتجلى لك ذلك في قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ خِرَافَةُ أُخْرَجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفي قوله: ﴿وَالْمَعْرُوفُ الْخَيْرُ لَكُمْ تَقْلَعُونَ﴾ [الحج: ٧٧] وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ حَفَاءَ لَهُ غَيْرُ مُفْتَرٍ. «الحج: ٣١، ٣٠» بل يتجلى لك ذلك أي جانب الإيجاب وجانب السلب في عقيدة التوحيد «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً» [النساء: ٣٦].

الخير العام، وأن تنزع العالم في سلام وأمن، تريد الوثبة الجريفة المقدمة التي تُسخر كل شيء أذن الله لها فيه في سبيل تحقيق قِيمِهَا الرفيعة المؤمنة، تريد الحياة دَفَاقَةَ التيار، زَخَّارة المشاعر بالحياة المتدفقة، المندفعة دائماً إلى الأمام، جَيَّاشَةً^[١] الليل والنهار بالعمل الدائب المنتج المثمر، والجهاد في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا، إنما تصلح دعوة الصوفية الخلقية - بذلك الاعتبار نفسه - لجماعة تعيش في الكهوف، أو المغاور، أو على قُنَنٍ^[٢] الجبال في الحُسُ الهامد، والشعور الخامد، والوجدان الأصم البليد، وكل إنسان فيها منطو على نفسه. لجماعة تقطعت أرحامها، فعاش كل فرد فيها لنفسه، يسخر ليله ونهاره لنفسه، دون أن يحول عينيه وغاياته عن نفسه وحدها؛ فهي أخلاق تطفح بالآثرة الضيقة المكتومة الخائقة، والفردية التي ترى الدنيا لها وحدها، وتعمل؛ ليكون كل شيء لها وحدها؛ إنها رهبانية تسري فيها قشعريرة الخوف المذعور من الحياة، وَرَعْدَةُ الْفَرْقِ^[٣] الْقَلْقِ من المجتمع، رهبانية تعيش في غيابة الحمول الأَسْوَانِ^[٤] وراء الوجود الإنساني؛ تَصْلُحُ لجماعة تعيش للعدم الميت، لا للحياة الشاعرة بذاتها ومَقُومَاتِهَا، تعيش للوحدة الكابية الساهمة المحتضرة، لا للجماعة التي يعمل فيها كل إنسان لنفسه، ولن معه، وتجعل الإيثار النبيل شعارها، وابتغاء مرضاة الله فَلَكَ حَيَاتُهَا وغاياتها وبواعثها. فدعوة الصوفية الأخلاقية؛ فِرَارٌ ذليل من الحياة، وَجِنٌّ يرتجف من الحياة، وَتَفَرُّدٌ موحش في تيه الوحدة الداهلة القائمة، وَقَتْلٌ ظُلوم لقوى الإنسانية المكافحة في سبيل تقدم الحياة، وكفران باغ بما أنعم الله به على الإنسان من قوى؛ ليعمل باسم الله ما يعمل له لنفسه، وللجماعة التي يجب أن يشيد صروحها سامقات عاليات الذرى.

ويزعمون أن الصوفية جاهدت حتى نشرت الإسلام في بقاع كثيرة! ولقد علمت ما دين الصوفية؟، فما نشروا إلا أساطير حمقاء، وخرافات

[١] «جاش، الماء: تدفق وجري.

[٢] «القنن: جمع قننة وهي: أعلى الشيء.

[٣] «الفرق: الخوف.

[٤] «الأسى: عليه: حزن، فهو أسوان.

بلهاء، وبدعاً بَلَقَاء^[١] شوهاء، ما نشروا إلا وثنية تؤله الحجر، وتعبد الرمم!!، ما نشروا دينهم إلا في حماية الغاصب المستعمر، وطوع هوى الغاصب المستعمر، قَعَدُوا الإسلام، يوقن تماماً أن البدع، هي الوسيلة التي تصل إلى الهدف دائماً، لكي يقضوا بها على الإسلام وأهله، فَعَلَهَا قديماً، ويفعلها حديثاً. وقرأوا تاريخكم إن كنتم تَمْتَرُونَ^[٢]، أروني صوفياً واحداً قاتل في سبيل الله؟!، أروني صوفياً واحداً جالد الاستعمار، أو كافحه، أو دعا إلى ذلك^(٣)؟ إن كل مَنْ نُسِبَ إليهم مكافحة المستعمر - وهم قلة - لم يكافحوه إلا حين تخلى هو عنهم، فلم يطعمهم السحت من يديه، ولم يبح لهم جَمْعَ الفتات من تحت قدميه، وإلا حين قهرت فيهم عزّة الوطنية، ذل الصوفية، فقاتلوا حَمِيَّةً، لا لدين^(٤)! ثم أقرأوا ما كتب الزعيم مصطفى كامل في كتابه: المسألة الشرقية: «ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسا للقيروان، أن رجلاً فرنسائياً دخل في الإسلام، وسمى نفسه: سيد أحمد الهادي، واجتهد في تحصيل الشريعة،

[١] «بلق»: كان فيه سواد وبياض، فهو أبلق وهي بلقاء. [٢] «تمترون»: تشكون.

(٣) سقط بيت المقدس في يد الصليبيين عام ٤٩٢ هـ والغزالي الزعيم الصوفي الكبير على قيد الحياة، فلم يحركه من هذا الحادث الجلل شعوراً واحداً، ولم يحرقلمه بشيء ما عه في كتبه، لقد عاش الغزالي بعد ذلك ١٣ عاماً إذ مات (سنة ٥٠٥ هـ) فما ذرف دمعة واحدة، ولا استنهض همة مسلم، ليدود عن الكعبة الأولى، بينما سواه من الشعراء يقول:

أحل الكفر بالإسلام ضيماً يطول عليه للدين النحيب
وكم من مسجد، جعلوه ديراً على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوف ونحرىق المصاحف فيه طيب

أهز هذا الصريح الموجع زعامة الغزالي؟ كلا، إذ كان عاكفاً على كتبه يقرر فيها أن الجمادات تخاطب الأولياء!! ويتحدث عن الصحو والنحو. دون أن يناضل، أو يدعو حتى غيره إلى قتال!! وابن عربي وابن الفارض الزعيمان الصوفيان الكبيران عاشا في عهد الحروب الصليبية، فلم نسمع عن واحد منهما أنه شارك في قتال، أو دعا إلى قتال، أو سجل في شعره أو نثره آفة حسرى على الفواجع التي نزلت بالمسلمين لقد كان يقرران للناس أن الله هو عين كل شيء، فليدع المسلمون الصليبيين، فما هم إلا الدات الإلهية متجسدة في تلك الصور. هذا حال أكبر زعماء الصوفية وموقفهم من أعداء الله!! فهل كافحوا غاصباً أو طاغياً؟

(٤) سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقالل حمية، ويقالل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا» (رواه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤).

حتى وصل إلى درجة عالية، وَعَيَّنَ إماماً لمسجد كبير في القيروان، فلما اقترب الجنود الفرنسية من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها، وجاءوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد، يعتقدون فيه، فدخل «سيد أحمد» الضريح، ثم خرج مُهَوَّلاً لهم بما سينالهم من المصائب، وقال لهم: بأن الشيخ ينصحكم بالتسليم؛ لأن وقوع البلاد صار بحثاً^(١)، فاتبع القوم البسطاء قوله، ولم يدافعوا عن القيروان أقل دفاع، بل دخلها الفرنسيون آمنين^(٢) وحين أغار الفرنجة على المنصورة قبل منتصف القرن السابع الهجري، اجتمع زعماء الصوفية! أتدري لماذا؟! لقراءة رسالة القشيري والمناقشة في كرامات الأولياء^(٣)! : «من أجل ذلك يجب ألا نستغرب إذا رأينا المستعمرين، يقدقون علي الصوفية الجاه والمال، فرب مُفَوِّض سام، لم يكن يرضي أن يستقبل ذوي القيمة الحقيقية من وجوه البلاد، ثم تراه يسعى إلى زيارة حلقة من حلقات الذكر، ويقضي هنالك زيارة سياسية تستغرق الساعات، ليس التصوف الذي على هذا الشكل يقتل عنصر المقاومة في الأمم؟»^(٤) ثم إن كل من نسبت إليهم الصوفية أنهم جاهدوا في سبيل الله، وعملوا على نشر الإسلام، ليسوا صوفيين، وإنما حشرتهم الصوفية في زمرتها زوراً وبهتاناً، وأستاذها في ذلك الشيعة^(٥). لقد سُمي الصوفية رسول الله صوفياً، ومثله الخلفاء، وكلُّ بطل عبقرٍ فذ من المسلمين زعموا أنه صوفي!!، هذا؛ ليخدعوا المسلمين بهؤلاء عن زعمائهم من طواغيت الصوفية!، وليفتنوا المسلمين بزعمهم أن أولئك القديسين الأبطال كانوا بعض أئمة الصوفية! والتاريخ يذكر أن لقب «صوفي»

[١] «البحث»: الصُّوفُ الخالص، لا يخالطه شيء.

(٢) ص ٢١٢ «المسألة الشرقية» للزعيم مصطفى كامل «نقلًا عن ص ١١ من كتاب «التصوف في الإسلام» للدكتور عمر فروخ.

(٣) «الطبقات» للشمراني ط صبيح ج ١ ص ١١.

(٤) ما بين القوسين من كلام الدكتور فروخ في كتابه «التصوف في الإسلام».

(٥) يذكر الشيعة في كتب طبقاتهم كثيرا من أئمة أهل السنة وينسبون إليهم أقوالاً هم أربابها منها، كل هذا ليفتنوا المسلمين عن طريق ذكر هؤلاء البررة.

لم يُتَدَعِ إِلَّا فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الثَّانِي الْهَجْرِي، وَأَنْ أَوَّلَ مَنْ لَقِبَ بِهِ هُوَ «أَبُو هَاشِمِ الْكُوفِي»^[١] فَارُونِي صُوفِيًّا وَاحِدًا كَانَ لَهُ فَضْلٌ خَيْرٌ عَلَى الْإِسْلَامِ؟ ١.

أَجِيبُوا يَا مَنْ فَتَنَتِ الصُّوفِيَّةُ عَنْ الْحَقِّ عَقُولَكُمْ، لَا تَاتُونِي يَا أَسَارِي الصُّوفِيَّةُ بِأَقْوَالِهِمْ فِي الْأَخْلَاقِ، وَلَكِنْ أَتُونِي بِعُقَائِدِهِمْ، ثُمَّ زَنَوْهَا بِالْقُرْآنِ، إِنْ كُنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنِينَ، لَا تَقُولُوا: قَالَ فَلَانُ الصُّوفِي: كَذَا فِي الْأَخْلَاقِ، أَوْ فَعَلَ كَذَا، مِمَّا هُوَ فِي مَظْهَرِهِ حَقٌّ وَخَيْرٌ، وَلَكِنْ قُولُوا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ: إِنَّهُ يَعْتَقِدُ كَذَا، فَالْصُّوفِيَّةُ تَزْعُمُ أَنَّهَا الْحَقِيقَةُ فِي الْإِسْلَامِ، وَرُوحُ عَقِيدَتِهِ، وَالْأَخْلَاقُ لَيْسَتْ إِلَّا بِنَتِ الْعَقِيدَةِ، وَالْإِسْلَامُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّمَا يَبْتَلِي الْعَقِيدَةَ أَوْ النِّيَّةَ، فَإِنْ كَانَتْ النِّيَّةُ، أَوْ الْعَقِيدَةُ كَمَا يُحِبُّهَا اللَّهُ، اعْتَبِرْ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا مِنْ فِعْلٍ صَائِبٍ خَيْرًا، وَجَازِي عَنْهُ بِالْخَيْرِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الْعَقِيدَةُ خَالِصَةً، فَكُلُّ عَمَلٍ يَصْدُرُ عَنْهَا، فَهُوَ هَبَاءٌ، وَإِنْ كَانَ فِي مَظْهَرِهِ أَعْظَمُ الْخَيْرِ^(٢)، اسْمَعُوا قَوْلَ اللَّهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ أَهْلَ بَيْتِهِمْ وَنَحْوَهُمْ مِنْ دَارِهِمْ وَأَخْرَسَهُمْ لِلَّهِ الْمُسْلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٢] ﴿[التوبة: ١٠٢] فِي الْعَقِيدَةِ لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا خَالِصَةً نَقِيَّةً، أَمَا فِي الْعَمَلِ؟ اقْرَأُوا الْآيَةَ؛ لِتَعْرِفُوا الْجَوَابَ.

لَقَدْ افْتَرَتِ الصُّوفِيَّةُ عَلَى اللَّهِ مَا لَمْ تَفْتَرِهِ زَنْدَقَةٌ مِنْ قَبْلِ، فَجَعَلْتَهُ هُوَ عَيْنَ خَلْقِهِ اقْرَأُوا هَذَا الْكُفْرَ لِابْنِ عَرَبِي: «فَالْحَقُّ مَحْدُودٌ بِكُلِّ حَدٍّ، وَصُورُ الْعَالَمِ لَا تَنْضَبُطُ، وَلَا يَحَاطُ بِهَا، وَلَا [يُعْلَمُ] حُدُودُ كُلِّ صُورَةٍ مِنْهَا إِلَّا عَلَى قَدَرِ مَا حَصَلَ، لِكُلِّ عَالَمٍ مِنْ صُورَتِهِ، فَلِذَلِكَ يُجْهَلُ حَدُّ الْحَقِّ، فَإِنَّهُ لَا يُعْلَمُ حَدُّهُ إِلَّا بِعِلْمِ حَدِّ كُلِّ صُورَةٍ»^(٣) يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَعْرِيفُ اللَّهِ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ عَيْنُ

[١] هُوَ أَبُو هَاشِمِ عُمَانُ بْنُ شَرِيكِ الْكُوفِي الصُّوفِي، تَوَفِيَ سَنَةَ (١٥٠ هـ)، وَهُوَ مِمَّنْ قَبِلَ عَنْهُ أَوَّلُ صُوفِي.

(٢) كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ الصُّوفِي الْكَبِيرُ الْإِنْجِلِيزِي الْمَالُ وَالْعَاطِفَةُ، فَبَنَى دَارًا كَبِيرَةً لِمَلَاةِ الْفُقَرَاءِ، لَقَدْ كَانَ «الْمُنْدُوبُ

السَّامِي الْإِنْجِلِيزِي» يَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ لِيَاكُلَ عِنْدَهُ «الْفَتَةَ» هُوَ وَرِجَالُ سَفَارَتِهِ.

(٣) ص ٧٠ «فَصَوْصُ الْحَكَمِ» ط الحُلَيْبِي ج ١.

كل شيء، فنحتاج في تعريفه إلى الأخذ بتعريف كل صورة من صور الوجود؛ إذ هو عينها، وصور العالم لا تنضبط، ولا تنتهي، فتعريفه سبحانه، لا يتناهي تبعاً لذلك، والصوفية تفتري على نوح أنه لم يحسن أداء رسالته؛ إذ دعا قومه إلى الشريعة، ولم يدعهم إلى الحقيقة. دعاهم إلى الظاهر، لا إلى الباطن، ثم تحكم الصوفية على قوم نوح المشركين بأنهم أجابوا دعوة الله بالفعل، وأنهم فهموا الحق الذي ستره عنهم نوح، فعملوا بالمستور، فكانوا من المفلحين، وتحكم بأن نوحاً نفسه أثنى عليهم لعبادتهم الأصنام^(١). ثم اقرأوا قول ابن عربي في الباب ١٢٩ من الفتوحات المكية^[٢].

لا تراقب، فيس في الكون إلا واحد العين، فهو عين الوجود
ويُسَمَّى في حالة باله ويَكُنَّى في حالة بالعبيد

تري، هل ستظنون مصريين على أن الصوفية دعوة إلى الأخلاق المثالية، وأنت تعرفون أن الإصرار على كلمة كفر واحدة تمحو من سجل الإنسان كل كلمة مؤمنة، والصوفية مصرة على كلماتها الكافرة!!

خلاصة دين الصوفية

ونلخص لك دين الصوفية في كلمات قصار؛ أما في الوجود فيدينون بأن المطلق منه عين المقيد، أو نفس العيني المتقوم بخصائصه في هذا، أو ذاك من الأشياء ذات الكيان المادي، أو بمعنى آخر: يرون أن الله هو عين خلقه، وأما في الاعتقاد؛ فيدينون بأن الكفر والإيمان، أو الشرك والتوحيد، اسمان لحقيقة واحدة أو مترادفان لهما مدلول واحد، وأما في الدين، فيرون السماوي منه عين الوضعي، فَمَنْزِلُ الأول، هو الله، باعتباره حقيقة مُجَرَّدَةٌ عن النعوت

(١) ص ٧٠ وما بعدها فصوص «انظر الفصل التوحي».

[٢] قال في «الفتوحات»: «وإذا كان اتساع الممكنات لا يقبل التناهي، فما ظنك بالاتساع الإلهي، فيما يجب له وما يعطيه من المعرفة كل ممكن على عدم التناهي فيه». انظر: «الفتوحات» (١٤ / ٢٦٩).

الإيجابية أو السَّلْبِيَّة، أو الإِضَافِيَّة، وواضِعُ الثاني هو الله - وتعالى جَدُّ رَبَّنَا^[١] - باعتباره متجسداً في صورة بشرية^{١١}، وأما في الجزء الآخر؛ فيلقتي عندهم طرفاه الثواب والعقاب، فالتعظيم في الفردوس عين العذاب في جهنم، كلاهما عين الآخر في الحقيقة والأثر^{١٢}! وأما في الفكر؛ فيدينون بأن الحقيقة عين الخرافة أو الأسطورة، وبأن الحق والباطل، أو الصواب والخطأ يتحدان في الدلالة، وكلاهما مقياس صحيح لصاحبه، وأما في الأخلاق؛ فيدينون بأن الخير والشر، أو الفضيلة والرذيلة سواء في الباعث والغاية وفي القيمة، وإن شئت حديثاً أكثر اختصاراً، فقل: إن خلاصة دين الصوفية، وفكرها وخلقها: لا تقابل، لا تضاد، لا تناقض، إذ الكل ذات واحدة، هي ذات الله - سبحانه -، أو كما يقول ابن عربي: «ما في الوجود مثل، فما في الوجود ضد، فإن الوجود حقيقة واحدة، والشيء لا يضاد نفسه»^(٢).

خلف الصوفية سلفهم

قد يقول قائل: ما لنا، ولا بن عربي وغيره، فتلك أمة قد خلت، وما لها من أثر، ولكنني أقول لهذا الذي خدعته الصوفية عن سُمِّها، فسقته إياه بحسبه عسلاً مُصَفًّى: نحن لا نحارب أناساً، وإنما نحارب تراثاً وثنيّاً، آمن به سلف الصوفية على أنه الروحانية القدسية في الإسلام، وعاثوا^[٣] به فساداً في عقائد المسلمين. والصوفية المعاصرة؛ تدين بما دان به سلفها كابن عربي وابن الفارض، وفي تقديس كهنة الصوفية لذكراها، وفي التغني بشعرهما الوثني في نشوة سكرى. في ذلك كله بُرْهَانٌ على أن الصوفية المعاصرة، امتدادٌ طويل عريض عميق لدين ابن عربي والشعراني!، إنها تتعبد بكل ما خلفت الصوفية السالفة من تراث، وتقدس ما كتب أحبارها، وتبشر به على أنه تجليات الروح

[١] «جَدُّ رَبَّنَا: جلاله وعظمته.

(٢) ص ٩٢ قصص جاد الحلبي.

[٣] عاث: أفسد.

الإلهي، وتؤمن به إيماناً عميقاً، يسلب الفكر، ويختلب البصيرة، ويهوي بالنفس إلى غور^[١] سحيق من الإلحاد، بل ربما أذنت لك الصوفية في الطعن على كتاب الله، وتثور وترغي^[٢] وتزيد إذا مسست كتاب صوفي زنديق بسوء، ولئن أنكرت مرة على طبقات الشعراني ما فيها من خطايا، لرموك بعمى البصيرة.

كل صوفي هو ابن عربي في زندقته، وابن الفارض في وثنيته، والشعراني في خباله وخطاياه. تدبر أورادهم اليوم، وقصائدهم التي يرقصون بها رواد حانات الذكرا، تدبر نعيبهم في كل لحظة بالهامدين، تجد دليل ما أقول، ألا تسمع منهم: مدد ياهل التصريف؟ مدد يا رئيسة الديوان^(٣)؟

واستمع إلى أولئك «المخمّرين»^(٤) بعد حلقات الذكر، تجدهم يتسابقون إلى القول بأنهم: «يهود، نصارى، مجوس» وال دراويش يصيحون من الفرحة الطروب: «اكفر، اكفر» يا مربي!

فرار الصوفية من النقد

زعم الصوفية أن من ينتقدهم، يُطرَد من رحمة الله!، يهولون بهذا قيّدا ظلوماً «للدراويش» حتى لا يُحطّموا أغلال الصوفية عن أعناقهم وقالوا: «وهذا الفن من الكشف يجب ستره عن أكثر الخلق: لما فيه من الغلو، فغوره»

[١] «غور» كل شيء: قمره. [٢] يقال «فلان يرغينا الحديث»: يُقل منه كالرغبة.

[٣] تأمل الحجاج قبل الحج وبعده ترهم يطوفون حول الأضرحة في مصر، كانوا يريدون طمأنة أرواحهم أنهم على العهد مقيمون!!، بل تأمل الأسطورة التي يبتدعها سنّة كل صنم؛ إذ يزعمون أن من زار هذا الوثن، أو ذاك سبع مرات ماشياً كتب له ثواب حجة!!، زعموا هذا للبدوي في طنطا، وللدسوقي في دسوق، ولشبل في الشهداء!!.

[٤] هم طائفة من الدراويش يجلسون بعد الذكر، ثم يتبارون في إنشاد أزجال أو أشعار يزعمون أنها إلهام ساعته، وما زلت أذكر ذلك الرجل الهرم في فريتي «زاوية البقلي» وهو يقول عن الاقطاب:

ساعة يجونا عرب ساعة يجونا أعجم

ساعة يجونا نصارى لابسون زنار

ساعة يجونا سكارى من حذا الخمار

بعيد»^(١)، باطنية منافقة، ورياء تعود به الصوفية إذا صعبتها صدمة الحق، وقالوا: «إذا رأيت منتقداً على التصوف، ففر منه فرارك من الأسد، واهجره»^(٢).

تري هل يفر الصوفية من هذا النقد العادل؟، ما أرتضى لهم أن يكونوا تحت سَطْوَةِ هذا الجبن الرُعْدِيد^[٣]، وَرَهْنَ هذا العجز الذليل !!.

وقالوا: «طريق الكشف والشهود، لا تحتل المجادلة والردّ على قائله، وحرمانه يعود على المنكر»^(٤).

كلّ هذا: ليظلّ ضحايا الصوفية عُنى البصائر، والقلوب، مختوماً على سمعهم، فلا يسمعون من أحد كلمة حقّ تجادل باطلاً صوفياً^(٥) !!.

أما أنا ياسماحة الشيخ؛ فسأظلّ إن شاء الله - ورعايته أستلهمها وعونه أستمده - أثيرها حرباً على الصوفية في تراثها الوثني، ومعتقداتها الفاسدة، وما نبتغي بها سوى الذباد^[٦] عن الحق، ورضا الحق، ولن يروعنا في سبيل الله منكم وعيد. نعم سأظل - وعلى الله توكلت - أحارب باطل الصوفية بالحق من كتاب الله، فإنها محسوبة على الإسلام، بل يظن الكثير في أقطابها أنهم مشارق ربانية، وينابيع نورانية، ومثل عليا للروحانية، فحق على كل مسلم تمزيق هذه الأقنعة التي نسجتها تهاويل الأوهام، وأفانين الأساطير؛ لكيلا يُحتجّ على دين الله بدين الصوفية؛ وليؤمن المسلمون أن الخير والهدى والسعادة في

(١، ٢، ٤) ص ٣، ٨ «رسالة الفناء» من مجموعة رسائل ابن عربي طبع الهند، ص ٨ «إيقاظ الهمم شرح الحكم» لابن عجيبة.

[٣] «الرّعْدِيد»: الجبان، والجمع رعاديد.

(٥) كان يحضر مجلس الدباغ رجل لا يعتقد فيه أنه ولي كبير!!، فكان إذا حضر سكت الدباغ عن أساطيره الصوفية خشية أن يفضحه الرجل أمام تلاميذه، ثم قال لهم: «إذا حضر هذا الرجل فلا تسألوني عن شيء حتى يقوم» ويروي أحد تلاميذه أنهم كانوا إذا سألوا الدباغ وذلك الرجل حاصر وجدوه - أي الدباغ - كما يقول تلميذه: «كانه رجل آخر لا نعرفه ولا يعرفنا وكان العلوم التي تبدر منه لم تكن له على بال» ص ٤٢ ج ٢ «الإبريز». أعرفت سر سكوت الصوفية أمامك؟ إنهم يخشون بطش الحق بهم أمام دراويشهم.

[٦] «الذباد» من ذاد: دفع.

الاعتصام بكتاب الله وحده، والافتداء بخاتم النبيين وحده، فهو أخلص الخلق توحيداً لربه، وأهداهم إيماناً به، وأزكاهم طاعة، وأشدهم ثقةً، وأعرفهم بما نَزَّلَ الله عليه، وهداة، وهدى المسلمين به.

مزاعم كاذبة

تزعم الصوفية «أن التصوف صفةٌ لله»^(١)! وإن «من صدق بهذا العلم، فهو من الخاصة، وكل من فهمه من خاصة الخاصة، وكل من عبَّر عنه، وتكلم فيه؛ فهو النجم الذي لا يُدرك، وأن علم التصوف لا يستغني عنه أحد، وأن نسبته إلى العلوم نسبة الكلِّيِّ لها، ونسبة الشرط الذي لا بد منه لتحصيلها، وأنه لا يوجد تحت أديم السماء أشرف من علم التصوف، وأنه لن ينقطع، حتى ينقطع الدين»^(٢) كأنما رسول الله، وأصحابه كانوا من جهلة العوام!

وكأنما ابن عربي والشعراني أعظم مقاماً عند الله من السابقين الأولين!

وكأنما العلم الحديث الذي فجر الذرة، وسخر قواها، وجعل من الحديد طيراً، كأنما هو غير مُجدِّ في تقدم البشرية! لأنه ليس تصوفاً!

بل هذا معناه: أن ما جاء به المتصوفة أفضل وأعظم مما جاء به خاتم النبيين! أليسوا يقولون: «إنه لا يوجد تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم؟» والرسول ﷺ لم يكن صوفياً، ولا دعا بدعوة التصوف!

فهل في مقدور صوفي أن يثبت صدق تلك الزعم الكواذب، والظنون الشواحب البواهت!، كما ثبت بالحق الساطع أنها زيفٌ وزيفٌ وبهتان!؟

مرصص^[٣] بالامحاجة

وهنا ينازعني الإشفاق على شَيْبَتِكَ يا سماحة الشيخ، وعلى نفسك

(١) ص ١٥٨ «طبقات الصوفية» للسلمي.

(٢) ص ٧، ٨ كتاب «إيقاظ الهمم شرح الحكم» لابن عجيبة.

[٣] «مرصص»: كلمة تعجب تقال للمخاطب لإيئاسه.

الذوابة من هجير الأسى، ولَفَح اللوعة المضنية، بيد أنني أرى من الخير، أن أصل ما بيني وبينك بالإلحاف في رجاء صادق، هو أن تقرأ، وأن تقرأ! وليست بطامع في أن ترد على ما كتبت!، ترى أيخلف الشيخ الكبير ظني؟^(١).

لم يحل خطر منصبك بينك، وبين أن تشكو منّا إلى النيابة، فلما أن أياسك عدلها من أن تظلم لك، شكوت إلى كل حكومة سابقة!، فهل يحول بينك، وبين أن تذود عن الصوفية غائلة ساحقة ماحقة!؟، إنني ليخيّل إلى أن الشيخ الكريم سيدعوني إلى مناظرة يشهداها الجم الغفير من أتباعه، فمرحى مرحى بها، وإن كانت عند وثن الشعراني!، وإذا لم ينزع أحدكم إلى الرد، فسيؤمن الكثيرون أن الصوفية باطل جبان لا يعربد بسورته إلا حين يغمض الحق عنه عينيه لحظة!.

وأصبحوا إلى قول الله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَالْأَنسَافِ الَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَلْفَوْضَ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾ [غافر: ٤١ - ٤٤] فهلا أفضنتم إلى حمى الله، وعلى إشراق الهدى من كتابه وسنة رسوله، نسعى في الوجود دعاة إيمانٍ وحق وتوحيد وإخاءٍ وسلام!.

صوة من الحب إلى الضحايا

أما أنت أيتها الضحايا المسكينة التعسة، وأنت ياقرباين الشهوات من الطواغيت، فَلِلْهَوَى الباغي دماؤك المسفوحة، وللأوثان منك النُسكُ المُلحد.

(١) اعثرني الله على كبير منهم في منزل رجل كريم لا يعرف دين الصوفي الكبير الذي كان على بيبة من عدة لمات وعدة فلسفات، ويتزعم طائفة كبيرة لها فروعها المنتشرة في كل مكان، فما هي إلا لحظات قصار، حتى قهره الله بالحق من آياته، مما اضطره إلى أن يحكم بأن عقيدة السلف هي خير عقيدة. وهذا ديدنهم؟ فرار جبان، وكذب جبان!!.

أيها الخياري في ظلمات الليل، وَغِيَابَةِ النِّيبِ، انظروا، وانظروا؛ فَصَوَّبَ عِيونَكُمْ دَاعٍ كَرِيمٌ حَبِيبٌ، تتألقُ البشائرُ على مُحْيَاهُ^[١]، يدعوكم بالحُب: أَنْ هَلُمُّوا قَبْلَ أَنْ يَطْوِيَكُمْ النِّيبُ، وتجتاحكم عواصفُه، فبابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ عَلَى مَصْرَاعِيهِ، وما على بابه إِلَّا كُلٌّ مِنْ يُرْحَبُ بِكُمْ، ومن سَمَاوَاتِ الْهُدَى وَالْقُدْسِ تَسْمَعُونَ قَوْلَ الرَّحْمَنِ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٢) ﴿[الزمر: ٥٣]﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴿[الفرقان: ٧٠ - ٧١]﴾ واحذروا، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فتعالوا إِلَى اللَّهِ، فما يملك ابنُ عَرَبِيٍّ، أو البدوي أَنْ يَقْبَلَ لَكُمْ مَتَابًا، أو يغفرَ لَكُمْ ذَنْبًا، أو يبدلَ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ، أو يعفوَ عَنْ زَلَّةٍ وَاحِدَةٍ!.

أيها التائبون في كهوف الظلمات!؛ عودوا إِلَى الْحَقِّ مِنْ هَدْيِ اللَّهِ الْحَقِّ، ثم انظروا حَوَالِيَكُمْ حِينَ تَنْتَبِهُونَ إِلَى اللَّهِ، وتعملون بهديهِ، ألا ترون الإسلامَ رُقَافَ الْأَلْوِيَةِ فِي عِزَّةٍ عَلَى قِمَّةِ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ كُلِّهِ، وعلى الذرى مِنْ كُلِّ مَنَاحِيهِ؟، ألا ترون هُدَاهُ يَنَاسِمُ^[٢] فِي رَحْمَةِ شَرْقِهِ وَغَرْبِهِ؟، ألا ترون الْحَيَاةَ فَيَاضَةً الصَّفَاءِ وَالْبَشَرِ وَالْخَيْرِ، تنعمُ بِالسَّلَامِ الْوَدِيعِ الرَّفِيقِ الْآمِنِ؟، ألا ترون الْقُلُوبَ يَنَابِيعَ ثَرَّةٍ لِلْإِخَاءِ وَالْحُبِّ وَالْإِيشَارِ؟، ألا ترون لَكُنْ كُلِّهِ مَحَارِيبَ إِيمَانٍ، وَحِمَى حَقٍّ وَعَدْلٍ، وَمَغْنَى سَلَامٍ كَرِيمٍ؟، لَا تَعْجَبُوا إِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ كُلَّهُ فَإِنَّهُ وَعَدَ اللَّهُ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ الْقَدِيرَ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٥٥) [النور: ٥٥] كل هذا يحقِّقه اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ إِذَا هُمْ أَخْلَصُوا لِلَّهِ

وحده دينهم، وَوَعَدُ اللَّهِ لَن يَتَخَلَفَ؛ لأنه الكريم القدير، وقد حقق الله سبحانه وعده لمحمد ﷺ، ولاصحاب محمد، ولكل من سلك بالحق سبيل محمد، وسيحققه لكم إذا اتبعتم سبيله.

دعوة صادقة الحب أيها الحيارى: لا مَنجاة لكم من الآمكم وأحزانكم، ومن الخوف الذي يعصف بكم، والقلق الذي تضطرب به مشاعركم، لا منجاة لكم من تلك الهموم الساجية إلا إذا لُذْتُمْ بحمى الله وحده^(١)، تؤمنون به، وتندبرون آياته، وتهتدون بهديه، وتقتدون برسوله وحده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ تَحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].



(١) لاذ الصوفية بفاروق، وأفاضوا إليه عبداناً يشكرونه على أن منح شيخهم كسوة، وبين يدي فاروق، وقف شيخ الصوفية يخطب عبداً شاكراً، فقال عن الكسوة: «إنها يا مولاي رمز لما أعطاك الله من مواهب، وعنوان لفيض من فيوضاته سبحانه على قلب فاروق الطاهر تكشف عن مدى طهر وضعه الله فيك، فصفت روحك الطيبة. وإن هذا التكريم للصوفية إنما هو قبس من قلبك النقي ينير لنا الطريق، ويهدينا سواء السبيل، فيك نستضيء، ومن هديك نسترشد، ومن روحك العالية نستمد الإلهام والهدى وإني إذ أتشرف بالوقوف بين يديك اليوم أقطع على نفسي عهداً وثيقاً أن أكون لجلالتك المخلص الوفي أمدك الله يا مولاي بروح من عنده، واليسك حلة من مجده، وأيدك بجند من جده، وأعانك بعونه وكفلك بعين رعايته» اقرأ الصحف الصادرة بتاريخ ١٩٤٧/٣/٢٥. فهل يذكر الصوفية؟ «بك يستضيء» تقديم الجار والمجرور يفيد قصر استضاءتهم على فاروق؟ فهل يذكرون؟ «من هديك تسترشد» هكذا؟ بتقديم الجار والمجرور؟ هذا معناه أن الصوفية لم تكن تهتدي بشيء إلا بهدي فاروق!!

خاتمة

وإني - وقد ناضلت الصوفية بهدى الله - أعرف أن هذا النضال يشير على بَغْيٍ أَحْقَادِهِمْ، ويقف بي على شفا خَطَرٍ يَدَهُمْ بَغْتَةً مِنْهُمْ بِجَوْرِهِ، غير أنني أومن بهذه الحكمة الرائعة المؤمنة: «لأن يكون الناسُ جميعاً عَدُوًّا لي في الدنيا، خيرٌ من أن يكون الله وحده خصمي يوم القيامة» وأجعل من هذه الآية الكريمة مناراً لي ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يُوسُفُ: ١١٠] هذا وعدُ الله لرسله، ووعدُه لاتباع رسله، فليَتَدَبَّرِ الصَّوْفِيَّةُ! وَلْيَشْكُرُوا إِلَى النِّيَابَةِ مَا شَاءُوا، فلن ترى النِّيَابَةَ فيمن يدلها على الجَنَائِدِ جَانِبًا، ولا في رَدِّ الْعِدْوَانِ عَنْ كُلِّ مَقْدَسَاتِ الدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ، وَقِيمِ الْفِكْرِ جَرِيمَةً، وَالصَّوْفِيَّةُ بَغْيٌ وَفِتْنَةٌ مَجْنُونَةٌ الْأَحْقَادِ، غير أنها تختال عذراء طاهرة أَلَمْ يَهَبْ لَهَا ظَنُّهَا مَرْتَابٌ، وَمَلَاحِكِيَّةٌ تُسَلْسِلُ الْوَحْيَ فِي فَجْرِ الْمَحْرَابِ!

ولن أضع القلم - وحسبي الله - إِلَّا إِذَا أَصْمَتَتِ الصَّوْفِيَّةُ، وَادْمِيتْ، أَوْ إِلَّا إِذَا تَهْدَمْتُ أَنَا، أَوْ قَضِيَّتْ!، فلن تخشى صَوْلَةَ الْحَقِّ، سَوْرَةَ الْبَاطِلِ، وَلَكِنْ كُلُّ هَذَا لَنْ يَمَسَّ قُلُوبَنَا بِحَقْدٍ، وَلَا نَفُوسَنَا بِضَغِينَةٍ، بَلْ إِنَّهُ لَيَرْفَعُ بِأَيْدِينَا - وَمَنْ خَلَقَهَا قُلُوبَنَا تَحْتَهَا - فِي ضِرَاعَةٍ خَاشِعَةٍ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَهَبَ لَنَا، وَلِلصَّوْفِيَّةِ الْإِيمَانَ الْحَقَّ، وَأَنْ يَدِيهِمْ سَبْحَانَهُ سَبِيلَ الْإِسْلَامِ.

﴿رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران، ٨].

عبد الرحمن عبد الوهاب الوكيل

وكيل جماعة أنصار السنة المحمدية

مراجع الكتاب ومصادره

- القرآن الكريم
- كتب السنة
- ٢ جامع الأصول في أحاديث الرسول
- ٣ دليل الفالحين شرح رياض الصالحين
- ٤ الجامع الصغير للسيوطي
- كتب تفسير
- ٥ تفسير ابن كثير
- ٦ تفسير ابن القيم
- ٧ تفسير الزمخشري
- كتب لغة
- ٨ القاموس المحيط
- ٩ معجم مقاييس اللغة لابن فارس
- كتب دينية إسلامية وغيرها
- ١٠ مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية
- ١١ مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية
- ١٢ العَلَمُ الشامخ للمقبلي
- ١٣ حاشية الصاوي على الخريدة
- ١٤ العهد القديم
- ١٥ خلاص النفوس في الصلوات والطقوس
- ١٦ مكاتيب عبد البهاء

- كتب الصوفية

- ١٧ فصوص الحكم لابن عربي (١)
- ١٨ الفتوحات المكية لابن عربي
- ١٩ مجموعة رسائل ابن عربي طبع الهند
- ٢٠ مواقع النجوم لابن عربي
- ٢١ ذخائر الاعلاق لابن عربي
- ٢٢ ديوان عمر بن الفارض، طبع بيروت
- ٢٣ شرح الديوان للبوريني والنايلسي
- ٢٤ كشف الوجوه الغر للقاشاني
- ٢٥ الإنسان الكامل للجيلي
- ٢٦ تذكرة الأولياء للعطار
- ٢٧ الطواسين للحلاج
- ٢٨ أخبار الحلاج
- ٢٩ اللمع للطوسي
- ٣٠ التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي
- ٣١ قواعد الصوفية للشعراني
- ٣٢ اليواقيت والجواهر للشعراني
- ٣٣ الكبريت الأحمر للشعراني
- ٣٤ لطائف المنن للشعراني
- ٣٥ مطلع خصوص الكلم للقيصري
- ٣٦ إحياء علوم الدين للغزالي
- ٣٧ مشكاة الأنوار للغزالي

(١) اعتدنا بأربع نسخ بتحقيق الدكتور عفيقي

(٢) بشرح الفاشاني (٣) بشرح جامي (٤) بشرح بالي أفندي

- ٣٨ قوت القلوب لأبي طالب المكي
 ٣٩ جامع الأصول في الأولياء للكمشخانلي
 ٤٠ إيقاظ الهمم بشرح الحكم لابن عجيبة
 ٤١ الفتوحات الإلهية لابن عجيبة
 ٤٢ جواهر المعاني لعلي بن حرازم
 ٤٣ رماح حزب الرحيم لعمر بن سعيد
 ٤٤ الإبريز للدباغ
 ٤٥ تائية ابن عامر البصري
 ٤٦ النفحات الاقدسية لمحمد بهاء الدين البيطار
 ٤٧ القول الفريد لمحمد دمرداشي
 ٤٨ معرفة الحقائق لمحمد دمرداشي
 ٤٩ روض القلوب المستطاب لحسن رضوان
 ٥٠ مفتاح الفلاح لابن عطاء الله
 ٥١ المجموعة الدمرداشية
 ٥٢ بلغة المريد للبكري
 ٥٣ مجموعة الأحزاب طبع استامبول
 ٥٤ رسالة لأحمد عبد المنعم الحلواني
 ٥٥ منحة الأصحاب للرطبي
 ٥٦ الهبات المقتبسة لمحمد عثمان
 - كتب مؤلفة عن الصوفية
 ٥٧ ابن الفارض والحب الإلهي للدكتور محمد حلمي
 ٥٨ الصوفية في الإسلام لنيكلسون
 ٥٩ في التصوف الإسلامي لنيكلسون
 ٦٠ الإنسان الكامل للدكتور بدوي

- ٦١ شطحات الصوفية للدكتور بدوي
 ٦٢ شهيدة العشق الإلهي للدكتور بدوي
 ٦٣ التصوف الإسلامي لزكي مبارك
 ٦٤ مشتهى الخارف الجاني للشنقيطي
 - كتب التاريخ والتراجم والطبقات
 ٦٦ وفيات الأعيان لابن خلكان
 ٦٧ نفح الطيب للمقري
 ٦٨ ميزان الاعتدال للذهبي
 ٦٩ لسان الميزان لابن حجر
 ٧٠ طبقات الشافعية للسبكي
 ٧١ عجائب الآثار للجبرتي
 ٧٢ حضارة العرب لغستاف لوبون
 ٧٣ تاريخ العرب العام لسيدو
 ٧٤ تاريخ العرب العام لفيليب حتى
 ٧٥ مصر لادولف إرمان
 ٧٦ المصريون المحدثون للمستشرق لين
 ٧٧ الحرب الصليبية الأولى لحسن حبشي
 ٧٨ فجر الإسلام لأحمد أمين
 ٧٩ لواقع الأنوار « الطبقات » للشعراني
 ٨٠ الرسالة للقشيري
 ٨١ طبقات الصوفية للمسلمي
 ٨٢ الكواكب الدرية للمناوي
 ٨٣ طبقات الشاذلية للكوهني

- كتب فلسفة

- ٨٤ الفلسفة الشرقية لغلاب
 ٨٥ الفلسفة في الشرق لبول ماسون
 ٨٦ المدخل لجوتييه
 ٨٧ عقيدة الشيعة لرونلدسن
 ٨٨ العقيدة والشريعة لجولد زيهير
 ٨٩ مذاهب التفسير لجولد زيهير
 ٩٠ الفكر اليهودي جمع دكتور هرمس
 ٩١ التراث اليوناني للدكتور بدوي
 - مراجع عامة

- ٩٢ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده
 ٩٣ الكليات لأبي البقاء
 ٩٤ التعريفات للجرجاني^(١)



(١) ملحوظة: لم نذكر تواريخ طبع هذه الكتب ولا أسماء مؤلفيها كاملة، إذ ذكرنا ذلك في متن الكتاب نفسه.

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٥ مقدمة المعلق
٧	القسم الأول : مدخل إلى الكتاب
٧ المبحث الأول : بيان بعض الأحكام المتعلقة بقضايا الكفر والإيمان
٩ المطلب الأول : خطورة التسرع في التكفير
١٠ ما يلزم المسلم من تكفير أخاه
١٢ المطلب الثاني : الفرق بين التكفير المطلق وتكفير المعين
١٢ بيان أنه لا فرق في ذلك بين أصول الدين وفروعه
١٥ المطلب الثالث : شروط تكفير المعين :
١٥ الشرط الأول : أن يقصد المعين بكلامه المعني المكفر
١٧ الشرط الثاني : قيام الحجة
١٩ المطلب الرابع : موانع إلحاق التكفير بالمعين
١٩ أولاً : الخطأ
٢١ ثانياً : الجهل
٢٢ الكلام على الرجل الذي أمر بذر رماده في البحر
٢٤ حديث عائشة وسؤالها للنبي ﷺ : مهما يكتم الناس يعلمه الله
٢٦ ثالثاً : العجز
٢٨ رابعاً : الإكراه
٢٨ خامساً : الجنون
٢٨ سادساً : النوم
٢٩ المطلب الخامس : ما يمحو الكفر بعد ثبوته على المعين
٣٠ خلاصة المطالب المتقدمة
٣١ المطلب السادس : ملاحظات حول الكتاب
 الملحوظة الأولى : إطلاق وصف الكفر أحياناً على الصوفية دون
٣١ مراعاة للضوابط ، مع عدم تحديد المراد بالصوفية بداءة
٣١ الملحوظة الثانية : الكلام على الغزالي

٢٢	غضّ الطرف عن خاتمة الغزالي
٢٣	نقول مهمة عن الغزالي تدل على رجوعه
٢٤	فصل: في الكلام على خاتمته - رحمه الله -
	الملحوظة الثالثة: كثرة الاستشهاد بكلام مستشرقين دون الحاجة إلى ذلك
٢٥	
٢٧	المبحث الثاني: دراسة حول الكتاب
٢٩	المطلب الأول: أهمية الكتاب
٤٠	المطلب الثاني: المحور الذي يدور حوله الكتاب
٤٢	المطلب الثالث: ترجمة المؤلف
٤٥	المطلب الرابع: منهج المؤلف
	القسم الثاني: متن الكتاب
٤٩	المقدمة
٥٩	الفصل الأول: مقدمة
٥٩	شكوى ومعدرة
٥٩	الامل في شيخ الصوفية
٦٠	ضحية للصوفية
٦١	إباحة الأم والاخت في الصوفية
٦٢	التجلي في صور النساء
٦٢	واجب شيخ الصوفية
٦٣	لماذا أكتب للشيخ؟
٦٤	دين الصوفية
٦٥	زعمهم أن القرآن شرك
٦٥	زعمهم أن الدين شريعة وحقيقة
٦٦	وسيلة المعرفة الصوفية
٦٩	الفصل الثاني: آلهة الصوفية
٧١	إله ابن الفارض
٧٢	زعمه أنه هو الله

٧٣	الصحو والمحو عند الصوفية
٧٤	ابن الفارض هو المعبود الأكبر
٧٧	عبادة الأنوثة وسببها
٧٨	مجون ابن الفارض
٧٩	كل أنثى ذات إلهية
٧٩	العشاق هم الذات الإلهية
٨٠	سجود الملائكة لابن الفارض
٨٠	إله ابن عربي
٨١	تصويبه لعباده الأصنام
٨٢	ربوبية كل شيء
٨٢	الرب إنسان كبير
٨٣	صور العالم هي الله سبحانه
٨٤	رب الصوفية وجود وعدم
٨٦	تجسد الإله الصوفي في المرأة
٨٨	الإله الصوفي شيء مادي
٨٨	لماذا عبد ابن عربي المرأة؟
٩٠	فقر الإله الصوفي
٩١	إله الجيلي
٩١	زعمه أنه الرب الأعظم
٩٣	رب الصوفية متناقض في ذاته
٩٤	إله الغزالي
٩٥	الغزالي يدين بوحدة الوجود
٩٦	تعظيمه للحلاج
٩٧	رأي المستشرقين في الغزالي
٩٩	خطر وحدة الوجود على الإسلام
٩٩	دندنة الغزالي بوحدة الوجود
١٠١	طعنه على توحيد المسلمين

١٠٤	أصنام صغيرة
١٠٦	رأي المستشرقين في التوحيد
١١٠	صوفي يهتك عرض دابة
١١٤	إيمان الصوفية بكتبهم
١١٥	زعمهم أنها أسرار ورموز
١١٩	الفصل الثالث: دين الصوفية الرسول
١١٩	أطوار الوجود الصوفية
١٢١	الحقيقة المحمدية
١٢٢	زعمهم أن محمداً هو الله والرد عليهم
١٢٣	محمد يتصرف في أقطار الأرض
١٢٩	أشرف صفات الرسول
١٣١	آراء المستشرقين في الحقيقة المحمدية
١٣٤	أكل شيء من نور محمد؟
١٣٦	أكان محمد يعرف القرآن قبل نزوله؟
١٤١	الفصل الرابع: وحدة الأديان
١٤٢	نفهم تعذيب الكفار
١٤٣	الحكم بنجاة فرعون
١٤٤	كل الأديان الباطلة حق
١٤٤	الحكم بنجاة إبليس
١٤٥	وحدة الأديان عند ابن الفارض
١٤٧	الفصل الخامس: شيوخ الصوفية وكراماتهم
١٤٧	عبادة الشيوخ وكراماتهم
١٤٩	لماذا تتوسل الصوفية بالقبور
١٤٩	آراء المستشرقين في التوسل
١٥٠	صوفي يخطب الجمعة عارياً
١٥١	صوفي يبهت البريء بذنبه
١٥٢	صوفي يؤجر على كشف عورته

١٥٢	تطور الصوفيين إلى وحوش
١٥٥	رمة تتصرف في الوجود
١٥٦	جريمة قوم لوط كرامة صوفية
١٥٧	التنكر للعقل وللشرع
١٥٨	صوفي يدبر الأمر
١٥٩	الكلاب أولياء الصوفية
١٦٠	طعن المستشرقين على المصريين بسبب الصوفية
١٦٤	الصوفية يقولون للمشيء كن، فيكون
١٦٧	سماع الجمادات والطواف بالملكوت
١٦٨	صوفي يضمن الجنة لمن يطعمه
١٦٩	الملكوت في بطن صوفي
١٧٠	الدسوقي يملك الجنة والنار
١٧٠	السرقه كرامة صوفية
١٧١	القطب وأعوانه وحقيقته
١٧٤	خاتم الأولياء وتفضيله على كل الرسل
١٧٥	ادعاء كل شيخ أنه الخاتم
١٧٥	لماذا قُضِّل خاتم الأولياء؟
١٧٧	الديوان الباطني
١٧٩	عدد أجساد القطب الكبير
١٧٩	تقاتل الأقطاب
١٧٩	للأقطاب التصرف في كل العوالم
١٨٢	الفصل السادس: التصوف العملي
١٨٥	دعوى الزهد وأصله
١٨٨	الذكر الصوفي
١٨٩	الذكر الصوفي بدعة يهودية
١٩٠	كيفية الذكر وصيغته
١٩١	لا يجوز الذكر ببعض أسماء الله

الموضوع

الصفحة

١٩٢	ذكر الرسول ﷺ
١٩٣	عبادة الصوفية
١٩٥	دعاوي الصوفية وأدعيتهم
٢٠٨	دعوة الصوفية الأخلاقية
٢١٠	العقيدة هي الفيصل
٢١١	أدعية يهودية
٢١٢	ما رب الصوفية مرة أخرى؟
٢١٤	أخلاق الصوفية سلبية
٢١٩	خلاصة دين الصوفية
٢٢٠	خلف الصوفية كسلفهم
٢٢١	فرار الصوفية من النقد
٢٢٣	مزاعم كاذبة
٢٢٣	مرحى بالمحاجة
٢٢٤	دعوة حب إلى الضحايا
٢٢٧	خاتمة
٢٢٩	المراجع والمصادر
٢٣٥	الفهرس

هذا الكتاب

للكتاب الذي بين أيدينا أهمية كبيرة، فقد ذاع صيته في
الآفاق، ودحض به غلاة الصوفية وملاحدة الحلولية
وغيرهم.

وقد اتسم المؤلف بالموضوعية في دراسته؛ حيث نفى
الغبار عن كتب الصوفية أنفسهم وأخذ منها وناقشها
مناقشة الخبير بها، العالم بأسرارها. ولم لا؟! وقد عاش
التجربة بنفسه وتجرع مرارتها.

وقد كان المؤلف - رحمه الله - خبيراً بالفلسفة اليونانية؛
الأمر الذي أهله لدحض نظرية «وحدة الوجود» واجتثاثها
من جذورها...

